

حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية

فصلية علمية محكمة - مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت

المفارقة في النص Irony in the Text

أ.د. صبري الحريقي
باحث متفرغ
اليمن



جامعة الكويت
KUWAIT UNIVERSITY

مجلس
النشر العلمي

ISSN: 1560 - 5248

الرسالة 636 - الحولية 44

1445 هـ / ديسمبر 2023 م

• ثمن العدد

الكويت: 500 فلس، البحرين: دينار واحد، قطر: 10 ريالات، الإمارات 10 دراهم، السعودية: 10 ريالات، عمان : ريال واحد .

ثمن النسخة في دول الوطن العربي ما يعادل دولاراً واحداً .

ثمن النسخة في الدول الأجنبية ما يعادل ثلاثة دولارات .

• الاشتراك السنوي (أفراد):

سنة واحدة: الكويت 4 دينار كويتي، الدول العربية: 6 دينار كويتي، الدول الأجنبية 22 دولار .

سنتان: الكويت 7 دينار كويتي، الدول العربية: 10 دينار كويتي، الدول الأجنبية 37 دولار .

ثلاث سنوات: الكويت: 10 دينار كويتي، الدول العربية: 14 دينار كويتي، الدول الأجنبية 52 دولار .

أربع سنوات: الكويت: 13 دينار كويتي، الدول العربية: 18 دينار كويتي، الدول الأجنبية 67 دولار .

• الاشتراك السنوي (مؤسسات):

سنة واحدة: الكويت 22 دينار كويتي، الدول العربية: 22 دينار كويتي، الدول الأجنبية 90 دولار .

سنتان: الكويت 37 دينار كويتي، الدول العربية: 37 دينار كويتي، الدول الأجنبية 150 دولار .

ثلاث سنوات: الكويت: 53 دينار كويتي، الدول العربية: 53 دينار كويتي، الدول الأجنبية 210 دولار .

أربع سنوات: الكويت: 67 دينار كويتي، الدول العربية: 67 دينار كويتي، الدول الأجنبية 270 دولار .

جميع المراسلات الخاصة بشروط النشر أو أية استفسارات أخرى

توجه إلى رئيس تحرير حويليات الآداب والعلوم الاجتماعية

ص.ب: 17370 الخالدية - الكويت: 72454 - تلفون: 24830256 - فاكس 24830256

ISSN 1560 - 5248 Key title: Hawliyyat Kulliyyat al-Adab

E-mail: aass@Ku.edu.Kw

<http://apc.kuniv.edu.kw/AASS/>

تتوفر نصوص البحوث كاملة لدى:

EBSCO Publishing Products

دار المنظومة: www.mandumah.com

Ulrich's Periodicals Directory 263117

إصدارات مجلس النشر العلمي

مجلة العلوم الاجتماعية 1973، مجلة الكويت للعلوم والهندسة 1973، مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية 1975، لجنة

التأليف والتعريب والنشر 1976، مجلة الحقوق، 1977، حويليات الآداب والعلوم الاجتماعية 1980، المجلة العربية للعلوم

الإنسانية 1981، مجلة الشريعة والدراسات الإسلامية 1983، المجلة التربوية 1983، المجلة العربية للعلوم الإدارية 1991 .

حواشي الآداب والعلوم الاجتماعية

مجلس النشر العلمي - جامعة الكويت

فصلية علمية محكمة تتضمن مجموعة من الرسائل
تعنى بنشر الموضوعات التي تدخل في تخصصات
العلوم الإنسانية والاجتماعية والآداب

الحوالية الرابعة والأربعون
الرسالة السادسة والثلاثون بعد المئة السادسة
1445 هـ / 2023م

حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية – جامعة الكويت

هيئة التحرير

الهيئة الاستشارية

- أ.د. تغريد محمد القدسي
رئيسة هيئة التحرير
قسم دراسات المعلومات – جامعة الكويت
- أ.د. باقر سليمان النجار
جامعة البحرين – البحرين
أستاذ زائر بقسم الاجتماع – جامعة الكويت
- أ.د. نعمان محمود أحمد جبران
جامعة إربد – الأردن
أستاذ زائر بقسم التاريخ – جامعة الكويت
- أ.د. عدنان يوسف العتوم
قسم علم النفس – جامعة اليرموك – الأردن
- أ.د. مشاعل الحملي
قسم اللغة الإنجليزية وآدابها – جامعة الكويت
- د. عبد الله محمد الجسمي
قسم الفلسفة – جامعة الكويت
- د. إبراهيم ناجي الهدبان
قسم العلوم السياسية – جامعة الكويت
- د. أحمد مبارك الحصم
قسم الجغرافيا – جامعة الكويت
- د. أسعد هاشم الصالح
قسم اللغة العربية – جامعة انديانا
الولايات المتحدة الأمريكية
- مها إبراهيم المسعد
مديرة التحرير
- أ.د. باسل حاتم
الجامعة الأمريكية – الشارقة
الإمارات العربية المتحدة
- أ.د. إبراهيم السعافين
قسم اللغة العربية – الجامعة الأردنية
- أ.د. حمدي حسن أبو العينين
كلية الإعلام – جامعة مصر الدولية
- أ.د. ساري حنفي
رئيس الجمعية الدولية لعلم الاجتماع
الجامعة الأمريكية – بيروت
- أ.د. منى بيكر
جامعة مانشستر – المملكة المتحدة
- أ.د. عبدالقادر الفاسي الفهري
قسم اللغة العربية – جامعة محمد الخامس
- أ.د. عبد الله الوليعي
قسم الجغرافيا – جامعة الملك سعود
- أ.د. مأمون فندي
مدير معهد لندن للدراسات الإستراتيجية
المملكة المتحدة

قواعد النشر في حَوَلِيَّات الآداب والعلوم الاجتماعية

- حَوَلِيَّات الآداب والعلوم الاجتماعية: فصلية تنشرُ البحوثَ والدِّرَاساتِ الأصيلَةَ باللغَتَيْنِ العربيَّةِ والإنجليزيَّةِ في مجال العلوم الاجتماعية والإنسانيَّةِ ويتوفَّر فيها ما يأتي:
- أن تُمثِّلَ الدِّرَاسةُ إضافةً جديدةً في حقل التَّخصُّص.
- لم يسبق نشر الدراسة بأي صورة كانت، ولم يسبق أيضاً تقديمها للنشر إلى جهة أخرى أثناء ورودها إلى الحَوَلِيَّات. ويلتزم الباحث بكتابة إقرار وتعهد بأن البحث المقدم لم يسبق نشره في أي وعاء نشر، أو أرسل إلى جهة أخرى.
- ألا يقل عدد كلمات الدراسة عن (15000) كلمة، شاملة المراجع والهوامش والجداول (بحدود 50 صفحة) وألا يزيد عدد الكلمات عن (60000) كلمة في حدود 200 صفحة.
- يطبع البحث بواسطة معالج النصوص Microsoft Word وعلى مسافة ونصف، وبنط Simplified Arabic 14 للبحوث باللغة العربية، وعلى مسافتين، وبنط Times New Roman 12 في حالة البحوث باللغة الإنجليزية. على أن يكون عنوان البحث معبراً عن الدراسة وبحدود 15 كلمة.
- يرفق الباحث ملخصاً للبحث، مطبوعاً باللغتين العربية والإنجليزية، في حدود (250) كلمة. على أن يحوي ملخص البحث: هدف الدراسة وأسئلتها، منهج الدراسة المستخدم، أبرز النتائج المستخلصة وأهم الاستنتاجات، إضافة إلى الكلمات الدالة (المفتاحية).
- يرفق الباحث مع البحث سيرة علمية مختصرة، مطبوعة باللغتين العربية والإنجليزية، تشمل أهم مؤلفاته وأبحاثه.
- تقدم الخرائط والأشكال والرسوم (إن وجدت) بأصولها الصالحة للطباعة بصيغة JPG، وبمستوى دقة 600 × 800.
- في حالة رغب الباحث بنشر الصور أو الخرائط أو الأشكال البيانية الملونة يلتزم بدفع تكاليفها.
- يراعي الباحث عند كتابة البحث الالتزام بالنسخة الأخيرة (السابعة) من نظام جمعية علم النفس الأمريكية (APA7) American Psychological Association من حيث كتابة المراجع والهوامش في متن البحث، إضافة لقائمة المراجع. على الوجه الموضح أدناه.
- كتابة المرجع في المتن: اسم العائلة للمؤلف متبوعاً بفاصلة، ثم سنة النشر. (يرجى الرجوع إلى دليل التوثيق وفقاً لنظام (APA7)).

مثال (Courtois, 2001)

- قائمة المراجع: يرجى الرجوع إلى دليل التوثيق وفقاً لنظام (APA7) للتفاصيل.

Jones, J. (2005). Writing with style. Style Writing Journal, 12 (6),1433

ويمكن زيارة موقع APA لمعرفة القواعد الخاصة بنظام (APA7) على:

<http://www.apastyle.org>

- يجب أن تشتمل جميع البحوث على قائمة المراجع كاملة في نهاية البحث، على أن يكون بنط الكتابة بالنص الروماني (Times Roman Script).
- لمعرفة قواعد النشر وأخلاقياته الرجاء مراجعة موقع الحوليات الإلكتروني:

<http://apc.kuniv.edu.kw/>

شروط قبول البحوث في الحوليات:

- يجب أن يقدم البحث عن طريق نظام الـ OJS وليس البريد الإلكتروني؛ ليتسنى للحوليات البدء بالتقييم. - تقبل الحوليات البحوث التي تقدم إلكترونياً فقط من خلال الموقع:

<http://journals.KU.edu.KW/aass>

- لا تقبل مجلة الحوليات البحوث التي سبق نشرها بأي شكل أو وسيط.
- لا تقبل مجلة الحوليات نشر أبحاث الماجستير أو الدكتوراه أو أي مستلات منها.
- لا ترد ولا تسترجع أصول البحوث المقدمة للنشر، سواء نشرت أم لم تنشر.
- لا يجوز نشر البحوث مع جهات أخرى إلا بعد موافقة الحوليات على ذلك وإذا ثبت نشرها فستتخذ إدارة الحوليات الإجراءات القانونية المتبعة بهذا الشأن.
- يمكن للباحث نشر بحثه مع جهات أخرى، بعد الحصول على إذن كتابي سابق من رئيس التحرير، وبعد انقضاء ثلاث سنوات على نشره في الحوليات.
- يعرض البحث الذي تتوافر فيه القواعد المذكورة سابقاً وبعد موافقة هيئة التحرير، على محكمين إثنين لتقرير مدى صلاحية البحث للنشر في المجلة، ويكون التحكيم ثنائياً الحجب (Double Blind Review).
- تمنح المجلة للباحث ثلاثين نسخة مجانية مطبوعة من بحثه المنشور.
- ترسل جميع المراسلات الخاصة بالحوليات ما عدا البحوث، إلى رئيس التحرير عن طريق البريد الإلكتروني للمجلة.

رئيس تحرير حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية

ص.ب : 17370 الخالدية

رمز بريدي : 72454 - الكويت

ISSN 1560 Key title: Hawliyyat Kulliyyat al-Adab

<http://apc.kuniv.edu.kw/AASS>

E-mail: aass@ku.edu.kw

الإصدار الثاني - الحولية الرابعة والأربعون - ديسمبر 2023م

يصدر هذا العدد مع نهاية عام 2023 ونحن نشرف على بداية العام الجديد نتمنى أن يكون عام خير ورفاه، عام عدل وسلام على الجميع. أما نحن في الحوليات؛ فلا نزال نصارع الوقت لنشر إصداراتنا في وقتها، ولعلنا في ذلك نعدّ مثلاً حياً لما تعانیه صناعة النشر في الوطن العربي، ناهيك عنها في الكويت.

الرسالة 633 هي الأولى في هذه الحولية وجاءت تحت عنوان *جدلية السرد والحوار: قراءة في خمريتين لأبي نواس*، وأعدّها الدكتور كمال محمد السيد محمد عبد البر من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة. وهي دراسة مقارنة بين نصّين لقصيدتين لأبي نواس، يختهما الباحث بدعوة الباحثين الحاليين أن لا يهملوا النصوص التراثية العربية، وأن يعطوها من جهدهم وطاقاتهم، ويشبعوها بحثاً ودراسة.

الرسالة 634 هي الثانية في هذه الحولية وجاءت تحت عنوان *المكان وتشكلات العنف في رواية بئينة العيسى (خرائط التيه)* للدكتورة دلال بنت بندر المالكي من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالملكة العربية السعودية. وفيها تقرّب الباحثة الأشكال العديدة للعنف أمام القارئ، كما وردت في الرواية المذكورة، وتحاول الإجابة عن سؤال مفاده: كيف يعكس المكان نوع العنف؟

الرسالة الثالثة في هذه الحولية هي الرسالة 635 وأدرجت تحت عنوان *المسيحية من دعوة محلية إلى ديانة عالمية: دراسة اجتماعية فلسفية في أسباب الانتشار وآليات التنصير في العالم الإسلامي* للدكتورة وسيلة يعيش خزار من جامعة الشارقة والدكتورة نعيمة إدريس بنت مبروك من الجزائر. تبحث هذه الرسالة في تحوّل الديانة المسيحية من دعوة محلية مبنية على التسامح والمحبة إلى دعوة عالمية تمتلك صفات المنافسة، على يد المبشرين، كما تبحث في تخوّل المتعصبين المسيحيين من الإسلام المتسارع في الانتشار؛ إذ رأوه منافساً لهم؛ ومن ثمّ عمدوا إلى مواجهته بوسائل غير مشروعة، من الواجب التصدي لها؛ كالاستشراق.

الرسالة الرابعة هي الرسالة 636 وعنوانها *المفارقة في النص*، للدكتور صبري الحقي في وزارة الثقافة باليمن. تبحث الدراسة في طبيعة مصطلح المفارقة ووظيفته، ويفسر فيها الباحث الخلط بين المفارقة والتهكم، ثم يعرّج على الاستخدامات العديدة للمفارقة، ويوضح بإسهاب الفرق بين المفارقة في النص الأدبي والمفارقة في الحياة اليومية.

أما الرسالة الخامسة 637 فهي بعنوان *أسلوب التعجب في العربية: دراسة وصفية إحصائية*، للدكتورة حليلة أحمد عمايرة من قسم اللغة العربية في جامعة البلقاء التطبيقية بالأردن. وتعرض لأسلوب التعجب في اللغة العربية، إحصائياً، في عدد من النصوص، وتعرض على استخداماته في القرآن الكريم وعيّنة من النصوص الأدبية؛ لتخلص إلى ما طرأ على استخدامات هذا الأسلوب من تغيير.

الرسالة السادسة 638 بعنوان *أسواق العسكر ومنظومتها التجارية عبر عصور الحضارة الإسلامية: دراسة تاريخية منذ القرن الأول حتى نهاية القرن التاسع الهجري 9:1 هـ/15:7 م*، للدكتور عطية فتحي الويشي من قسم التاريخ والحضارة الإسلامية بكلية القانون الكويتية العالمية. وفيها يتناول أسواق العسكر في الدول الإسلامية العديدة وأهميتها، ودواعي تأسيسها بدءاً بالقرن الأول وانتهاء بالقرن التاسع الهجري، وعرض على الآثار الاجتماعية لأسواق العسكر، التي كانت جزءاً لا يتجزأ من النظم الاقتصادية للدول.

والرسالة الأخيرة في هذا الإصدار هي الرسالة 639 وجاءت تحت عنوان *تأويل الشطح في قول الحلاج: «أنا الحق»*. وهي تبحث في موضوع الشطح واستخداماته، وبخاصة في الفكر الصوفي، وهو موضوع قد يقود إلى تأويلات لا تحمد عقباها، كما تتناول نظرة الفلاسفة المسلمين؛ مثل الرازي، وابن خلدون، والغزالي، إلى الفكر التصوّفي وإمكانات تأويله التي قد تقود إلى التنكيل بالتعبير بالشخص.

أتمنى لجميع القراء الأعزاء قراءة ممتعة، عبر التنقل بين هذه الموضوعات المتنوعة التي نحرص على توافر التباين بينها؛ لتكون محوراً لمناقشات ثرية، وحوارات مثمرة، بين أهل الاختصاص على وجه الخصوص، والقراء على وجه العموم.

أ.د. تغريد القدسي - غبرا
رئيسة التحرير

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾

(سورة المجادلة: الآية 11)

المفارقة في النص

Irony in the Text

أ.د. صبري الحيقي

باحث متفرغ

اليمن

المؤلف:

صبري الحريقي

- صبري الحريقي: (صبري عبد الكريم غالب الحريقي) فنانٌ تشكيلي وشاعرٌ. من مواليد 1961م، اليمن.
- باحث متخصص في النقد الدرامي وفي تقنيات التأليف الدرامي...، أكاديمية الفنون، القاهرة، 2006.
- باحث متفرغ.

المؤلفات المنشورة

دراسات:

- 1- المفارقة في النص.
- 2- الدال والاستبدال في مصادر النص، صنعاء، مركز عبادي للدراسات والنشر، 2008.
- 3- المفارقة في النص الروائي اليمني، النقاد يصنعون موجة للبحر، (بالاشتراك مع مجموعة باحثين)، صنعاء، اتحاد الأدباء والكتاب اليمنيين، 2008.
- 4- المفارقة في فن الكاريكاتير، ناجي العلي، (بالاشتراك مع مجموعة باحثين)، صنعاء، مركز الدراسات والبحوث اليمني، 2008.

نصوص:

- 1- زيد الموشكي، (قصة تاريخية للفتيان)، عن سلسلة كتاب الطفل، وزارة الإعلام والثقافة، صنعاء، 1983.
 - 2- أشعار في زمن الفوضى، 1985، مطبعة تجارية، الكويت. (شعر).
 - 3- فيض 1990، مطبعة عكرمة، سوريا. (شعر).
 - 4- العزاف 1992 (مسرحية).
 - 5- المشاركة مع مجموعة شعراء عرب وفرنسيين في كتاب:
- L'ivre Caravane*, Paris, Sous le patronage de l'Unesco, 1993.
- 6- 2000م، مختارات شعرية، باللغة الفرنسية، مع بعض أعمال المصورة البلجيكية «ازابيل وتس»:
- Yemen Peuple des Sables*, "Belgium", ©LA RENAISSANCE LIVR, 2000.
- 7- المشاركة في معجم البابطين للشعراء العرب. ومعجم الأدياء (1-7) ومعجم الشعراء (1-6).
 - 8- المشاركة في معجم شعراء الجزيرة العربية في القرن العشرين، المصادر عن دار البابطين.
 - 9- دُرست بعض أعماله الشعرية، في بعض الرسائل العلمية والأبحاث، مثل أطروحة دكتوراة: (الأسلوبية في الشعر اليمني الحديث) جامعة عين شمس، القاهرة، 1995 للدكتور أحمد قاسم الزمر.

الرسائل العلمية والأبحاث:

- 1- مشكلة التوافق في شخصية البطل الدرامي 1985م الكويت، المعهد العالي للفنون المسرحية. (رسالة البكالوريوس من قسم النقد والأدب)، نشرت في مجلة اليمن الجديد في مارس 1998م.
- 2- التأسيس الإداري في اليمن بالتطبيق على المؤسسة العامة للمسرح والسينما 1995م، المعهد الوطني للعلوم الإدارية- صنعاء.
- 3- تقنيات التأليف الدرامي...، أكاديمية الفنون - القاهرة 2006.

أبحاث علمية محكمة مثل:

- 1- فلسفة الاستبدال في القرآن الكريم، وفي نظرية مصادر النص.

فهرس المحتوى

13	 الملخص
15	 المقدمة
25	 هوامش المقدمة
29	 الفصل الأول : في مفهوم المفارقة
48	 هوامش الفصل الأول
51	 الفصل الثاني: في وظائف المفارقة
77	 هوامش الفصل الثاني
79	 الفصل الثالث: بعض المفارقات في آيات من القرآن الكريم
137	 الخاتمة
143	 هوامش الفصل الثالث
151	 المراجع
154	 ملحق (1) : الوحدة الموضوعية في سورة الكهف
164	 ملحق (2) : ملاحظات مهمة في بعض آيات سورة آل عمران



الملخص

يهدف هذا البحث إلى فهم طبيعة مصطلح المفارقة ووظيفته؛ فهمًا يزيل غموضه ويوسع وظيفته. ويتحقق هذا الهدف من خلال دراسة أنواع المفارقات، وتعريفاتها، وإشكالاتها، وتطبيقاتها؛ من خلال الوصف والتحليل. ومن الإشكالات التي صاحبت هذا المصطلح منذ نشأته وهي: مشكلة الخلط بين المفارقة والتهكم. مشكلة تعدد أنواع المفارقة وتعريفاتها؛ مثل (المفارقة اللفظية) و(الرومانسية) و(الدرامية) و(القدريّة) ... عدم الفصل بين استخدام المفارقة في النص الأدبي، وحدثها في الحياة اليومية. قسم هذا البحث إلى ثلاثة فصول: الفصل الأول: يختص بطبيعة مصطلح المفارقة وإشكالاته؛ وفيه توصلت إلى مفهوم وتعريف واحد للمصطلح؛ (أن تفهم قولاً أو فعلاً أو شيئاً فهمًا بغير حقيقته، فتحدث مشكلة). الفصل الثاني: وظيفة المفارقة في النص الأدبي، وتستخدم فيه تقنية بناء، وجمالية، وتحدث في الحياة اليومية. الفصل الثالث: تطبيق المفارقة؛ وقد كان من خلال آيات من القرآن الحكيم، فيها أمثلة للمفارقات، خاصة في سورة (الكهف) وسورة (يوسف) تحذر الإنسان من الوقوع فيها، بروية فتحت آفاقاً إضافية في فهم بعض آيات القرآن الحكيم.

الكلمات الدالة (المفتاحية): المفارقة، النص، التهكم، المفارقة اللفظية، الرومانسية، الدرامية، القدريّة، تقنية.

المقدمة

مشكلة اللبس في الفهم أو سوء الفهم؛ للقيم ... أو للحقائق ... أو للآخرين أو للأشياء... هي مشكلة الإنسان، وهي مشكلة المجتمعات والشعوب من بداية الخلق مع بداية خطيئة آدم وحواء عليهما السلام؛ حيث أكلا من شجرة فهمًاها على غير حقيقتها، ثم من ابني آدم اللذين فهم أحدهما الحق واتبعه وعجز الآخر عن ذلك فقال (لَأَقْتُلَنَّكَ) وسنّ للشر سنة سفك الدماء، ومروراً بالأخطاء الفكرية، ووصولاً إلى الأخطاء اليومية التي تحدث بسبب خطأ فهم القيم التي يؤمن بها الإنسان، أو سوء فهم الحقائق أو الأشياء أو أقوال الآخرين أو أفعالهم أو سوء الظن أو التهور.

ولأن هذه المشكلة تدخل في دلالة مصطلح (المفارقة) كان لا بد من فهمه بوضوح ودقة لكي نتمكن من فهم تطبيقاته ومعالجة إشكالاته التي تتسبب في شقاء الإنسان في حياته.

المفارقة (Irony) من مصطلحات النقد الحديث التي لم تحظَ بما تستحقه من العناية لفهم ودراسة النصوص الأدبية والدينية والفكرية نتيجةً لبعض الإشكالات التي علقت بالمصطلح؛ وهي إشكالات جزئية في الثقافة العالمية ومركبة في الثقافة العربية؛ حيث يعاني المصطلح من إشكالات معقدة في مفهومه وترجمته كما سيتضح في الإشارات التي سترد في نهاية هذه المقدمة.

على مستوى المراجع الصادرة بغير اللغة العربية نجد أنّ مشكلة الخلط بين مفهوم مصطلح المفارقة اللفظية Verbal Irony ومصطلح التهكم Sarcasm أدت إلى صعوبة المصطلح وتعقيده.

في كتاب (المفارقة 2003) تقول كلير كوليبروك: «على الرغم من التعقيد والصعوبة عادةً، للمفارقة تعريفٌ دائمٌ شائع: ما يُقال على نقيض ما يعنى» والتعريف الشائع نقلًا عن كونتليان⁽¹⁾.

في كتاب (المفارقة والتهكم / Irony and Sarcasm) 2020، الذي ألفه Roger Kreuz -وهو آخر مرجع توفر لدي- تجلّت بوضوح مشكلة الخلط بين

المفارقة والتهكم، وهو مثل غيره من الدراسات التي بدأت بالشكوى من غموض المصطلح وتعقيده.

وفي دراسة عن أدوات المفارقة...، 2010، يقول فليب نلسون: «في المناقشات النظرية لمفهوم المفارقة هناك إجماع في الآراء حول صعوبتها وتعقيدها»⁽²⁾ ويقول رينيه ننت في كتابه (الناقد العريق 2009): «في نفس الوقت، المفارقة تكون قضية زلقة وتسبب صداماً حاداً، مفهوماً واصطلاحاً»⁽³⁾. وتقول لندا هتشون في كتابها Irony's Edge (حافة المفارقة 1994): «من الصعوبات في الكتابة حول المفارقة القرار كيف تفعل ذلك. يتفقون النقاد على أن تحليل المفارقة معقد وشاق»⁽⁴⁾. وفي سياق حديثه عن الغموض والتعقيد يقول جريجوري كاستل في كتاب (دليل بلاكويل إلى النظرية الأدبية 2007): «المفارقة غموض وتناقض»⁽⁵⁾.

حينما نعرف أن مصطلح المفارقة Irony بدأ بالتبلور كمصطلح نقدي حديث في نهاية القرن الثامن عشر 1797⁽⁶⁾، فإن التعريفات والدلالات المتعلقة باللفظ Ironia أو Ironie قبل الميلاد عند الإغريق أو عند الرومان تبقى دلالات محصورة في سياقها التاريخي للفظ المفارقة؛ ومن هنا فلا يمكننا أن نعتمد المفارقة السقراطية أنموذجاً لتعريف المصطلح، وكذلك تعريف Quintilian، وهي تعريفات تناقلها كثير من الباحثين للمفارقة اللفظية، مما أحدث خلطاً بينها والتهكم كما في التعريف الشائع الذي أورده كليبر كوليبروك (2003) المأخوذ من الخطيب الروماني Quintilian: «ما يقال على نقيض ما يعنى».

مصطلحٌ تحددت وظيفته النقدية في نهاية القرن الثامن عشر، فكيف نأخذ تعريفاً له من قبل الميلاد أو من العصر الروماني؟!

يشير تيري ايجلتون في كتاب (الحياة الأدبية - 2012) إلى المفارقة في أكثر من موضع، لكنها إشارات تكشف فهماً تقليدياً لا يتجاوز التهكم؛ وفي مثال واضح للتهكم الذاتي يتحدث ايجلتون عن الإيهام في القصة: «نوع من المفارقة أن نفزع لموت كورديليا في حين ينبهنا صمويل جونسون أنه لا يغيب عن أذهاننا مطلقاً أننا في مسرح»⁽⁷⁾.

فإذا كان مصطلح التهكم يقوم بوظيفته بوضوح، فما حاجتنا لمصطلح آخر يقوم بنفس الوظيفة ونشكو من صعوبته وتعقيده؟! لهذا هناك من أدرك فارقاً واضحاً وجوهرياً بين المفارقة والتهكم، مثل ما ورد في (الموسوعة المصغرة لفلسفة اللغة واللسانيات 2010)⁽⁸⁾ كما سيتضح في سياق المفارقة والتهكم، فإشكالية هذا المصطلح إشكالية مُتكررة قبلت التباين في أنواعه وبقيت سنواتٍ طويلة تعيد النقل ولا تعيد التفكير.

في كتاب (الأفكار الرئيسية في اللسانيات وفلسفة اللغة 2009) الذي حرره شابمن سيوبان وكريستوفر راتلج نجد شرحاً لإيفان جوركي عن (المفارقة اللفظية) من خلال نظرية التواصل Relevance theory:

«نظرية التواصل نظرية معرفية للبراجماتية»⁽⁹⁾، طورت في الثمانينيات من القرن الماضي من قبل سبير بير وديري ولسون؛ وهي نظرية جديدة لدراسة التواصل الإنسانية... يفترض علماءها أن التواصل الإنسانية تقوم أساساً على نيات المتكلم بشكل خاص، وأن الإدراك اللفظي تضمنين، ليس فقط فك شفرة إشارات الكلام، لكن أيضاً تمييز نيات المتكلم الصريحة»⁽¹⁰⁾...

«المفارقة اللفظية على سبيل المثال تم تحليلها في هذا الإطار (استعمال ارتدادي) للغة التي يعزل فيها المتكلم نفسه ضمنياً من النطق المنسوب أو القصد. على سبيل المثال تقول (أنت حقاً جيد في هذا) بعد أن أخفق صديقك في هجوم مضاد وسريع في إحراز هدف سهل. يمكن أن يُفسر هذا كمفارقة لفظية؛ لأننا نعزل أنفسنا من نطق أو قصد مع محتوى مماثل وهو (ثقتنا بقدرات صديقنا كلاعب كرة ماهر) لكن ظروف اللعبة كانت غير مواتية.

هذا التحليل المنطلق من وصف جرسين الأكثر تقليدية وفقاً للمفارقة اللفظية يشكل انتهاكاً علنياً لقاعدة سلوكية معروفة. بهذه الطريقة نعطي تزايداً حقيقياً للتشابك الذي يناقض المعنى الحرفي لنطق الجملة. تقاربُ التواصل النظري من المفارقة اللفظية يكون في الانسجام مع فرضية الإطار، وذلك في توقع التواصل بدلاً من المصادقية بحيث تكون معياراً للاتصال اللفظي»⁽¹¹⁾.

قد لا يكون في المثال السابق تهكمٌ لكنه لا يتضمن مفارقة واضحة بقدر ما يتضمن تضاداً أو تفسيراً مفارقاً، ومن خلال فهم تيري ايجلتون وإيفان جوركي -على ما بينهما من فارق واضح- ينبغي أن نلاحظ إلى أي مدى بقيت المفارقة اللفظية تبتعد عن دلالة بقية أنواع المفارقة فيزداد التعقيد، خاصةً حينما يعمم البعض مفهوم المفارقة اللفظية أو السقراطية على بقية الأنواع التي تختلف اختلافاً جوهرياً عن المفارقة اللفظية أو السقراطية كما سيتضح في الإشارة إلى معجم تشاندلر.

حينما ترجم الدكتور شاكر عبد الحميد معجم تشاندلر Semiotics for Beginners لـ Daniel Chandler أسقط ترجمة مصطلح Irony⁽¹²⁾. وبالعودة إلى الصيغة الأصلية لشرح المصطلح في ذلك المعجم كان التعريف غائماً، مما يجعل إسقاط ترجمته مبرراً: «المفارقة مجاز بلاغي هي نوع من الإشارة المزدوجة في أي «إشارة حرفية» تجتمع مع الإشارة الأخرى إلى حد مطابق لتبين المعنى المعاكس» (P. 105).

هذه الصياغة تحمل من الغموض أكثر مما تحمله من التوضيح، ومثل هذه التعريفات يثقل كاهل النقد في التعامل مع هذا المصطلح المهم ويسهم في تغييبه عن الدرس النقدي. لو قيل إن المفارقة دال يحتمل عدة دلالات بحيث يصل هذا الاحتمال إلى درجة الالتباس بين الدلالة المقصودة والدلالة المحتملة وهي عادة دلالة معاكسة، فهذه الصياغة أكثر وضوحاً لفهم المصطلح، لكن رواسب التعريفات التقليدية المرتبطة بالمعنى البلاغي تجعل مشكلة الدلالة المعاكسة مقصودة من المتكلم، أي مشكلة إشارة Signe أو مشكلة دال Signifier وليست ملتبسة لدى المتلقي، أي مشكلة مدلول Signified أو دلالة Signification وهو ما أحدث هذا الإرباك في التعريف، فتعريف تشاندلر اعتبر المفارقة إشارة تتعالق مع إشارة أخرى إلى حد التطابق لتبين المعنى المعاكس.

وبالمقارنة بين هذا التعريف وتعريف أبرامز وكليز كوليبروك، فقد وقع الأول في تعريف قابل للخلط مع التهكم، ووقع الثاني في الازدواج مع المعنى التقليدي والمعنى الحديث. وتعريف أبرامز هو الأكثر تداولاً بحكم أسبقيته وشهرته: «المفارقة

اللفظية... تكون بياناً في معنىٍ لمتكلم يختلف تماماً عن المعنى المصور ظاهرياً»⁽¹³⁾.
أما كوليبروك فيرى أنّ: «المفارقة اللفظية... أن تقول شيئاً وتعني آخر. أو قول شيء على نقيض ما يفهم»⁽¹⁴⁾.

تعريف أبرامز وكليبر كوليبروك حدد نوع المفارقة التي تتعلق بهذا التعريف؛ وهي المفارقة اللفظية، وهذا يجعل منهجها دقيقاً، في حين أنّ معجم تشاندلر لم يحدد. وهو ما يجعل تعريفه شاملاً لأنواع أخرى من المفارقات، وهذا تعميم يبتعد عن الدقة العلمية؛ لأن بقية أنواع المفارقة تختلف اختلافاً جوهرياً عن المفارقة اللفظية.

لكنّ بقدر ما نجد من الغموض والتعقيد في بعض الدراسات عن المفارقة نجد بالمقابل تعريفات وتطبيقات واضحة ودقيقة: في مفارقة الموقف Situational Irony أورد ميويك مثلاً أشارت إليه في الفصل الأول؛ حينما يهزأ أحد المتواجدين في قصر أوديسيوس من احتمال عودته، بينما في الوقت نفسه يكون متواجداً بينهم، متنكراً بزي شحاذ. المفارقة في هذا الموقف خارجية تقع على جميع الحاضرين الذين يعرفون أنّ أوديسيوس غادر موطنه وانقطعت أخباره، فحسبوه من الهالكين، ولم يحسبوا حساباً لعودته بتلك الطريقة.

في دراسة باسم (لعبة المفارقة في روايات تشارلز ديكنز 2010)⁽¹⁵⁾ أمثلة واضحة ودقيقة لمفارقة الموقف، لا تقبل اللبس ولا الخلط مع التهكم، خاصة في سياق دراسة رواية (دومبي والولد)؛ حيث تبقى مفارقة الموقف على مدار الحكمة ثمّ تتكشف النهاية غير المتوقعة، وهي أيضاً غير متوقعة بالنسبة للشخصيات المشاركة في الأحداث وللقارئ أيضاً. الشخصية التي تبدو أمام الناس محترمة وتقية يتضح في النهاية النصب والاحتيال في حقيقتها⁽¹⁶⁾. هذه المفارقة يمكننا أن نسميها مفارقة خارجية، إضافة إلى كونها مفارقة داخلية؛ الحقيقة بقيت غائبة عن القارئ وعن الشخصيات المشاركة وبقي المحتال على مدار الحكمة يخفي حقيقته حتى تكشف في آخر العمل.

نفترض هنا أنَّ مشكلة الغموض والتعقيد في هذا المصطلح -في جانب منها- مشكلة المنهجية العلمية النمطية التي تعتمد على النقل دون تفكير، نتج عن هذه النمطية: (مفارقة سقراطية) و(مفارقة لفظية) ومفارقات أخرى؛ (مفارقة رومانسية) و(مفارقة أحداث) و(مفارقة كونية أو قدرية) و(مفارقة درامية) و(مفارقة بنيوية) و(مفارقة موقف).

وكانت الفترة الرومانسية هي التي تحدت فيها دلالة المصطلح النقدي الحديث، من خلال الفهم التنظيري لفردريك شليجل، لكن النمطية المنهجية تعاملت مع كل الأسماء التي درست المفارقة في الفترة الرومانسية تحت مسمى المفارقة الرومانسية، مع العلم أنَّ بعض تلك الأسماء كان فهمها تقليدياً بلاغياً يقوم على مفهوم المفارقة في العصر الروماني واليوناني، مثل الأخ الأكبر لفردريك شليجل؛ أغسطس فلهم شليجل.

حينما نتأمل تعريف المفارقة الكونية أو القدرية ومفارقة الأحداث ومفارقة الموقف وحتى المفارقة الدرامية كما سيتضح في سياق تعريف المفارقة في الفصل الأول، سنجد بينها علاقة مشتركة تمكّن أيّ باحث من إدراجها جميعها تحت مسمى واحد؛ لهذا حصر بعض الباحثين المفارقة في نوعين فقط: المفارقة اللفظية Verbal Irony ومفارقة الموقف Situational Irony⁽¹⁷⁾؛ وهي غريبة دقيقة لأنواع المفارقة.

إذاً بالمتابعة التحليلية الدقيقة لنشأة وتطور مصطلح المفارقة يكون من الممكن تفكيك غموضه وتعقيده والوصول إلى أهداف هذا البحث وفي مقدمتها إزالة الخلط بين المفارقة اللفظية والتهكم، ثم التوصل إلى تعريف واحد يشمل كل أنواع المفارقة، إضافة إلى التفريق المنهجي الدقيق بين المفارقات المستخدمة في النصوص الإبداعية والمفارقات التي تحدث في الحياة اليومية، وخصوصية المفارقات في النصوص الدينية والفكرية، إضافة إلى المتن الحقيقي والأهم في هذا البحث وهو التطبيقات، خاصة على بعض آيات القرآن الكريم.

مشكلة المصطلح في الثقافة العربية أكثر تعقيداً، تبدأ بالخلط بين المفارقة والتهكم والتضاد⁽¹⁸⁾، وإذا كانت هذه إشكالية جزئية في الكتب والأبحاث بغير اللغة العربية فقد أصبحت غالبية في الدراسات والكتب العربية⁽¹⁹⁾؛ فالكثير يفهم المفارقة تهكماً أو تضاداً⁽²⁰⁾.

في بداية الثمانينيات من القرن الماضي ابتداء استخدام المفارقة ترجمة لمصطلح Irony، وذلك من خلال ترجمة كل من الدكتور إبراهيم حمادة والدكتور عبد الواحد لؤلؤة؛ حيث صدر (معجم المصطلحات المسرحية) للدكتور إبراهيم حمادة وفيه ترجمة لمصطلح المفارقة الدرامية على أساس أن أصل لفظ المفارقة جاء من فارق أو باعد بين شيئين أو معنيين، وفي ذلك المعجم شرح واضح للمفارقة الدرامية، وفي نفس الفترة صدرت ترجمة كتاب (المفارقة) لميويك Douglas Colin Muecke وفي طبعته الأولى إشارة دقيقة لمشكلة ترجمة Paradox بمعنى المفارقة، ثم أعاد الدكتور عبد الواحد لؤلؤة تصحيح ترجمته بسبب الأخطاء الكثيرة التي صاحبت الطبعة الأولى، وصدر باسم (المفارقة وصفاتها) وهو من المراجع المهمة على مستوى العالم.

والدراسات التي صدرت في تلك الفترة تعاملت مع مصطلح مفارقة Irony بحسب ما استندت عليه في المراجع الأجنبية مثل الدكتورة نبيلة إبراهيم⁽²¹⁾ والدكتورة أمينة رشيد⁽²²⁾.

لكن في السنوات الأخيرة من القرن العشرين، إلى الآن، طرأت أكثر من مشكلة؛ فإضافة إلى المشكلة الأولى مشكلة الخلط بين مفهومي المفارقة والتهكم، هناك مشكلة ترجمة مصطلح irony بالمعنى اللغوي وليس بالمعنى الاصطلاحي، والمعنى اللغوي هو (سخرية) في حين أن المعنى الاصطلاحي هو (مفارقة)، فمثلاً: في كتاب (تقنية الكتابة) الذي ألفه مجموعة مؤلفين وترجمه رعد عبد الجليل جواد، وصدر عن دار الحوار، سوريا، في أكثر من طبعة، ترجم (قوة حبكة المفارقة): (قوة حبكة السخرية)⁽²³⁾.

وفي كتاب (فن الرواية) لديفيد لودج، الصادر عن المجلس الأعلى للثقافة بالقاهرة، الذي ترجمه ماهر البطوطي، قدّم تحت عنوان (السخرية) شرحاً واضحاً

للمفارقة وهو ما تأكد بعد العودة للنص الأصلي **The art of fiction** حيث تبين أنَّ العنوان المقصود هو المفارقة irony⁽²⁴⁾.

وفي كتاب (الحداثة وما بعد الحداثة) جاءت ترجمة مصطلح Irony بمعنى (الهزل) أي بالمعنى اللغوي وليس بالمعنى الاصطلاحي، رغم أنه ورد في قائمة المصطلحات!! والكتاب من ترجمة د. عبد الوهاب علوب⁽²⁵⁾.

ولأنَّ مصطلح Irony تُرجم بالمفارقة في الثمانينيات من القرن الماضي، تمَّ تداولها واستمرارها إلى الآن، فالمنهجية العلمية تفرض على من يترجم هذا المصطلح بالمعنى اللغوي أن يوضح الأسباب التي دعت له لمخالفة الترجمة التي سبقته.

الوجه الآخر لمشكلة الترجمة هو أنَّ البعض قد ترجم اللفظ Paradox بمعنى (مفارقة) كما في كتاب (نظرية التأويل - الخطاب وفائض المعنى) لبول ريكور، الذي ترجمه سعيد الغانمي، فقد أورد في دليل المصطلحات أمام كلمة المفارقة لفظ Paradox.

ورد مصطلح المفارقة في موسوعة (ويكيبيديا) باللغة العربية بشكل مختلف تماماً عما هو متعارف عليه عالمياً؛ حيث ورد فيها اللفظ Paradox ولم يرد Irony ولا الأصل اللاتيني Ironia مع العلم بأنَّ نفس هذه الموسوعة باللغة الإنجليزية Irony والفرنسية Ironie وفي الإيطالية Ironia والألمانية Ironie والإسبانية ironie، أوردت المصطلح صحيحاً.

في (المعجم الفلسفي) الصادر عن مجمع اللغة العربية، القاهرة، 1983م ص188 ورد: «مفارقة (E) Paradox (F) Paradoxe ما يضاد الرأي الشائع، وقد يستخدم اللفظ للزراية». وفي ص248 أورد Ironie بمعنى تهكم⁽²⁶⁾، والمعجم الفلسفي ترجمت المفارقة بـ Paradox مثل (المعجم الفلسفي) 1982 تأليف د. كمال صليبيبا⁽²⁷⁾، وقد اعتمد عليهم مراد وهبه في (المعجم الفلسفي) 2007⁽²⁸⁾.

في كتاب (المناهج الفلسفية) للدكتور الطاهر وعزيز وتحت عنوان (المفارقات) جاء ما يبتعد كثيراً عن دلالة المصطلح: «المفارقة كل ما هو معارض للرأي العام أو المقبول، وليس بالضرورة باطلاً، أي أنه لا يخرج عن طبيعة الأشياء، أو كما قالت

الموسوعة البريطانية، هو ما يدهش ولكنه حق، أو حق يبدو باطلاً»⁽²⁹⁾ وفي قائمة المصطلحات ثبت أمام المفارقة لفظ Paradox ولو أنه عاد للمصطلح Irony في (الموسوعة البريطانية) وفي (موسوعة كولومبيا الأدبية) وفي (قاموس التراث الأمريكي للمصطلحات) وفي (معجم أكسفورد للمصطلحات الأدبية) وإلى المعاجم والكتب المتخصصة في المصطلح، لتغير شرحه وترجمته للفظ Paradox.

مصطلح Paradox بالإنجليزية و Le Paradoxe بالفرنسية؛ ربما يكون أقرب ترجمة لدلالته هي (الضدية)؛ وبالعودة إلى المعاجم والموسوعات التي تناولته مثل (معجم بنجوين للمصطلحات الأدبية والنظرية الأدبية)⁽³⁰⁾ و(موسوعة فلسفة اللغة واللسانيات)⁽³¹⁾ كان شرحه يختلف تمامًا عن مصطلح Irony. ولا مشكلة بين المصطلحين في اللغة الإنجليزية. إذاً هي إشكالية ترجمة⁽³²⁾.

من الواضح أن مشكلة المصطلح في الثقافة العربية أكثر تعقيداً وتشويشاً، وهناك الكثير من الكتب والدراسات الجامعية التي أوردت (المفارقة) بدلالة تبتعد كثيراً أو قليلاً عما هو متعارف عليه عالمياً لكني تجنبتها، وما يستحق الإشارة منها يدخل ضمن ما سبق تناوله. ومن ثم نكون في أمس الحاجة لأكثر من بحث علمي ولأكثر من دراسة منهجية في هذا المصطلح وتطبيقاته.

وينقسم هذا البحث إلى ثلاثة فصول:

الفصل الأول في المفارقة في طبيعة الإنسان ونشأة المصطلح إلى أن تحدت قيمته النقدية في نهاية القرن الثامن عشر، ثم تضمن عرضاً موجزاً لمشكلة الخلط بين المفارقة والتهكم، كما تمت الإشارة بإيجاز إلى المفارقة الداخلية والمفارقة الخارجية، كذلك تعرض البحث للمفارقة لكونها عملية استبدالية، وتمت الإشارة إلى من يرى المفارقة جمالية، ثم تم عرض أنواع المفارقات التقليدية التي تتعدد فيها أنواع المفارقة وتوضيح المفهوم الحديث الموحد لطبيعتها، وتضمن البحث بعض التعريفات التقليدية مع بعض الأمثلة، بهدف استخلاص تعريف يشمل كل أنواعها بحيث نصل في نهاية ذلك الفصل إلى إدراك مفهوم المفارقة وطبيعتها على نحو نرجو أن يكون كافياً.

الفصل الثاني تضمّن وظيفة المفارقة على أساس أنّ لها وظيفة في النصّ الإبداعي، ووظيفة فكرية، وتحدّث في الحياة اليومية؛ أما وظيفتها في النصّ الإبداعي، وخاصة النصّ الأدبي، فإنّها تأتي على مستويين: المستوى الأول أساسيٌّ لبُنيةِ الحكّة؛ يمكن تسميته وظيفة تقنية. المستوى الثاني يكون تضميناً في السياقات الداخلية للنصّ، يمكن أن نسميه أسلوبياً جمالياً، يحضر أو يغيب حسب أسلوب النصّ وضروراته، إضافة إلى الإشارة بتكثيف إلى المفارقات التي تحدث في الحياة اليومية على أساس أنّها تحدث نتيجة لبس في فهم الآخرين أو الأشياء والظواهر أو نتيجة انغلاق الذات على ما تراه أو تريده وضعف قدرتها على تفهم الآخرين أو فهم الأشياء حسب الحقيقة مع إيراد بعض الأمثلة. تمت خاتمة الفصل الثاني بالإشارة إلى المفارقة في الفكر من خلال بعض ما تناولته كلير كوليبروك عن جاك دريدا وجيل دولوز في كتابها (Irony المفارقة 2003).

الفصل الثالث (بعض المفارقات في آيات من القرآن الكريم)، هذا الفصل كان من الممكن أن يكون بحثاً مستقلاً لأهميته، ولكن كان سيتكرر الفصل الأول من هذا البحث فيه للضرورة المنهجية؛ لهذا فإنّ إضافته كفصل من فصوله جاء ليشكل الرؤية الأشمل لمصطلح المفارقة لفهم النصّ الأدبي والديني أيضاً؛ في هذا الفصل مبحث خاص بسورة الكهف تتكشف فيه دلالات جديدة ومهمة في حياتنا اليومية، كذلك في المبحث الثاني (سورة يوسف) بما فيها من مفارقة الكيد، إضافة إلى مفارقات أخرى في الكثير من سور القرآن، مما يجعل هذا الجهد مدخلاً لدراسات قد تستكشف أو تضيف ما هو أكثر أهمية في مجال فهم القرآن الكريم.

فرضت الضرورة حجماً أكبر للفصل الثالث بسبب أهميته وخصوصيته.

والحمد لله الذي هداني لكل هذا ويسره تيسيراً جميلاً.

هوامش المقدمة

- (1) Colebrook, Claire. (2003). *Irony*. Routledge. London & New York. P. 1.
- (2) Nelson, Philip. (2010). *Irony's Devices: Modes of Irony from Voltaire to Camus*. (PHD) The Ohio State University.
- (3) Nunist, Rene. (2009) *the ancient critic at work*. New York. Cambridge University. P. 212.
- (4) Hutcheon, Linda. (1994). *Irony's Edge*. Routledge. London & New York. P. 13.
- (5) Castle, Gregory. (2007). *The Blackwell Guide to Literary theory*. Australia. Blackwell Publishing. P. 124-125.
- (6) Habib, M. A. R. (2005). *A history of literary criticism*. Australia. Blackwell. P. 411.
- (7) Eagleton, Terry. (2005). *The event of literature*. Yale University Press. P. 121.
- (8) Attardo, S. (2010). *Concise Encyclopedia of philosophy and linguistics*. (Group of Editors). Elsevier. New York. P. 431. Material in this work originally appeared in the Encyclopedia of Language and Linguistics (2nd. Ed.). Ed. K. Brown. Elsevier Ltd. 2006.

(9) البراجماتية Pragmatic (علم دلالة اللغة) وتُترجم (التداولية) أو (العملية). عادة تُدرس Pragmatic بالمقارنة مع Semantics (علم دلالة الألفاظ)، وتُترجم عادة (علم الدلالة)، ومن الواضح أنَّ البراجماتية تعتمد على المعرفة العامة وعلى السياقية، في حين أنَّ علم دلالة الألفاظ يعتمد على خصوصية دلالة اللفظ مستقلاً عن سياقه. كما أنَّ علم دلالة الألفاظ يتعامل مع سمات الحقيقة الشرطية للمعنى، بعكس البراجماتية. لمزيد من التفصيل يمكن العودة لـ:

Cruse, Alan. *A Glossary of Semantics and Pragmatics*. Edinburgh University Press, 2006. P. 136... و Blakemore, Diane. (2002). *Relevance and Linguistic Meaning*

- (10) García, Iván. (2009). *Key Ideas in Linguistics and the Philosophy of Language*. (2nd. Ed.) Edit: Siobhan Chapman & Christopher Routledge. Edinburgh University. P. 193.
- (11) Ibid. P. 197.

انظر أيضاً:

Joana, Garmendia. (2018). *Irony - Key Topics in Semantics and Pragmatics*. Cambridge University Press.

- (12) تشاندلر، دانيال. (2002). *معجم المصطلحات الأساسية في علم العلامات*. ترجمة: د. شاكر عبد الحميد، أكاديمية الفنون، القاهرة.

- (13) Abrams, M. H. (2009). *A Glossary of Literary Terms*. (9th Ed.) Michael Rosenberg. Boston. P. 165-166.
- (14) Colebrook. Ibid. P. 17.
- (15) Boghiana, Ioana. (2010). *the Game of irony in Charles Dickens's novels*. University of Bacău.
- (16) Ibid. P. 53.
- (17) Childs, Peter. & Fowler. Roger. (2006). *the Routledge Dictionary of Literary Terms*. (3rd. Ed.) New York. P.124.
- (18) العبد، محمد. (2006). *المفارقة القرآنية: دراسة في بنية الدلالة* (ط2)، مكتبة الآداب. القاهرة. ص14-15.
- (19) عبد الجليل، حسن. (2009). *المفارقة في شعر عدي بن زيد: الموقف والأداة*. دار الوفاء، الإسكندرية، ص11.
- (20) المرجع السابق. ص13.
- (21) إبراهيم، نبيلة. (1987) *المفارقة*، مجلة فصول، المجلد السابع، العددان: الثالث والرابع، إبريل، سبتمبر، ص131.
- (22) رشيد، أمينة. (1993). *المفارقة الروائية والزمن التاريخي*. مجلة فصول، العدد الرابع. القاهرة. الهيئة المصرية العامة للكتاب. ص157.
- (23) مارشال، جي، كوك. وآخرون. (2007). *تقنيات الكتابة في فن القصة والرواية*. ترجمة: رعد عبد الجليل رعد. دار الحوار، سوريا (ط2)، ص23.
- (24) Lodge, David. (1992). *the art of fiction*. Viking Penguin. New Yurok. P. 178.
- (25) بروكر، بيتر. (1995). *الحداثة وما بعد الحداثة*. ترجمة: د. عبد الوهاب علوب. مراجعة: د. جابر عصفور. المجمع الثقافي. أبو ظبي، 390.
- (26) مجمع اللغة العربية. (1983). *المعجم الفلسفي*. الهيئة العامة للمطابع الأميرية. القاهرة، ص188.
- (27) صليبيبا، كمال. (1982). *المعجم الفلسفي*، (ج2). دار الكتاب اللبناني. بيروت، ص402.
- (28) وهبة، مراد. (2007). *المعجم الفلسفي*. دار قباء. القاهرة، ص611.
- (29) وعزيز، الطاهر. (1990). *المناهج الفلسفية*. المركز الثقافي العربي. بيروت - الدار البيضاء، ص78.

(30) *Penguin Dictionary of literary terms*. ibid. P. 634.

(31) *Encyclopedia of Language and Linguistics*. ibid. P. 557.

(32) خدمة الترجمة المضمنة لبرنامج Microsoft -Word أوردت ترجمة Irony بالمعنى اللغوي (سخرية)، أما لفظ Paradox فنجد ما يقابله بالعربية: «العبارة الموهمة للتناقض. عبارة متناقضة ظاهرياً. مفارق» مع ملاحظة أن النسخ المعربة من الإصدار الأخير من مايكروسفت 2013 -التي تعاملت معها- لم تورد معنى المفارقة؛ وثبتت الترجمة بالشكل التالي: «شخص متناقض. تناقض ظاهري». وحينما نبحث عن معنى (مفارقة) في الترجمة من العربية إلى الإنجليزية، في نفس البرنامج 2013، تأتي Paradox في مقدمة النتائج.

(معجم لونجمان) الطبعة الأولى 2007 [إنجليزي - إنجليزي - عربي] وردت فيه ترجمة Paradox كالتالي: «مفارقة - متناقض - على نحو متناقض» ص 817، ويترجم Irony كالتالي: «1 - ساخر. 2 - تهكمي - استهزائي - على سبيل التهكم أو الاستهزاء» ص 611، علماً أن البرنامج الرقمي المرفق مع نفس المعجم [إنجليزي إنجليزي] يورد تعريفاً دقيقاً للمفارقة الدرامية Dramatic Irony يتسق مع المعنى الاصطلاحي.

(قاموس المورد) لمُنير بعلبكي لم يدخل المفارقة في دلالات ترجمته للفظ Paradox: «1 - عبارة متناقضة ظاهرياً أو مناقضة للعقل ومع ذلك قد تكون صحيحة. 2 - العبارة الموهمة للصحة: عبارة منطقية على تناقض ذاتي، تبدو لأول وهلة صحيحة. 3 - الظاهري التناقض: كل ذي صفات أو مظاهر متناقضة ظاهرياً» ص 656، الطبعة الخامسة عشرة، 1981، وترجم Irony كالتالي: «1 - تجاهل. تظاهر بالجهل أثناء المناقشة. 2 - (أ) سخرية، تهكم (ب) تعبير ساخر» ص 481؛ والمعنى الأول مأخوذ من دلالة المفارقة السقراطية، في حين أن المعنى الثاني مأخوذ من المفارقة اللفظية، وهذا يدل على دقته وأمانته، رغم أنه لم يورد لفظ المفارقة. مع ملاحظة أن تعريف د. الطاهر وعزيز للمفارقة في قسمه الأول، هو نفس التعريف الأول للفظ Paradox في قاموس المورد.

الفصل الأول

في مفهوم المفارقة

مدخل:

حينما نتناول نشأة وتطور مفهوم المفارقة يكون من المهم توضيح الفرق بين قيمة المفارقة الظاهرة التي لازمت سلوك وفكر وإبداع الإنسان منذ أن خُلق وظهور المصطلح بمفهومه الأدبي، وإذا كانت مسألة الإشارة إلى وجود المفارقة قيمة أدبية سابقة لظهور المصطلح قد أشار إليها بعض الدارسين مثل ميويك (المفارقة وصفاتها) فإن الجديد في هذا السياق هو في تصنيف ذلك الوجود لقيمة المفارقة؛ فميويك حينما ساق أمثلته أورد مفارقتين من الأوديسيا: الأولى مفارقة موقف، والثانية مفارقة لفظية:

«يعود أوديسيوس إلى إيثاكا فيجلس في قصره بالذات متخفياً بزي شحاذ، فيستمع إلى أحد الخاطبين وهو يهزأ من فكرة احتمال عودة أوديسيوس إلى وطنه. ثم نقرأ ترجمة ريو في شدة اقترابها من المعنى الأصلي: «وهذا أوديسيوس والقوس بين يديه يقلبها ويتفحصها يمنة ويسرة، خشية أن تكون الديدان قد أوغلت فيها فتنخر العظم منها لطول غياب باريها وإذا الخاطبون ينظر بعضهم إلى بعض فندت منهم قولة قائل: يا له من خبير له في الأقواس نظر، لا ريب أنه كان يجمعها في موطنه أو يريد أن يقيم لها مصنعاً فهو يقلب القوس كمن أفاد علماً في حياته وهو يغذ في سبيلها»⁽¹⁾.

المثالان يشكلان أنموذجاً واضحاً للمفارقة، ولكن المهم لفهم المصطلح هو الإشارة إلى المفارقة في سلوك الإنسان وحياته كظاهرة لازمتها وتركت آثارها عليه. ومن المفارقات التي تحدث في الحياة أن تخرج للصيد في جو صحو ولكن حينما تبتعد عن بيتك يتغير الطقس فجأة ويتحول إلى ممطر عاصف فلا تصطاد ولا تعود سالمًا من هذا التغير الذي لم تحسب حسابه.

ومظاهر المفارقة في الحياة كثيرة ولكن أهميتها تكمن في أن الإشارة إليها مقابل الإشارة إلى وجود مفارقات في نصوص أدبية أو حتى دينية ستكشف لنا قضية مهمة وهي أن المفارقة لها وظيفة أدبية إبداعية ووظيفة فكرية، وتحدث في الحياة اليومية في سلوك الناس؛ هذا الفارق على بساطته يُعد من المفاتيح المهمة لتصنيف المفارقة ولتفكيك الغموض والتعقيد اللذين لازماها لدى الكثير من الدارسين كما أشرت في أكثر من سياق؛ ولعل أول المفارقات الإنسانية التي حدثت في الكون كانت لآدم وحواء حينما أكلا من (شجرة المعرفة) الشجرة التي ظلناها شجرة ﴿الْخُلْدِ وَمُلْكِ لَّا يَبْلَى﴾، ولكن الذي حدث أن بدت لهما ﴿سَوْءُ تَهُمَا﴾ وأدركا خطيئة ما فعلا، قال تعالى في سورة طه: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْءُ تَهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٣١﴾ ثُمَّ أَجْنَبَهُ رَبُّهُ فَأَبَىٰ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٣٢﴾﴾. المفارقة تحدث حينما يخطئ الإنسان في فهم قول أو فعل أو ظاهرة أو شيء ما فهما بغير حقيقته.

ظهور المفارقة:

أول استخدام للمفارقة كان في حوارات جمهورية أفلاطون حيث يتخذ سقراط دور eiron أو disssembler ويسأل أسئلة يتظاهر فيها بالجهل بهدف إيصال محدثه لفهم الحقيقة. عرفت هذه المفارقة بالمفارقة السقراطية، وهي تقع على المتلقي لأنه لا يدرك أن سقراط يعرف الإجابة أكثر منه، وحينما يحاول الإجابة برودود غير مقنعة يستدرجه بالحوار إلى المعنى الأنسب، ولا يكون التهكم هدفاً فيها وإنما الهدف الوصول إلى حقيقة وإلى معرفة ما...، بعبارة أخرى: الهدف يكون تعليمياً⁽²⁾.

«المفارقة السقراطية:... بالتظاهر بالجهل استدراج سقراط مناقشيه بسهولة إلى إقناعهم وإبطال حججهم، والتظاهر بالجهل سمي من ذلك الحين المفارقة السقراطية»⁽³⁾. وفي العصر الروماني رأى شيشرون Cicero أن ironia صيغة بلاغية أو التظاهر المذهب. في حين أن كونتيليان Quintilian عرفها بطابع بلاغي وأسلوب خطاب الجزء الأكبر للكلمات على نقيض المعنى؛ ميزة الازدواج⁽⁴⁾.

كثيرون توقفوا عند المفارقة السقراطية والمفارقة البلاغية باستفاضة، وهو ما جعل أثرهم في اجترار الدلالات التقليدية في استمرار متواصل.

ومن المهم أن ندرك أنّ الإشارة إلى المفارقة قبل أن تتحدد دلالة المصطلح النقدية والأدبية، تحتاج إلى وعي دقيق بالفارق الجوهرى بين وظيفتها التوثيقية ووظيفتها النقدية والأدبية.

المفارقة مصطلح نقدي جديد:

المفارقة بمفهومها الحديث لم تظهر قبل نهاية القرن الثامن عشر 1797م، تحديداً لدى فردريك شليجل الذي أدرك مثلاً مفارقة الأحداث Irony of events كما في مسرحية الملك لير، بحيث كانت نتائج الأحداث على عكس التوقعات⁽⁵⁾؛ الملك لير قد وقع في مفارقة فهم خاطئ حينما جعل مقياس محبة بناته له من خلال التعبير الكلامي وليس من خلال الأفعال الحقيقية التي تكشف زيف الكلمات: فابنته التي كانت أكثر حباً وإخلاصاً كانت أكثر وضوحاً وصراحة لكنه فهم ذلك جحوداً، فصب جام غضبه عليها. والمنافقتان الماكرتان سردتا له من الكلمات المعسولة والأوصاف الخادعة ما جعله يحرم ابنته الصغرى مملكته ويعطيها لأختها؛ فكانت النتيجة أن ذاق الإذلال والمهانة والتنكر، مما أوصله إلى حافة الجنون، وكانت ابنته الصغرى التي حرّمها وتبرأ منها هي الملاذ والإنصاف.

يقول ميويك: «في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر اكتسبت كلمة [المفارقة] عدداً من المعاني الجديدة. إنّ المعاني القديمة لم تهمل بالطبع، كما أن الأساليب القديمة في الاتصاف في المفارقة لم تترك»⁽⁶⁾. وكما هو واضح من قول ميويك فإن الدلالات التقليدية بقيت تعكس آثارها على هذا المصطلح مما أنتج أنواعاً متعددة من المفارقات؛ من المفارقة الرومانسية إلى المفارقة السقراطية والمفارقة اللفظية.

مسألة الفصل المنهجي بين الدلالة الأدبية والنقدية للمصطلح والدلالات التقليدية بقيت غائبة، وهو ما أنتج الصعوبات والتعقيدات التي يشكو منها الكثير، وساهمت

في تجنب الكثير مزالقه. بقليل من التأمل سنجد أنَّ المفارقة الكونية أو القدرية ومفارقة الأحداث أو مفارقة الموقف والمفارقة الدرامية يمكن جمعها في معنى واحد، كما تمت الإشارة في المقدمة وفي سياق تعريف المفارقة إلى أن الاختلاف يكمن في المفارقة اللفظية، وبما أن دلالة المفارقة اللفظية هي من تركبات المفهوم التقليدي، فإنها تحتاج إلى مفهوم جديد يقوم على التوافق مع المصطلح بمفهومه النقدي والأدبي الحديث؛ وهو ما خلصت إليه في سياق تعريف المصطلح.

المفارقة والتهكم:

من إشكالات فهم المفارقة الخلط بين المفارقة والتهكم، خاصة ما يسمى المفارقة اللفظية، وسنتوقف عند بعض الأمثلة، مع ملاحظة أن كثيرًا من الدراسات العربية في المفارقة يكاد يكون أسير هذا الخلط.

سنبدأ بتعريف أبرامز: «المفارقة اللفظية (صُنِفَتْ تقليدياً كأحد أنواع الاستعارة) تكون بياناً في معنىٍ لمتكلمٍ يختلف تماماً عن المعنى المصور ظاهرياً...». والصيغة الأصلية للتعريف⁽⁷⁾ تجرنا إلى ما يسمح بفهم معنى التهكم، فهو حينما يستشهد بمطلع رواية (كبريا وهوى) لجين أستن كان يوحي بالتهكم: «المعروف أن رجلاً عازباً يمتلك ثروة يحتاج إلى زوجة...، نتيجة المفارقة تعتمد على افتراض استن أن الجمهور مشارك فيها وهي أن امرأة عزباء بحاجة إلى زوج غني»؛ وهذه الرواية غنية بالمفارقات كما سيتضح في سياق دراسة المفارقة بنيةً للحبكة.

في مرجع آخر نجد خلطاً واضحاً بين المفارقة والتهكم: «إنَّ المشكلة نفاق شفاف، مثل المفارقة والتهكم، فعندما أحدٌ يَقُولُ «تلك رائعة!» المعنى فقط النظير»⁽⁸⁾.

وكذلك في مرجع آخر، هناك شرح للمفارقة بما يتعالق مع التهكم: «المفارقة طابعُ الكلام في أي نية مع اختلاف المعنى الحقيقي، على سبيل الإيضاح: مديحٌ للوم أو لومٌ لمديح؛ نمط الكلمات الذي يدور بعيداً عن مباشرة صريحة لمعنى واضح يملكه. مصطلح المفارقة يتضمن تناقضاً. في المفارقة اللفظية يقول المناقض لما يعني. التناقض يكون بين التصريح والمعنى. أحياناً ببساطة: المفارقة قد تصرح

بغير الحقيقة، مثل: Men have died from time to time [أناس ماتوا من وقت لآخر...]⁽⁹⁾.

ثم يورد مثالا لرجل يمقت صهره، لكنه يصفه بالصهر المفضل! في المثال الأول يشير إلى مسرحية شكسبير (كما تشاء): «رجال ماتوا من وقت لآخر، والديدان أكلتهم، ولكن ليس من أجل الحب» ولا أدري لماذا لم يكمل الجملة، لأنه بدون إكمالها لا يتضح المعنى المقصود.

واضح في هذا التعريف أنه ابتعد عن معنى المفارقة ليقترّب من معنى التهكم، خاصة في المثال الثاني الذي لا يعني غير التهكم. لكن بالمقابل، هناك من أدرك فارقاً واضحاً بين المفارقة والتهكم، كما جاء في (الموسوعة المصغرة لفلسفة اللغة واللسانيات 2010): «تتضمن المشاكل التعريفية الأخرى الاختلاف بين المفارقة والتهكم. بينما جادل البعض أن الاثنين يمكن أن يميزا (على سبيل المثال: المفارقة يمكن أن تكون تلقائية، بينما التهكم لا يمكن أن يكون كذلك) في حين أن البعض لا يجد حداً واضحاً»⁽¹⁰⁾.

من الواضح أن تركة المعنى التقليدي (البلاغي) قد عكست ظلالها على كثير من الدارسين، وهو ما أوجد مشكلة الخلط بين المفارقة والتهكم، ولو حُصرَ المعنى التقليدي في سياقه ووظيفته لما حدث مثل هذا الإشكال.

المفارقة والفكاهة:

عدتُ لندا هتشون أن من المفاهيم الخاطئة لمنظري المفارقة «الإصرار على الخلط بين المفارقة والفكاهة»⁽¹¹⁾. ولا يعني رأيها هذا في الخلط بين المفارقة والفكاهة انتفاء العلاقة بينهما، فالمفارقة الناتجة من فن النكتة أو من برامج الكاميرا الخفية الكوميديّة تكون نتيجتها فكاهية، فهي في هذه الحالات وأمثالها مفارقةً داخلية تقع داخل المشهد المعد لهذا الغرض، في حين أن الأثر على المتلقي (المشاهد) يكون كوميدياً مضحكاً، أو بتعبير آخر: فكاهياً.

ولهذا، من المهم التفريق بدقةٍ منهجيةً بين المصطلح وعلاقته بغيره. ومن ناحية أخرى، لا بد من التفريق بين المصطلح وغيره مما يشابهه؛ فالتورية فيها معنى قريب ظاهر ومعنى بعيد متخفي، لكنها مثل التهكم يكون فيها المعنى الآخر هو المقصود، لكن المفارقة تحدث نتيجة لبس في الفهم بين معنى مقصود أو معنى حقيقي ومعنى محتمل لكنه غير مقصود أو غير صحيح. بعبارة أخرى: للمصطلح طبيعةً ووظيفة، والكوميديا أو الإضحاك أو الفكاهة تدخل ضمن نتائج وظائف المفارقة، لكن من وظائف المفارقة أيضًا المأساوية، كما في المفارقة القدرية والمفارقة التراجيدية، في حين أن الفكاهة وظيفتها الفكاهة فقط.

إنَّ المشكلة الحقيقية في مصطلح المفارقة هي الخلط بين المفارقة والتهكم، ومن ناحية أخرى هي مشكلة غياب الفصل المنهجي بين استخدام المفارقة في بناء النص الأدبي وحدوثها في الحياة اليومية. وأهمُّ نقطة أنَّ الوظيفة الأساسية للمفارقة في النص تنبيهُ الإنسان من الوقوع فيما يشبهها في سلوكياته اليومية، ويكون ذلك من خلال تجسيديات مأساوية أو كوميديّة في النصوص الأدبية، أو من خلال أمثال وتحذيرات من الوقوع في المفارقات، كما هو الحال في النصوص الدينية.

المفارقة الداخلية:

المفارقة الداخلية هي التي تحدث في أحداث النص أو بين شخصياته أو إحدى شخصياته، ويكون المتلقي مدركاً لها، مثل مفارقة أوديب في بحثه عن سبب الوباء الذي أصاب المدينة، في حين أن السبب هو أوديب نفسه. والمتلقي يعرف ما يجهله أوديب.

حينما نعود إلى التصنيف التقليدي نجد المفارقة الداخلية هي نفسها المفارقة الدرامية؛ فالمفارقة الدرامية أن تجهل شخصيةً أو شخصيات على خشبة المسرح ما يعرفه الجمهور أو ما يعرفه القارئ⁽¹²⁾.

وأجدُ مثلاً واضحاً للمفارقة الداخلية في مسرحية (الحفلة) لتشيكوف: فالمسرحية تصور مدير بنك يعد حفلاً، وأثناء الحفل تجادل امرأة ثرثرة في مرتب

زوجها...، فيقول المدير للصراف: أخرج هذه المرأة الثرثارة، ولكن الصراف -نتيجة عدم تركيزه بسبب قيامه بكل الأعمال التي تنسب إلى المدير وسيكرم في هذا الحفل بسببها- يخرج زوجة المدير فينفعل المدير ويضحك المتلقي الذي يعرف أن المقصود هي المرأة التي أقحمت نفسها في مكان وزمان غير مناسبين؛ لأنّ زوجها أساساً ليس موظفاً في البنك.

يمكن تسمية هذه المفارقة مفارقةً لفظية؛ لكنّ بقليل من التأمل سنجد أنّ الألفاظ هي أدواتها فقط، وأنّ طبيعتها التباس في الفهم، أما الكلام أو الألفاظ فهي مجرد مظهر أو أداة يتجلّى أو يتجسد من خلالها سلوك ناتج عن فهم أو موقف. إذاً، سواء كانت من خلال موقف أو من خلال كلام، فالنتيجة واحدة وسببها واحد.

وسنجد مفارقة داخلية في مثال واضح تداوله النقاد كثيراً للمفارقة التي وقعت للسيدة إيزابيل في رواية (صورة سيدة) لهنري جيمس الذي ترك لها ثروة أراد لها أن تحيا من خلالها حياة كريمة وسعيدة، لكن المفارقة أن يصبح ذلك المال سبباً في شقائها وتعاستها، حيث يطمع به الطامعون وينسجون حبائل تقع فيها، فقد كانت محط إعجاب كثير ممن أرادوا الزواج بها، لكنها تقع في شباك نصاب له عشيقّة تعيش على الاحتيال، فيتفقدان على السيطرة على هذه الضحية، ولا تدرك ما وقعت فيه إلا بعد فوات الأوان⁽¹³⁾.

المفارقة الخارجية:

المفارقة الخارجية هي التي تقع على المتلقي، وقد تدركها شخصية أو أكثر داخل سياق النص، وتكون معرفة المتلقي في نهاية الموقف أو نهاية النص، بحيث تبقى المفارقة طوال الأحداث فينتج نوع من التشويق. وأمثلتها في الروايات البوليسية كثيرة حيث يكون المجرم مثلاً مدركاً لما يجهله المتلقي، وقد يشترك المحقق في هذه المعرفة ولكنه لا يملك دليلاً، وهو ما يدفعه لتتبع الأدلة بحذر لئلا يدرك المجرم الذي يكون عادة من المشاركين في الأحداث.

تمت الإشارة في المقدمة إلى دراسة (لعبة المفارقة في روايات تشارل ديكنز)، ومن المفارقات التي تناولتها مفارقة الموقف Situational Irony في رواية (دومبي والولد)، وهي من أوضح الأمثلة المناسبة للمفارقة الخارجية والداخلية في نفس الوقت. المفارقة الداخلية هي التي تكون مكشوفة للمتلقي وغير مكشوفة بين الشخصيات المشاركة، في حين أن المفارقة الخارجية تكون غير مكشوفة للمتلقي وبالضرورة غير مكشوفة على مدار الحبكة بين الضحايا الذين تقع عليهم المفارقة، وهو ما تجسد في رواية دومبي والولد لديكنز.

المفارقة عملية استبدالية:

في كتاب (الدال والاستبدال في مصادر النص) أشرتُ إلى أنَّ الاستبدال بالمعنى البلاغي موضوعُ درسه الأقدمون والمحدثون وما زالت آفاقه مفتوحة، لكن المختلف هو الاستبدال في الموضوع والفكرة.

وإذا كان الاستبدال في الفكرة الذي تمت دراسته في ذلك الكتاب مقياساً للتفريق بين التقليد وإعادة الإنتاج والإبداع في النصّ ووظيفته إيجابية، فإن الاستبدال هنا يكون سلبياً؛ مثلاً نرجع إلى مسرحية الحفلة لتشيكوف، فنجد أنَّ الموظف استبدل زوجة المدير بالمرأة الثرثرة، في حين أنَّ المقصود إخراجها. إذاً حدثت مشكلة نتيجة هذا الاستبدال، وهو يتم في ذهن المتلقي، أو بعبارة أخرى في فهم وموقف من يرتكب المفارقة. لكن هل كل المفارقات تحدث فيها عملية استبدالية؟ في مثالٍ لمفارقة حدثت في الحياة اليومية تمت الإشارة في الفصل الثاني إلى ما ذكرته كلير كوليبروك عن المفارقة التي يقع فيها الأستراليون الذين ينفقون كثيراً من الأموال على إنقاص أوزانهم، في حين أنهم لا يزدادون إلا سمنة، وقلنا إنَّ المفارقة في جانبها الأعمق هي أنهم يختارون الطرق غير المجدية وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

إذاً يمكننا القول: إنهم استبدلوا الطرق غير الصحيحة بالصحيحة، فحدثت نتيجة غير مطلوبة. لكن لو عدنا للمثال الذي ورد لمفارقة الموقف في بداية هذا الفصل، فهل الذين كانوا في قصر أوديسيوس يسخرون من احتمال عودته في الوقت الذي كان فيه متواجداً بينهم متنكرًا بزي شحاذ، قد قاموا بعملية استبدال؟ الذي حدث

أنهم لم يتحروا في غريب بينهم، ومن ناحية أخرى لم يحسبوا حساب عودته، فلو قلنا إنهم استبدلوا غيابه بحضوره، نكون قد رصدنا الاستبدال الذي حدث في تلك المفارقة.

إن الاستبدال هنا حدث نتيجة عدم علمهم بوجوده أصلاً، أو بعبارة أخرى عدم إدراكهم لوجوده، فلا نستطيع رصد عملية استبدالية مباشرة، لكن عملية الاستبدال لا تكون غائبة في المفارقة ولو بشكل غير مباشر، والاستبدال يتم في ذهن المتلقي، أو نتيجة إجمالية؛ استبدال غير الصحيح بالصحيح، أو استبدال الوهم بالحقيقة، أو استبدال غير المقصود بالمقصود، أو استبدال الخطأ بالصواب نتيجة فهم خاطئ.

وأرى أن الاستعارة كمجاز بالمعنى البلاغي من المعاني التي انحرفت بالمفارقة عن دلالاتها الاصطلاحية، مع الأخذ بعين الاعتبار أن كثيراً من الدارسين قد وقعوا في دراسة المفارقة نوعاً من الاستعارة، وما زالت دراسات كثيرة تتعامل مع المفارقة نوعاً من المجاز، ولا أستطيع أن أفهم المفارقة نوعاً من المجاز بمفهومه البلاغي؛ فالاستبدال في المجاز له خصوصيته التي تختلف تماماً عن الاستبدال الموضوعي كما هو في المفارقة.

جمالية المفارقة:

المفارقة جمالية تضمينية في أسلوب النص تحضر أو تغيب، ستأتي في سياقها بالفصل الثاني، لكن تجدر الإشارة هنا أن كتاباً صدر في 2008 باسم (كيف تفكر كعالم) Sheridan, P. William. (2008). *How to think like a knowledge worker*.

يتضمن قسمًا عن التأثير الجمالي للمفارقة افتتحه بهذا التعريف: «ما المفارقة الجمالية؟ مهمة المفارقة الجمالية أن تنتج تأثيراً لكشف تناقض صورنا مع العالم. الأشياء ليست دائماً كما ستصير. المفارقة تذكرنا التفاوت بين ما نأمله وما نصبح عليه».

هل أن نصبح على عكس ما نتمنى يحمل جمالية ما؟ هل اكتشاف تناقضنا مع العالم يكون تأثيراً جمالياً؟ مع العلم أنني كنت أرغب في تجنب الإشارة إليه، لكونه

مجرد وجهة نظر خاصة بالمؤلف، كما تجنبت الإشارة إلى كثير من الكتب التي تناولت المصطلح، مثل كتاب (البلاغة والمفارقة 1991) لـ C. Jan Swearingen⁽¹⁴⁾ و(بين الحقيقة والمفارقة 1998) لـ امرتوا ايكو⁽¹⁵⁾ و(المفارقة والجدال 2008) لباحت في جامعة برشلونة. وموضوع المفارقة سلوك مذهب؛ على أساس أن بعض هذه المراجع قد جبرنا إلى تفاصيل فائضة لما تم إيجازه في أكثر من سياق بخصوص تعقيد المصطلح والخلط بينه وبين التهكم.

أنواع تقليدية للمفارقة:

بدأت أنواع المفارقة تُستخدم منذ أن تحدد المفهوم النقدي للمصطلح في نهاية القرن الثامن عشر، ابتداءً من المفارقة اللفظية Verbal Irony وهي أكثر الأنواع تداولاً منذ أن ظهر المصطلح كمجاز بلاغي بالتوازي مع قيمته في النقد الأدبي في نهاية القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر؛ حيث ظهرت تطبيقاته المتنوعة، ومنها مفارقة الأحداث Events Irony والمفارقة الدرامية Dramatic Irony والمفارقة القدرية Irony of fate ومفارقة الموقف Situation irony.

في كتاب (المفارقة وصفاتها) لدوجلاس ميويك أورد أنواعاً كثيرة للمفارقة، منها «المفارقة تنفيذاً بلاغياً، التواضع الزائف أو مفارقة الاستخفاف بالذات، المفارقة غير اللفظية، المفارقة الدرامية، مفارقة الأحداث، المفارقة الكونية، مفارقة التنافر، المفارقة المزدوجة، المفارقة الرومانسية»⁽¹⁶⁾.

أما أبرامز ففي تعريفه حدد خمسة أنواع:

- مفارقة لفظية Verbal irony
- مفارقة سقراطية Socratic irony
- مفارقة درامية Dramatic Irony
- مفارقة كونية Cosmic Irony
- مفارقة رومانسية Romantic irony

في دراسة لسيمون فليبس 2005 عن المفارقة في رواية (اوليفرتوست) لتشارل ديكنز يحدد هذه الأنواع:

- Verbal irony المفارقة اللفظية
- Situational irony مفارقة الموقف
- Dramatic irony المفارقة الدرامية
- Tragic Irony المفارقة التراجيدية
- Socratic irony المفارقة السقراطية
- Structural irony المفارقة البنيوية
- Cosmic irony المفارقة الكونية
- Romantic irony المفارقة الرومانسية

ويعرف المفارقة بأنها «نمط حديث يحتمل معاني مختلفة، عادة تكون على عكس ما تبدو» ثم يقرر أن هناك نوعين مختلفين من المفارقة: المفارقة اللفظية ومفارقة الموقف⁽¹⁷⁾.

وإذا كان ما أورده ميويك قد غربلته الدراسات اللاحقة وكادت أن تحصره في ثلاث مفارقات رئيسية: المفارقة اللفظية والمفارقة الدرامية ومفارقة الموقف. وبعض المراجع الحديثة تكاد تحصرها في نوعين: «المفارقة اللفظية، ومفارقة الموقف»⁽¹⁸⁾.

في حين أن المفارقة اللفظية ارتبط تعريفها بالمفارقة السقراطية، مما أوجد ازدواجاً في تعريفها؛ المفارقة السقراطية لها خصوصيتها ومرتبطة بالهدف من استخدامها، وهو هدف لا علاقة له بالمصطلح النقدي الذي تحدد بعد العصر اليوناني بعدة قرون. إذًا يمكننا أن نعيد التفكير في الأنواع التقليدية للمفارقة. المفارقة لها طبيعة واحدة ووظائف متعددة.

مفهوم مختلف لأنواع المفارقة:

تمت الإشارة إلى أنّ مفهوم المفارقة بالمعنى النقدي الحديث تحدد في الفترة الرومانسية، ورغم الفارق الكبير بين فهم كل من الأخوين: أغسطس فلهلم شليجل، وفردريك شليجل -الأول تقليدي والثاني مجدد- إلا أنّ بعض المراجع حينما تدرس المفارقة الرومانسية تذكر الأسماء التي ظهرت في تلك الفترة على أساس أنّها تمثل صفة واحدة للمفارقة (المفارقة الرومانسية): «عموماً ارتبطت المفارقة الرومانسية برومانسية «جيناً»: الأخوين «فلهلم شليجل» (1767-1845م) و«فردريك» (1772-1852م) - لودفيج تيك (1772-1845م)، كارل فيلهيلم فيردناند سولجر (1780-1819م) و«نوفليس» (1772-1801م)»⁽¹⁹⁾.

إنّ تصنيف المفارقة الرومانسية كان من خلال بحث خصائص الرومانسية التي علقت بالمصطلح في الفترة التي تحدد فيها مفهومه الحديث، وكان الأحرى بالدارسين الفصل بين خصائص الرومانسية التي علقت بالمصطلح في فترة سيادتها على الأدب والفن، عن خصوصية المصطلح الأدبية والنقدية التي صادف تحديدها في فترة سيادتها، وإعادة قراءة أنواع المفارقة على أسس تصنيفية، فهذا من شأنه أن يحصر المفارقة في العصر اليوناني (السقراطية) والروماني (كونتليان وشيشرون) في سياقها التاريخي، كما تكررت الإشارة للتأكيد في أكثر من سياق.

والفترة الرومانسية هي التي تحدد فيها المفهوم النقدي للمصطلح؛ ولغياب هذا الفصل فقد بقيت الصفات القديمة وأضيفت إليها صفة الرومانسية، وأضيفت صفات أخرى منها: مفارقة الأحداث والمفارقة الدرامية، والمفارقة القدرية والمفارقة اللفظية، مع التأكيد على أن الكثيرين قد تعاملوا مع المفارقة اللفظية بالمفهوم التقليدي المرتبط بنشأة المصطلح. وبقيت قضية الفرق بين المفارقة في الحياة اليومية والمفارقة في النص الأدبي ترصد كظاهرة ولا تصنف تصنيفاً تنظيرياً.

على كلّ، ما يتجلى الآن للمفارقة مفهومٌ واحدٌ، وصفته تكون إما داخلية أو خارجية، ولم نعد بحاجة مثلاً لنوع المفارقة الدرامية، ولكن نقول: مفارقة داخلية. ومن هنا لا يبقى للأنواع التقليدية أي أهمية، ولكن أثناء الدراسات التطبيقية يمكن

استخدام بعض الصفات كتخصيص إيضاحي لفظي وليس على الأسس النوعية للمصطلح مثل: مفارقة لفظية ومفارقة قدرية. بهذا المنهج نستطيع أن نفهم تعريفاً واضحاً وموحداً للمفارقة، وذلك ما يتضمنه القسم التالي.

تعريف المفارقة Irony:

ليس الهدف من هذا القسم تعريف مصطلح المفارقة فقط، وقد ورد التعريف في أكثر من سياق، بل فهم مشكلة المصطلح وتعدد أنواعه وتعريفاته.

حينما نجد كتاباً مخصصاً لدراسة المفارقة مثل كتاب كلير كوليبروك (Irony 2003) يورد تعريفاً على هذا النحو: «أن تقول شيئاً وتعني آخر. أو قول شيء على نقيض ما يفهم»⁽²⁰⁾ تكون إشكالية فهم المصطلح من خلال هذا الخلط بين داليتين متناقضتين، فهي تقول: إنَّ المفارقة «أن تقول شيئاً وتعني آخر. أو قول شيء على نقيض ما يفهم...» مع أن مشكلة الصعوبة أو التعقيد في جانب منها تكمن في هذا الخلط بين ما يُعنى وما يُفهم؛ المفارقة مشكلة تلقي (فهم)، في حين أن التهكم أداة بلاغية لمتكلم، فأن نقول إنَّ المفارقة أن تقول شيئاً وتعني آخر، يجعل هذه الدلالة تتعالق مع التهكم...، فحينما تورد التعريف النقدي للمفارقة مع التعريف المتعلق بنشأته القديمة في العصر اليوناني والروماني، على أساس أنهما (هذا أو ذاك) دون أن تناقش الفرق بينهما، ندرك من أين يأتي الغموض الذي يشكو منه البعض...، لهذا كان لديها استطرادات كثيرة حول اللغة ومشكلة الفهم ومشكلة الدلالة اللغوية.

إنَّ المفارقة قد تحدث بسبب توظيف غير دقيق للغة، وهنا فقط تكون المفارقة بسبب قول شيء، في حين أن المقصود شيء آخر، وفي هذه الحالة لا يكون المتكلم قاصداً المعنى المختلف الذي فهمه المتلقي. من هنا تسقط دلالة التهكم نهائياً من مصطلح المفارقة.

إنَّ حيرة كوليبروك هذه «في المفارقة اللفظية، المعنى الآخر، أو ماذا يعني المتكلم، أو ماذا فهم السامع، ولكن كيف لنا أن نعرف بالضبط ما يكون هذا المعنى الآخر؟»⁽²¹⁾ بهذه الصياغة في وصف مفهوم المفارقة اللفظية - فيها نوع من التعقيد؛

لأن المفارقة هنا من الممكن أن تكون بسبب المتكلم أو بسبب المتلقي، وإذا كانت بقصد المتكلم فقد تجرنا إلى دلالة التهكم، وهذا هو الخطأ الذي علق بدلالة المفارقة اللفظية...، مع التأكيد على مسألة مهمة ربما فيها نوع من الدقة لا الصعوبة، وهي أن المفارقة حينما تكون بسبب المتكلم فإن هذا السبب يكون متعلقاً بقصور في التعبير، ولا يكون المتكلم قاصداً إحداث مفارقة في الفهم الذي يقع على المتلقي.

إن المفارقة المحيرة أو التي قد يصعب تفكيكها عادةً تحدث في السلوك اليومي بين الناس. لكن في بنية النص الأدبي أو الفني تكون المفارقة تقنية تأليف، سواء كانت داخلية أو خارجية. وبدون شك هي صناعة المؤلف وهو الذي يقصد تصوير المفارقة في نصه.

إن حيرة كلير كوليبروك في معرفة المعنى الآخر قد تنطبق على المفارقة في السلوك اليومي أو في الحياة السياسية، وهو ما ركزت عليه ليندا هتشون في كتابها (حافة المفارقة 1994) واعتبرته كوليبروك من سمات المفارقة فيما بعد الحداثة! ولكن هذا التساؤل يسقط تماماً في النص الإبداعي لأن المفارقة فيه تقنية وجمالية في بناء النص. ومعنى عدم وضوحها إخفاق المؤلف في بناء نصه. وحينما نتكلم عن المفارقة في بناء النص نتكلم عن النص المحكم بنائياً. المشكلة هنا تتركز في الخلط بين استخدام المفارقة وظيفاً تقنية في بناء النص وأسلوباً في سياقاته الداخلية، وبين حدوثها في السلوكيات اليومية اجتماعياً أو سياسياً.

نماذج من التعريفات التقليدية:

سنورد هنا بعض التعريفات حسب التصنيف التقليدي لكي نكتشف العلاقة التي تربط بين أنواع المفارقات:

المفارقة الدرامية:

أوردت كلير كوليبروك تعريفاً للمفارقة الدرامية على النحو التالي: «أن يعرف الجمهور أكثر مما تعرفه الشخصية -في النص أو على خشبة المسرح- أو كلام الشخصية الذي يقوضه الحدث اللاحق. يمكننا القول أن المفارقة الدرامية التي تلعب

على معرفة الجمهور فيما تجهله الشخصية»⁽²²⁾. في حين يوضح أبرامز هذه الفكرة بقوله: «...اشترك الجمهور أو القارئ مع المؤلف في معرفة ما تجهله الشخصية»⁽²³⁾.

والمفارقة الدرامية (التراجيدية) بصياغة مرجع آخر: «وضع المصطلح في حالة المسرحية اليونانية والمسرحيات الأخرى التي يدرك فيها الجمهور بعض الكارثة الوشيكة أو الحقيقة المهمة، في حين أن شخصيات المسرحية تجهل أو ليست مدركة كلياً لذلك»⁽²⁴⁾.

سيتضح في الفصل الثاني مثال للمفارقة الدرامية ساقته كلير كوليبروك من مسرحية (أوديب)، فأوديب لا يعرف ما يعرفه المتلقي من حقائق، لهذا وقع في عدة أخطاء. لكن لو افترضنا أن الجمهور أو المتلقي مثله مثل أوديب لم يعرفا التفاصيل والحقائق...، هل كان ذلك سيمنع أوديب من الوقوع في المفارقة؟ قطعاً لا. لأن أوديب ارتكب الأخطاء نتيجة لبس في فهمه.

في مثال آخر للمفارقة الدرامية، وجدنا في تفصيل صغير ضمن مفارقة قدرية في رواية (ساحر الصحراء) لباولو كويلو: «أخرج نقوده من جيبه وأظهرها لرفيقه الجديد، فاقترب صاحب المقهى ونظر بدوره ثم تبادل الرجلان بضع كلمات بالعربية. كان صاحب المقهى غاضباً. قال الفتى هيا بنا ننصرف فهو لا يريدنا أن نبقي»⁽²⁵⁾. لكي نفهم المفارقة الدرامية حسب التعريفات السابقة، سنفترض أن صاحب المقهى يقوم بمقام الجمهور، وأن الشاب (الراعي) والفتى اللص الحدث الذي تقع فيه المفارقة، فصاحب المقهى يعرف أن الفتى يريد أن يسرق مال الشاب الراعي، في حين أن الشاب يفهم أن الفتى يريد أن يساعده في الوصول إلى هدفه، وهنا إذا افترضنا أن صاحب المقهى لا يعرف أن الفتى لص، هل كان هذا سيمنع حدوث المفارقة التي وقع فيها الشاب؟ بالطبع لا، لكن لأنه لا يجيد اللغة الإسبانية لم تأت محاولته إفهام الشاب بنتيجة، وهو ما يمكن اللص بالانفراد بالضحية. في كل الأحوال، المفارقة حدثت بسبب لبس في فهم الضحية.

المفارقة الكونية أو مفارقة القدر:

تقول كلير كوليبروك: «المفارقة الكونية أو التراجيدية: أن تحبط الحياة توقعات شخص (أو المجتمع) فيحدث عكس ما يتوقعه»⁽²⁶⁾. لا ندري لماذا استخدمت كوليبروك مرادفًا للمفارقة الكونية هو المفارقة التراجيدية. المؤلف أن يقال: المفارقة الكونية أو القدرية. أما المفارقة التراجيدية فيستخدمها البعض بمعنى المفارقة الدرامية. ويقول أبرامز: «المفارقة الكونية [أو مفارقة القدر] تنسب إلى الأعمال الأدبية التي تقود بطل الرواية إلى نتائج مخالفة لآماله»⁽²⁷⁾.

في رواية (ساحر الصحراء) لباولو كويلو كثيرٌ من المفارقات، إضافة إلى مفارقة الحبكة، لكن من المفارقات التي يمكن أن نسميها مفارقة قدرية أو كونية: حينما يصل الراعي الإسباني إلى طنجة يقع في شباك لصٍّ يكشف له حقيقةً مهمةً لكي يكسب ثقته: «طنجة ليست كبقية أفريقيا، هنا نحن في ميناء، والموانئ عادة أوكار اللصوص»⁽²⁸⁾. يوهم هذا اللص الراعي الإسباني بأنه سيشتري جملين ويرحل به إلى هدفه في مصر حيث الأهرامات، وبجوارها سيحفر بحثًا عن الكنز الذي رآه وهو نائم بجوار كنيسة في إسبانيا: «يمكننا أن نكون غداً عند سفح الأهرام، ولكن يجب أن أشتري جملين»⁽²⁹⁾. ثم يأخذ النقود ويفر، ولو كان الراعي يعرف المسافة بين طنجة ومصر لاكتشف خدعة اللص، فمن المستحيل قطع المسافة بين طنجة ومصر في يوم واحد على الجمال.

وبعد أن تتكشف المفارقة للراعي يجد نفسه بلا شيء: «فهو في بلد لا يفهم فيه حتى اللغة التي يتكلم بها، لم يعد راعياً، ولم يعد يملك شيئاً، ولا حتى النقود اللازمة لكي يعود أدراجه ويبدأ من جديد»⁽³⁰⁾. هذه مفارقة يمكننا أن نسميها مفارقة قدرية Irony of fate أو بعبارة أخرى مفارقة كونية. Cosmic irony الهدف من هذا المثل أن ندلل على التعريف الذي تمت الإشارة إلى صيغتين من صيغه، وسواء كان هذا الراعي قد وصل إلى نتائج مخالفة لآماله، أو أن الحياة والمجتمع الذي وصل إليه قد أحبطاه، فالخلاصة أنه وقع في فهم خاطئ، وهو ما كلفه خسارة ما يملك وعدم تحقيق هدفه.

والمثال الأدق للمفارقة القدرية -إضافة إلى ما تمت الإشارة إليه- ما ورد في بداية هذا الفصل، لمن يخرج للصيد في جوٍّ صحو، ولكن حينما يبتعد عن بيته فجأةً يتغير الطقس ويحدث ما لم يكن في الحسبان، فتكون النتيجة أنه لم يتمكن من تحقيق هدفه وأصابه أذى الطقس المتغير.

المضارقة البنيوية:

في معجم أكسفورد المصغر للمصطلحات الأدبية تعريفٌ يشمل المفارقات السابقة، إضافة إلى Structural Irony المفارقة البنيوية في الأدب «التي تحدث للشخصية التي تكون فهمًا خاطئًا يخالف الحقيقة. أي يكون وجهة نظر عن العالم تختلف كليًا عن الحقيقة»⁽³¹⁾.

لعل شخصية دونكيشوت في رواية (دون كيشوت) لثريانتس تشكل المثال الأنسب للمفارقة البنيوية، فهو يكون تصورًا مثاليًا رومانسيًا للعالم، وحينما يحاول تطبيقه على الواقع الذي يعيشه يصطدم بما يخالف ما في ذهنه من تصورات؛ فكانت المفارقة المضحكة والمحزنة في نفس الوقت إصراره على التعامل مع الواقع بحسب ما كونه في ذهنه وليس بحسب حقائق الواقع ومعطياته التي تثبت عكس تصوراتهِ.

وقد صادفت مرجعاً جديداً لمحلل نفسي John Steiner يدرس المفارقة في شخصية دونكيشوت من منظور التحليل النفسي، صدر في مايو 2020م تحت عنوان (التعلم من دونكيشوت)، في القسم الأخير من كتابه المسمى (الوهم وخيبة الأمل والمفارقة في التحليل النفسي)⁽³²⁾ لكنه يتعامل مع شخصية دونكيشوت كشخصية مجنونة، في حين أنه يمثل الشخصية التي تقع في مفارقة عدم القدرة على التكيف بالمعنى النفسي؛ لم يقبل التكيف مع واقعه، وهو ما أوقعه في مفارقة مضحكة مبكية.

المضارقة اللفظية:

ورد في سياق المفارقة والتهكم تعريفُ المفارقة اللفظية verbal irony لأبرامز بوصفها «بياناً في معنىٍ لمتكلمٍ يختلف تماماً عن المعنى المصور ظاهرياً»، كما تمت الإشارة سابقاً إلى تعريف كلير كوليبروك: «أن تقول شيئاً وتعني آخر. أو قول

شيء على نقيض ما يفهم»، كما ورد في بداية هذا القسم، حيرة كوليبروك في المفارقة اللفظية: «المعنى الآخر أو ماذا يعني المتكلم، أو ماذا فهم السامع، ولكن كيف لنا أن نعرف بالضبط ما يكون هذا المعنى الآخر؟».

إنَّ تعريف المفارقة اللفظية بعد تنقيته من الدلالات التقليدية المرتبطة بالمفارقة السقراطية، وتعريف شيشرون وكونتليان يكون: فهم المتلقي لمعنى يختلف عما يقصده المتكلم. وأمثلة المفارقة اللفظية في كثير من المراجع أمثلة إشكالية، بمعنى أنها إما أن تتعالق مع التهكم، أو تخص التهكم ولا تخص المفارقة. مع التأكيد على أن هذه الإشكالية لا تشمل بقية أنواع المفارقة.

ويمكننا أن نضرب مثالاً بسيطاً: لو قلت لأحد أحضر الفأس فأحضر الكأس بدلاً من الفأس. فالمفارقة هنا حدثت بسبب التشابه بين اللفظين، إضافة إلى وجود مشكلة أخرى تكمن في طبيعة المتلقي، إما بسبب ضعف تركيزه، أو بسبب اختلاف توقعه، وهذه الإشكالية الحقيقية التي عادة ما تحدث في السلوكيات اليومية بين الناس؛ فبعض الناس يغلب خبرته الشخصية وما يراه على ما يجيء من الآخرين أو على ما يراه الآخرون.

لهذا أحياناً لا يوجد أي تشابه لفظي بين ما قاله المتكلم وما فهمه المتلقي، لكن المتلقي أحياناً يفهم ما يريده هو أو ما يرتبط بثقافته أو اهتماماته التي تختلف عن إدراك ما يقصده المتكلم. وقد صادفت بعض العاملين في الصحافة في مقابلات صحفية وفي متابعات خبرية لندوات، تحريفات مستفزة تصل أحياناً لعكس المعنى المقصود تماماً، فيترتب عن هذه المفارقة مفارقة أخرى تقع على طرف ثالث هو المتلقي الذي وصلت إليه المعلومة ليس من صاحب القول نفسه بل ممن نقل عنه ما لم يقصده.

الخلاصة:

في كل التعريفات السابقة سنجد العامل المشترك هو حالة اللبس بين معنى حقيقي أو مقصود ومعنى محتمل لكنه غير مقصود أو لم يعبر عنه بدقة، أو غير

حقيقي، أو بين معرفة أو فهم غير صحيح لشيء أو ظاهرة أو موقف. إذاً يمكننا ببساطة شديدة تعريف المفارقة بأنها: فهم قول أو فعل أو ظاهرة أو شيء ما...فهما بغير حقيقته. سواء كانت داخلية أو خارجية.

في نهاية هذا الفصل يمكننا القول إن المفارقة لها طبيعة واحدة، حددها التعريف السابق، ووظائف متعددة؛ طبيعتها الالتباس في الفهم...، أما وظائفها فذلك ما سيتضمنه الفصل التالي.

هوامش الفصل الأول

- (1) ميويك، د. سي. (1988). *المفارقة وصفاتها*. ترجمة: د. عبد الواحد لؤلؤة. دار المأمون. بغداد، ص 26-27.
- (2) See: - Colebrook, Ibid. P. 21.
- Cuddon, J. A. (1999). *The Penguin Dictionary of literary terms and literary theory*. (6th Ed.). P. 427-428.
- (3) Hendrickson, Robert. (2008). *Word and Phrase Origins*. (4th. Ed.) Facts on File. New York. P. 772.
- (4) Ibid. P. 428.
- (5) Ibid. P. 429.
- (6) ميويك. مرجع سابق، ص 30.
- (7) Abrams, Ibid. P. 165-166.
- (8) Gauker, Christopher. (2003). *Words without Meaning*. P. 10-11.
- Kreuz, Roger (2020). *Irony and Sarcasm*. The MIT Press. انظر أيضًا:
- (9) Casson, Allan. *English Literature and Composition*. Wiley Indianapolis Composition Services (2nd. Ed.). 2001. P. 84.
- (10) Attardo, S. (2010). *Concise Encyclopedia of philosophy and linguistics*. Elsevier. P. 431.
- (11) بتصرف يسير. Hutcheon. Ibid. P. 5.
- (12) Sharpe, Robert Boies. (1975). *Irony in the Drama*. Greenwood Press. P. 42.
- (13) Lawson, Andrew. (2009). *The modern American novel*. Edit: John Matthews. Wiley Blackwell. P. 143.
- (14) Swearingen, C. Jan. (1991). *Rhetoric and irony*. Oxford University. New York.
- (15) Eco, Umberto. (1998). *Entre Mentira E Ironia*. Lumen. Spain.
- (16) ميويك. مرجع سابق، ص 20-25.
- (17) Philipps, Simon. (2005). *Irony in Charles Dickens' Oliver Twist*.
- (18) *Dictionary of Literary Terms*. Ibid. p. 123
- (19) Colebrook. Ibid. p. 46.
- (20) Ibid. P. 17.

- (21) Ibid. P. 19
- (22) Ibid. P. 176.
- (23) Abrams, Ibid. P. 167.
- (24) Vivian, Percivalia. (1990). Dictionary of literary terms. Gorge Routledge. London. P. 91.
- (25) كويلو، باولو. (1996). *ساحر الصحراء*. ترجمة: بهاء طاهر. روايات الهلال. العدد (571)، القاهرة، ص42.
- (26) Colebrook. Ibid. P. 175.
- (27) Abrams. Ibid. P. 167.
- (28) كويلو، باولو. مرجع سابق، ص42.
- (29) المرجع السابق، ص43.
- (30) المرجع السابق، ص44.
- (31) Baldick, Chris. (2001). *Oxford Concise Dictionary of Literary terms*. (3th. Ed.) New York. P. 130.
- (32) Steiner, John. (2020). *Illusion, Disillusion, and Irony in Psychoanalysis*. Routledge. P. 130.

الفصل الثاني

في وظائف المفارقة

مدخل:

بناء على المتابعة التاريخية لنشأة وتطور المفارقة وتحليل معطياتها وجدنا للمصطلح أكثر من وظيفة:

أولاً: وظيفة في النص الإبداعي. على مستويين: الأول بُنية للحبكة، والثاني تضمينات.

ثانياً: المفارقة في الحياة اليومية.

ثالثاً: المفارقة في النصوص الدينية والفكرية.

كان فهم فردريك شليجل للمفارقة مختلفاً عن سابقيه ومؤسساً لمن بعده، نتيجة لرؤيته الفكرية والتنظيرية. لقد ربطها بفكرة خطأ الإنسان وهبوطه من الجنة، فكرة سوء الفهم، كما أفهمها من المقتطفات التي أوردتها له كوليبروك⁽¹⁾، وكما عبر عن بعضها ميويك بالقول: «لكن فردريك شليجل قد أضاف إلى الفكرة تطوراً جديداً بل أكثر تطرفاً، فعلى يديه غدت المفارقة منفتحةً جدلية متضادة أو رومانسية. ويرى شليجل أن وضع المفارقة الماوراء الطبيعي الأساس عند الإنسان أنه كائن محدود يجتهد أن يدرك حقيقة غير محدودة، لذلك لا يمكن فهمها»⁽²⁾.

من هنا تتأسس الوظيفة التقنية لمصطلح المفارقة كتقنية حبكة، على أساس أنها معادل لوضع الإنسان في الكون، وضع يقوم على سوء الفهم؛ على الالتباس، وهو ما يجعل النتائج تأتي على عكس التوقعات أو بشكل مختلف عن التوقعات.

فحبكة المفارقة تبدأ بمشكلة الالتباس (المفارقة) فيتربط عنها الصراع، وتنتهي بانكشافها. ويبدو لي أن هذا اللبس يشكل التطور المناسب للخطأ الدرامي Hamartia بالمفهوم الأرسطي مع فارقٍ جوهريٍّ هو ارتباط دلالة الخطأ الدرامي بدلالات تقليدية تجاوزها الفكر من زمنٍ بعيد، فيكون التطور الطبيعي لآلية بناء الحبكة من مفهوم

الخطأ الدرامي إلى مفهوم المفارقة، ومن مفهوم مرتبط بفكر وثقافة فترة زمنية محددة ومن سماتها التطبيقية إلى مفهوم يتسع لأزمان وثقافات متعددة؛ لهذا فإن مفهوم الخطأ الدرامي سقط بسقوط قيمه التي بني عليها.

وعلى هذا، فالمفارقة هي أقدر التقنيات الحديثة على البقاء زمانياً ومكانياً. مع التأكيد على أن الوظيفة التقنية للمفارقة لم تدخل على النص بمسماها هذا إلا في السنوات الأخيرة من القرن العشرين وبالتحديد مع استخدام مصطلح (حبكة المفارقة) و(مفارقة الحبكة). وسيتم هنا تناول بعض التفاصيل للخطأ الدرامي وعلاقته بالمفارقة⁽³⁾:

الخطأ الدرامي يحدث نتيجةً للجهل أو بسبب التهور، كما فعل أوديب حينما التقى برجل في مفترق طرق وتشاجرا فقتله دون أن يعرف أن هذا الرجل ملكٌ وهو أبوه. وحينما وصل إلى مدينة في بوابتها وحش كان لمن يقتله أن يتزوج الملكة، فقتله وتزوج الملكة دون أن يعرف أنها أمه. فقد وقع في خطيئتين ارتكبهما دون أن يعرف، وحينما يحل الوباء بالمدينة نتيجة ما وقع به من آثام، يقوم ببحث لمعرفة السبب دون أن يعرف أنه هو السبب، فكانت النتيجة المأسوية: حينما عرف ما ارتكبه فقام عينيه عقاباً لنفسه وهام على وجهه في البراري.

ومما جاء في كتاب أرسطو (فن الشعر) عن الأفعال والأخلاق في المأساة في سياق حل العقدة: «وأن يكون ثمت تحول من السعادة إلى الشقاوة لا من الشقاوة إلى السعادة، تحول لا ينشأ من اللؤم والخساسة [في طبع البطل] بل عن خطأ شديد يرتكبه»⁽⁴⁾.

الخطأ الدرامي في المفهوم النقدي التقليدي خطأ يحدث ليس لخسة في الطبع بل نتيجة للجهل أو بسبب التهور. فأوديب قتل أباه بسبب التهور، وتزوج أمه بسبب الجهل. المفارقة هي نتيجة لبس في الفهم، سواء بسبب الجهل أو بسبب التهور أو بسبب سوء التقدير وخطأ التصورات.

إن الخطأ الدرامي هو المشكلة التي يترتب عنها الصراع. والتعرف والتحول في النهاية التقليدية للحبكة هو التعرف على الخطأ والتطهر منه. في حين أن مسألة التطهير لم تعد من أهداف الحبكة - كما نعرف - ولكن قد تحمل النهاية تنويراً ذهنياً بالمفهوم (البرشتي) أو تثويراً بمفهوم (بسكاتور) أو أي تغيير آخر. وحينما بنى سوفوكليس حبكة أوديب ابتداءً بمشكلة الوباء الذي حل بالمدينة، ابتداءً ببحث أوديب عن سبب هذا الوباء، إذاً ابتداءً بمفارقة: رجل يتحرى عن مشكلة لا يعرف أنه هو سببها. ترتب عن هذا البحث صراع انتهى باكتشاف الحقيقة المرة والنهاية المأساوية؛ فلو كان يعرف أن الذي تشاجر معه هو أبوه ما قتله، ولو كان يعرف أن الملكة التي وصل إلى مدينتها هي أمه ما تزوجها.

تعريف الخطأ الدرامي وتعريف المفارقة متشابهان، لكن الفرق يكمن في أن الخطأ الدرامي مرتبط بتعرف البطل التراجيدي بطريقة لم يعد لها مكان في بناء النص منذ زمن بعيد كما قلت سلفاً.

أما في المفارقة، فإن الخطأ الناتج عنها من الممكن أن يقع به أي شخص أو جماعة، هذا الشخص من الممكن أن يكون هو المحور في أي حبكة. كما في رواية (عازفة البيانو) لـ ألفريدي يلنيك التي وقعت في مفارقة فهم نتيجة خطأ اجتماعي تربوي ارتكبه أمها. إذاً المفارقة قد تحدث بسبب تأثير المحيط الاجتماعي بالشخصية، لكن الذي يقع في المفارقة هي الشخصية. فإن ذكر تفاصيل الأسباب نوع من التحليل ومن رؤية المؤلف. لكن تقنياً فإن المفارقة في (عازفة البيانو) هي أنها تفشل في حياتها الاجتماعية وعلاقتها العاطفية مع من أحبها وأراد أن يتزوجها؛ بسبب حرصها على ما تريده هي دون مراعاة لما يريده هو.

المبحث الأول

المفارقة في النص الإبداعي

ورد ذكر المفارقة في الحياة اليومية والمفارقة في النص الإبداعي في أكثر من مرجع، فأفكار رتشارد رورتي⁽⁵⁾ تكاد تتركز في المفارقة في الحياة والفكر. وتطبيقات لندا هتشون في كتابها (حافة المفارقة 1994) تكاد تكون في التعاملات السياسية، وهي تعاملات خارج النص الإبداعي. أما كلير كوليبروك فقد تناولت مظاهر المفارقة في الحياة والنص كما يتضح في هذه الإشارة: "قبل الانتقال للنظر في تعقيدات المفارقة الأدبية في الفصول التالية، يمكننا النظر في الطرق التي نستخدم (we use) فيها مفهوم المفارقة في سياقات الحياة اليومية وغير الأدبية"⁽⁶⁾.

ثم تورد أمثلة للمفارقة الكونية Cosmic Irony وتستعرض في نفس السياق! في أمثلة من نصوص أدبية مثل المفارقة الدرامية Dramatic irony في (أوديب) «سوفوكليس». إلا أن إشارتها هذه قد وقفت عند رصد أمثلة من الحياة اليومية وأمثلة من نصوص أدبية، في حين أن المهم ليس رصد مظاهر المفارقة بل تحديد الفرق بين هذه المظاهر، فالمفارقة في النص الإبداعي هي تقنية بنائية، سواء كانت مفارقة حبكة -أي مفارقة أساسية- أو مفارقات جزئية تضمينية.

المفارقات في الحياة محكومة بسياقاتها وظروفها، ومن الممكن أن تتسع لاحتمالات غير محددة. ينبغي هنا أن نلاحظ الفرق بين: نستخدم المفارقة في الحياة، وتحدث المفارقة في الحياة؛ والصحيح أن المفارقات في الحياة تحدث ولا تستخدم إلا في فن النكتة، وهو فن يقوم على المفارقة، وفيه عملية تأليف، فهي تستخدم لغرض فكاهي.

لكن في حالة النصب والاحتيال يمكن -تجاوزاً- رصد مفارقة تقع على الضحية، ولكن الهدف هو النصب والاحتيال؛ أي أن النصاب أو المحتال والمخادع يستخدم حيلة خداعية بهدف الحصول على ما لا يستحقه من حقوق غيره، ولا يهدف إلى استخدام مفارقة، بل ليسرق.

في حين أن المفارقة هي حالة التباس تكشف حدود قدرات الإنسان، وفي النص الأدبي والديني تشكل تحذيراً وتنبيهاً للإنسان من الوقوع فيها وإشكالاتها في السلوك اليومي للناس. مع ملاحظة أن بعض البرامج التلفزيونية، مثل الكاميرا الخفية الكوميديّة، تقوم أيضاً على المفارقة، فهي تستخدم من قبل معد أو مؤلف.

المفارقة في النص الإبداعي يستخدمها المؤلف تقنيةً أو أسلوباً: تقنية حينما تكون بُنية للحبكة، وأسلوباً حينما يوظفها المؤلف (جمالياً) تضميناً وتكون جزئية أو متعددة بحسب الضرورة إن وجدت. إذاً في النص الإبداعي تستخدم المفارقة على مستويين: الأول: أساسي بنائي (بنية لحبكة النص)، والثاني: ثانوي أسلوبى جمالي (تضمين في السياقات الداخلية للنص).

توظيف المفارقة في بنية حبكة النص:

تحت عنوان (قوة حبكة المفارقة) كتب وليم. م. روس مقالاً في المجلة الأمريكية (خلاصة الكاتب / Writer's Digest) في التسعينيات من القرن العشرين عن قصة (واين في الصحراء) لماكس براند...، تتلخص في حكاية مجرم هارب يطارده المأمور، يلجأ لصديق له قرب الصحراء.

تبدأ القصة بمجرم قاتل يفكر بالهرب قبل اكتشاف الشرطة لجثة القتل، معتقداً أن لديه من الوقت ما يكفي لكي يصل إلى صديق له قرب الصحراء، وقبل أن يبدأ المأمور في جمع من سيلاحقونه معه، فليس من الحكمة أن يلاحقه بمفرده. هكذا وضع حساباته. وحينما وصل إلى صديقه في أطراف الصحراء، طلب منه أن يملأ القربة بالماء، وقد عقد العزم على مغادرة بيته في فجر اليوم التالي، وقرر أن يغدر بصديقه ويفرغ خزان الماء الذي يستخدمه كيلا يكون للمأمور ما يتزود به لملاحقته في الصحراء.

وتسير الأمور بالنسبة له بحسب ما يفكر فيه إلى أن يوغل في أعماق الصحراء، وحينما استبد به العطش فتح القربة ليشرب، شله الرعب، فقد كانت المفاجأة الصاعقة بالنسبة له؛ حيث وجد القربة على حالها ما زالت ممتلئة بـ(الواين). وهنا

تتكشف المفارقة؛ فالواين يضاعف العطش، وقد رأى في هذه القربة هلاكه بعد أن كان يعتقد أنها ستكون سبباً في نجاته، ولم يحسب حساباً لإهمال صديقه الذي نسي أن يستبدل الماء بالواين.

هكذا بدأت المشكلة بمفارقة ظن المجرم أن نجاته ستكون من خلال الهرب باتجاه الصحراء وأن وجود صديق له قريباً هو الحلقة التي ستمكنه من هدفه؛ ثم يبدأ الصراع وله هنا مستويات: مستوى خارجي (سطحي) بين المجرم والمأمور، ومستوى داخلي بالنسبة للمجرم الذي نوى أن يغدر بصديقه بإفراغ خزان الماء الذي يستخدمه، إضافةً إلى الصراع الداخلي الأهم والأساسي في الحكمة، المشتبك بكشف المفارقة وهو حالة القلق والمعاناة المترتبة عن العطش أثناء الفرار وارتقاب النهاية الحتمية وهي الهلاك، فكلما مضى الوقت زاد عطشه وقل تركيزه، وتداخلت الخيالات مع الحقائق حتى يسقط صريعاً.

في نص رواية (كبريا وهوى) درست المفارقة من خلال أكثر من كاتب، منهم دافيد لودج في كتابه (فن الرواية 1992)، وقد سبقت الإشارة إلى أبرامز في (معجم المصطلحات الأدبية) الذي صدرت طبعته الأولى في 1957م.

وهنا نشير إلى تريزا ولسنس التي قدمت دراسة في حلقة اللغة الإنجليزية في 2009م Justus-Liebig-University Giessen (استخدام المفارقة المضحكة لدى جين أوستين في رواية كبريا وهوى)⁽⁷⁾. ورغم أنها درست المفارقة تحت عدة عناوين ومنها مفارقة الحكمة، لكنها درستها في سياق استعمالات الراوي والشخصيات، وابتدأت بمقتطف محدد هو نفس المقتطف الذي استشهد به أبرامز لشرح المفارقة اللفظية: «البديهي أن رجلاً أعزب امتلك المال والوجاهة فلا بد أن يحتاج إلى زوجة جميلة»⁽⁸⁾.

الحكمة في النص ثنائية من خلال أختين، لزوج وزوجة يستضيفان شخصية أرستقراطية، لكي يتزوج واحدة: الزوجة تقترح الكبرى والزوج يختار شخصية الحكمة الأساسية في النص التي سميت الرواية بموضوعها... التي ظن صديق الضيف أنها متكبرة، فيبدأ التوتر بينهما ولكن في النهاية يكتشف أنها ليست متكبرة وأنها تحبه فيتزوجها، في حين يتزوج الضيف أختها الكبرى.

المفارقة هنا مفارقة فهم بني عليه موقف وأحداث متوترة، وفي النهاية يتضح خطأ ذلك الفهم، إضافةً إلى خطأ أسرته التي ترى أن الفتاة من طبقة أدنى، في الوقت الذي كان سلوكها أنبل... مع الأخذ بعين الاعتبار مفارقة فهم الأسرة التي أعدت الاستضافة وإقامة العلاقة مع شخص معين، فتحدث قصة أخرى مع شخص آخر لم يكن في الحساب.

مفارقة الحبكة في رواية (الديمقراطية... 1880):

هذه الرواية لـ *Henry Adams* ورغم أنها نُشرت عام 1880م باسم مُستعار، ونشرت في بداية القرن العشرين 1918م بالاسم الحقيقي لمؤلفها بعد وفاته، احتفت الدراما الأمريكية بها في عام 2005 من خلال إنتاجها باسم (أوبرا الوطنية الديمقراطية). وتكمن أهميتها في كونها تمتلك مقومات إبداعية متجددة وكأنها كتبت اليوم وليس قبل أكثر من مئة عام.

يتكون الهيكل الأساسي للحبكة الدرامية في أي نص من:

- المشكلة The problem – البداية Beginning
- الصراع Conflict – الوسط Amid
- الكشف أو التحول أو التنوير الذهني reversal, Discovery, Conversion
- النهاية Ending .

يتضمن هذا الهيكل عدة مكونات تفصيلية أهمها:

- التماسك (الاتساق) Coherence
- التسلل Cohesion
- التطور Development
- التشويق Suspense
- التوترات Tensions
- التعقيد Complication.

في سياق هذا البحث، الموضوع هو مفارقة الحبكة Irony of plot فليس من المناسب الاهتمام بالمكونات التفصيلية لهيكل الحبكة، بل بالتوقف مع محطاتها الأساسية المتعلقة بالمفارقة فقط.

المفارقة تبدأ بالمشكلة Problem- Beginning التي يترتب عنها الصراع وتنتهي بكشفها Reversal, Recovery سواء من خلال التحول أو التنوير الذهني أو أي شكل من أشكال انكشاف المفارقة.

الحبكة الأساسية في النص محورها السيدة الثرية مادلين الأرملة التي تفقد زوجها في الحرب...، والمفارقة تشكل بنية هذه الحبكة، ولكن أيضاً في النص حبكة ثنائية، من خلال أختها وهي حبكة الأنسة الجميلة سيبيل، لكني سأركز على مفارقة الحبكة الرئيسية فقط.

تبدأ مشكلة السيدة المثقفة الثرية مادلين لي من الشعور بالملل بعد وفاة زوجها بخمس سنوات لأنها كانت قد فقدت طعم الحياة وأعمال الخير في نيويورك نتيجة شغفها بكل ما هو نبيل ونقي، فتكونت رغبتها في البحث عن مكان آخر تستطيع فيه أن تمارس نشاطها وعلاقاتها، ربما تجد من يستحق التضحية بعد أن أمضت أيامها السابقة في التجارة والأعمال الخيرية في نيويورك، وكان هذا المكان هو واشنطن⁽⁹⁾. من هنا تبدأ المفارقة: طموح في مكان هو مركز أمريكا تظن أنها ستجد فيه رجال السياسة وممثلي الشعب الأنقياء، فتقرر أن تغوص فيه⁽¹⁰⁾.

وتبدأ علاقتها الجديدة بمحامي واشنطن جون كارنغتون الذي نال ثقتها، وقد كان منزلها واحة وجد فيها نفسه، فيعرفها بصفوة رجال الدولة وعلى عضو مجلس الشيوخ المتميز والمؤثر السيناتور راتكليف. وحينما وصف كارنغتون لها مميزات السيناتور تشوقت لمعرفة وطلبت منه ذلك.

المفارقة في وجهها الآخر أن كارنغتون الذي سعى لتعريف مادلين براتكليف لم يكن يدرك أن راتكليف سيكون في يوم ما سبباً في إبعاده عن السيدة مادلين بالسعي في تعيينه بوظيفة بعيدة عن واشنطن لكي ينفرد بها ويتزوجها: Chapter IX فهو يطمح

للترشح إلى الرئاسة، والسيدة مادلين بوضعها الاقتصادي والاجتماعي والثقافي هي الدعم الأنسب له، ولأنه يعرف أن كارنغتون قد يدرك هدفه ويفرض الانتقال وسيوثر على السيدة في قرار زواجها منه، لجأ إلى الاحتيال وإقناع أحد أصدقاء كارنغتون للقيام بتكليفه بالعمل بعيداً عن واشنطن: Chapter IX لكن كارنغتون يلجأ إلى سبيل أخت السيدة مادلين لكي يدفعها لإفشال زواج راتكليف من أختها، وقبل رحيله يسلمها رسالة تكشف حقيقة رجل السياسة الشهير «راتكليف»، لكي تعطيها لأختها. فتكون بهذه الرسالة نهاية المفارقة الأساسية للحبكة وتتجسد في صدمة السيدة مادلين لي بالوجه الخفي للديمقراطية ورجال السياسة: Chapter XII.

هذه الرسالة تكشف المفارقة التي تحرك الحبكة وتؤدي إلى التحول، والسيدة مادلين تنتقل إلى واشنطن لكي تنخرط مع صناع القرار للديمقراطية الأمريكية، ولعلها تجد من يستحق أن تبدأ معه حياة زوجية جديدة، لكنها تكتشف زيف هذه الديمقراطية وأن الشخص الذي أراد أن يتزوجها هو النموذج لهذا الزيف، فتنحول إلى رفض هذا الارتباط، وإلى مغادرة هذا الجو الملوث، حيث تقرر أن تغادر بلد الديمقراطية إلى بلد الأهرامات مصر.

إن قرار الشخصية الرئيسة في الرواية بمغادرة بلد الديمقراطية إلى مصر تحديداً، نسج المؤلف تمهيداته في بداية النص؛ حيث استخدم وصف السجاد والإكسسوارات وبعض الأثاث المتميز والمستورد من الشرق؛ سوريا وتركيا: Chapter II.

فحينما تفقد هذه الشخصية ثقتها بالنظام السياسي حولها، لا يتبقى لها سوى الرحيل إلى مكان مرتبط في ذهنها بالجودة والتميز في صناعاته التقليدية، فيكون قرارها هذا تعبيراً قوياً عن رفض الزيف مهما كانت مبرراته والتمسك بقيمها النبيلة بالشكل الذي تستطيع أن تفعله. وكان من الممكن الاكتفاء بالتعبير عن هذه الفكرة برفضها الارتباط براتكليف ورفض الزواج منه، لكن المؤلف أراد أن يجسم إنكار الزيف ورفضه بشكل أكثر إثارة.

حينما تكتشف السيدة مادلين مستنقع السياسة وتزويراتها ممثلة براتكليف الذي يتظاهر بالتدين لأنه يحتاج إلى كسب أصوات رجال الدين، لكنه يحضر إلى الكنيسة

وعقله وقلبه خارجها، وحينما يحضر راتكيلف لطلب الزواج بها، تواجهه بما جاء في رسالة كارنغتون التي يكشف فيها طبيعة راتكيلف التي لم تتوقعها، طبيعة الغش والاحتيال والتزوير، فلم يكن أمامه سوى الاعتراف ومحاولة التبرير. وتنتهي الرواية بالتعبير عن صدمتها هذه بهذا القول: «الجزء الأكثر مرارة في كل هذه القصة المروعة أن تسعة من عشرة من مواطنينا أرى أنهم سبب الأخطاء» Chapter XIII.

مفارقة الحبكة في بعض مسرحيات تشيكوف القصيرة:

تعد المفارقة من أهم عناصر الكوميديا، سواء في مراوغة الدلالة بين الدال والمدلول (بين اللفظ والمعنى) أو مفارقة فهم غير الحقيقة أو مفارقة في الحركة بين الحركة الطبيعية للإنسان والحركة غير الطبيعية للإنسان، سواء كانت آلية أو حيوانية أو معوقة.

مسرحية (أغنية الوداع):

تتناول قصة ممثل عجوز يكشف فجأة بعد مرور 68 عامًا من عمره مفارقة علاقته بالجمهور الذي يصفق له على خشبة ويمنحه الورد، ولكنه يتركه ويذهب حينما يشمل من السكر ولا يجد أحدًا يأخذ بيده إلى بيته... المشكلة تتركز في تلك الفجوة التي يقع فيها فهم هذا الممثل العجوز الذي يجد سروره ومتعته في تصفيقات الجمهور تقديرًا لأدائه على خشبة المسرح. إن المفارقة تكمن في كون هذا الممثل العجوز لم يفرق بين تقدير الجمهور لدور قام به في زمن محدد ومكان محدد والتقدير العام لاحتياجاته الشخصية في وقت مختلف ومكان مختلف. وبالتأكيد ينتج مثل هذه المفارقة أثرًا كوميديًا.

مسرحية (إجازة صيف):

تتناول مفارقة معاناة الإنسان حينما لا يجد من يفهمه، فيعاني بسبب أنانيته. إنها مسرحية تعالج مفارقة الوعي بالذات بين نظرة الذات لنفسها ونظرة الآخرين لها وحقيقتها؛ فشخصية تولكاتشوف تعتمل فيها أحاسيس شتى، يجد نفسه غريبًا في محيطه... والمفارقة المضحكة المبكية في الوقت نفسه أنه يعتقد أنه بريء ومظلوم

في حين أنه أناني ومتقاعس عن المواقف الإيجابية والفاعلة؛ إنه يجهل حقيقة نفسه، وهذا مبعث الكوميديا التي لا تخلو من الحزن عليه. مشكلة فهم خاطئ عن الذات يترتب عنها صراع داخلي نتيجة العزلة عن الآخرين ونتيجة مواقفه الأنانية، وتكوّن في النهاية وعياً للمتلقى بالمفارقة الداخلية التي جمعت ذلك المزيج الكوميدي من التضاد بين الضحك أو الكوميديا والحزن.

مسرحية (الجلف) أو (الدب):

تقدم مفارقة جميلة ومثيرة لموقف الرجل من المرأة والمرأة من الرجل، في عدم ثقة متبادلة، ونفور وشك متبادل، وتنتهي المسرحية بعد خصام وجدل إلى وئام، في درامية متصاعدة وفي تحول كوميدي من التنافر إلى الألفة؛ أرملة ترفض نزع الحداد بعد وفاة زوجها رغم علمها بخياناته وإهماله لها، وترفض لقاء أي زائر، لكن يأتي إليها دائن ويقتحم خلوتها بالقوة، مطالباً بدين على زوجها، فيختصمان: هو يمقت النساء لخبرته الكبيرة بهن، وهي تمقت الرجال لخياناتهم، ولأسلوبه الجلف في التعامل مع النساء، هو يريد دينه فوراً لتسديد الضرائب، وهي لا تملك المال في نفس اللحظة وتؤجله إلى أن يأتي مدير أعمالها...

ويتطور الشجار إلى طلب المبارزة بالمسدسات، فتحضر مسدسين وهي مصممة على أن تصوب طلقة تخترق جبهته، وتطلب منه أن يعلمها كيفية الاستخدام لأنها لم تمسك مسدساً من قبل، فيعلمها ويبدأ بالتحول إلى حبها فيتحول من الهجوم إلى التوسل وطلب الزواج. وتنتهي بالعناق.

مفارقة الحبكة واضحة وهي مفارقة مزدوجة، هي تكون قناعتها بعدم الزواج وفاءً لزوجها ولقناعتها بخيانات الرجال وعدم وفائهم، وفي النهاية تتحول وتقبل هذا الذي سمته الدب الجلف. وهو لا يثق بالنساء لخبرته بمكرهن وغيظه من هذه الموشحة بالحداد، ويطلب مبارزتها وفي النهاية يقع في حبها مثل مراهق غرير ويطلبها للزواج.

مسرحية (أضرار التبغ):

في هذا النص مفارقة كوميدية مركبة تركيباً دقيقاً، لرجل تدفعه زوجته لإلقاء محاضرة عن أضرار التبغ، في حين أنه من المدخنين جداً. رجل من المدمنين في تعاطي التبغ يجد نفسه أمام جمهور يستمع منه مُحاضرةً عن أضرار التدخين، فيسترسل في أحاديث عن علاقته بزوجته وأولاده ومعاناته من قهر زوجته، ويبقى في حركات كوميدية تعكس قلقه وتوجسه من وجود زوجته بين الحاضرين...، ولكن حينما تظهر زوجته قادمة في نهاية المسرحية يختم كلامه فجأة بالقول: إنَّ التدخين سم قاتل ويخرج.

إن في هذا النص مفارقة تقع على الجمهور الذي جاء يستمع مُحاضرة عن أضرار التدخين، فيستمع لتذمر زوج من زوجته. وهذا مجرد سطح ظاهري لمفارقة أعمق هي المفارقة الأساسية بين الظاهر والباطن؛ ما يبدو عليه الرجل أمام زوجته وحقيقته المعاكسة التي تجسدت في رجل مدخن يُجبر على إلقاء محاضرة في أضرار التدخين؛ مشكلة بدأ بها النص وترتبت عنها ثلثته عن صراعه ومعاناته الأسرية، وحينما يرى زوجته ينتهي النص بعبارة عميقة (التدخين سم قاتل) فتكون دلالة هذه العبارة في نهاية سياق التذمر من الزوجة ومع ظهورها، وكأنه أراد أن يقول: إن الزوجة (النكديّة) هي السم القاتل، هي التدخين، أو الدافع إلى التدخين. هكذا تتضح المشكلة الحقيقية، هي في الزوجة السيئة، فينتج عنها التدخين.

قوة النص وضعفه:

حينما تُوظف المفارقة في بُنية حبكة النص، يمكن بسهولة شديدة معرفة بداية النص ونهايته، ويمكن إدراك الترهلات الزائدة التي يقع فيها بعض المؤلفين، فيمكن أخذها مقياساً دقيقاً على قوة النص ووحدة بنائه. لكن حينما تُوظف المفارقة تضميناً أسلوبياً داخل النص وتغيب عن بنية حبكتها، هنا لا يكون وجودها مقياساً على قوة النص، وقد يكون بناؤه هشاً أو ضعيفاً رغم وجود مفارقات جزئية في سياقاته الداخلية.

إن الكتب والدراسات التي لا تستطيع أن تحدد قوة أو ضعف بناء النص الإبداعي بأنواعه المختلفة - من خلال مقاييس نقدية واضحة - تبقى كتابات بعيدة عن النقد العلمي المتخصص، ومن الممكن أن يكتبها أي متلقٍ. من المشكلات التي نلمسها في الدراسات الأدبية العربية تحديدًا توقُّفٌ كثيرٌ منها عند فكر وموضوع النص، وأحيانًا محاسبته من خلال الاختلاف أو الاتفاق مع فكره. وهذه المشكلة تحدث على مستويين:

المستوى الأول: أن دراسة فكر وموضوع النص لا تشكل مقياسًا دقيقًا لمعرفة قوة النص من ضعفه إلا حينما يدرس من منطلق معرفة الوحدة الموضوعية للنص، وفي هذه الحالة لا يكون المدخل وصف أو نقد فكر النص وموضوعه، بل دراسة جزئية أساسية في تقنية بناء الحبكة في النص، وهي الوحدة الموضوعية، فيكون النص بحاجة إلى دراسة بقية تقنياته وهي: مصادر النص - الحبكة - الشخصيات - الصراع - اللغة. ولا تدرس هذه التقنيات بمعزل عن الفكر، ويمكن تخصيص دراسة إحدى هذه التقنيات فقط، بحسب مقتضى الحال.

المستوى الثاني: إن فكر وموضوع النص من حقوق المؤلف، رأيٌ وموقف، وليس من حق أي مخلوق أن يتعدى على حقوق الآخر بمحاسبته على اختلافه. ولكن كما هو معروف في الدراسات العلمية يكون من حق الدارس أو الباحث أن يشير إلى اختلافه أو اتفاقه مع فكر النص، دون أن يؤثر هذا على دراسة قوة أو ضعف بنائه.

وبالعودة إلى نصوص الكاتب الشهير فليب روث سنجد نصوصه عادة تقع في تعدد الأحداث، وهو ما يجعل الأحداث المساعدة تتعالى على الحدث الرئيسي فتضعف مفارقة الحبكة.

وبمقارنة المفارقات الضمنية في رواية (في انتظار البرابرة) بمفارقات ضمنية في رواية The Human Stain عار الإنسانية، فإن المفارقات الضمنية في نص كوتزي ترتبط بشكل متكامل مع مفارقة الحبكة، كما سيتضح في سياق (المفارقة تضمين في النص)، في حين أن فليب روث حشر فضيحة كلنتون متكئًا على الشذوذ الجنسي ودوره في الضغوطات السياسية، بالتداعي مع فضيحة مشابهة من القرن

الثامن عشر، والإشارة إلى أحداث العراق وصادم، مع حبكة رئيسية تتعلق بالتمييز العنصري من خلال المشكلات في المحيط الدراسي الجامعي؛ ربما لهذا لم يفز بجائزة نوبل رغم ترشيحه عدة مرات رغم حصوله على جوائز أخرى مهمة.

التفاصيل الزائدة في الأحداث المساعدة، تضعف قوة الحبكة التي من المفترض أن تأتي كل الأحداث لتعميق بُنيته. ويمكن إنهاء هذا السياق بالقول: إنَّ المفارقة بنية حبكة، تقنية من تقنيات النص الإبداعي تحكم وحدته الموضوعية والجو العام للنص.

توظيف المفارقة تضمين في النص:

حينما توظف المفارقة تضميناً في النص، تكون مجرد أسلوب يميز الكاتب أو النص، وتدخل في تشكيل جمالية الأسلوب. وحينما أعدد المفارقة أسلوباً، فقطعاً ليس المقصود هنا الأسلوب بالمعنى الذي طرحه نورمان كنوكس في كتابه (مفارقة الكلمة وسياقها) فهو يعني: «مديح بصيغة لوم ولوم بصيغة مديح»⁽¹¹⁾. هذا المفهوم علق بالمفارقة اللفظية، وفيه من التهكم أكثر مما فيه من المفارقة، ورصده كأسلوب توقف عند رصد ظاهرة دون أي إشارة إلى ما يقابلها من مفارقة حبكة، وهو ما لم يكن متداولاً حينها في النقد، وظهر إدراكه في بداية تسعينيات القرن العشرين تقريباً؛ المقصود هنا مرتبط بتصنيف جديد يعتمد على مزيد من التخصيص والدقة، على أساس أن لدينا مفارقة في النص، وهي مفارقة يتم توظيفها -تستخدم- تقنية أساسية في بنية الحبكة، أو تضمين أسلوب، ومفارقات تحدث في الحياة وفي سياق المفارقة في النص تكون أساسية وثانوية؛ المفارقة الأساسية هي مفارقة حبكة ومرتبطة بها وتنتهي بانتهائها، أما المفارقة الثانوية فتكون أسلوبية جمالية تزيد أو تقل أو حتى تغيب نهائياً حسب الضرورة.

نماذج من المفارقات الضمنية في بعض الروايات:

في رواية (في انتظار البرابرة) لكوتزي كثير من المفارقات؛ يبدأ النص بالقبض على عجوز وصبي، يقول الرجل العجوز: «نحن لا نعرف شيئاً عن السرقة. لقد أوقعنا الجنود وربطونا بإحكام من أجل لا شيء. كنا على الطريق قادمين إلى هنا لرؤية الطبيب. هذا ابن شقيقتي. لديه جرح متفرح لا يتحسن»⁽¹²⁾.

واضح من وصف وضع الصبي أنه في حالة صحية حرجة جداً، والمفارقة أن يعتقد الجنود أنهما من لصوص المواشي!!! إنَّ المفارقة في تصاعدها المأساوي جداً من اتهام بالسرقة إلى اتهام بمحاربة الإمبراطورية: «يقولون إنك قد اعترفت بأنك والرجل العجوز ورجالاً آخرين من قبيلتك، قمتم بسرقة المواشي والخيول، وأنك قد ذكرت أن أفراد قبيلتك يسلمون أنفسهم، وأنكم عازمون في الربيع على المشاركة جميعاً في شن حرب كبيرة على الإمبراطورية. هل تقول الحقيقة؟! هل تفهم ماذا سيعني اعترافك هذا. هل تفهم؟ أتوقف. يتطلع نحوي بنظرة خالية من التعبير... لا يبدي الصبي ردة فعل ما. أهز كتفيه، أصفعه على خده، لا يجفل. الأمر مثل ضرب جسد ميت. يهمس الحارس من خلفي: أعتقد أنه مريض جداً متقيح تماماً»⁽¹³⁾.

في رواية (عازفة البيانو) لـ «الفريدي يلنيك» مفارقة حبكة ومفارقات ضمنية، ومن المفارقات التي وقعت فيها أريكا الشخصية الرئيسة في النص - في أول حفل موسيقي لها- أنها قدمت معزوفات تناسبها هي ولا تناسب الجمهور الذي جاء لسماعها، مما يسبب فشلها؛ «ليس مسموحاً لأريكا أن تختلط بالبسطاء من الناس ولكن عليها دوماً أن تبتهج لمديحهم... المختصون للأسف لا يمتدحون أريكا»⁽¹⁴⁾ هؤلاء البسطاء الذين تعالت عليهم واختارت مقطوعة موسيقية لكي تعزفها في أول حفل لها معهم لم يناسبهم، لأنها لا تعرف أمزجتهم بحكم قطيعة التكبر عليهم، والمفارقة كانت في فهمها الخاطئ، الفجوة بين ما يريده الجمهور وما قدمته... أو بتعبير آخر: ما أرادته هي.

في مقدمة هذا البحث وردت إشارة إلى دراسة (لعبة المفارقة في روايات تشارلز ديكنز) من خلال مفارقة الموقف في رواية (دومبي والولد)، وهنا سنشير إلى مفارقة ضمنية في رواية (أوليفر تويست) حينما يُجمع أطفال الملجأ على زيادة وجباتهم لعدم كفايتها، تقع القرعة على أوليفر تويست لكي يطلب من الطباخ بعض الزيادة، ولم يكن يعرف هذا الطفل المسكين أن هذا الموقف سيتسبب له بما لم يخطر على باله، وهي مفارقة واضحة فقد اعتبر هذا الطلب خطيئة فاحشة استحق عليه العقاب والحبس ثم تُخلص منه نهائياً بتأجيله لصانع توابيت نال عنده أسوأ مما ناله في الملجأ.

ومن المفارقات التي درسها النقاد: في الوقت الذي كانت فيه امرأة تموت داخل الملجأ كان السيد بامبل يغازل مديرة الملجأ ويحاول أن يعانقها عنوة، وقبل أن تصرخ، تحضر عجوز لتخبرها أن المرأة تريد أن تفضي بسر قبل وفاتها؛ وسلوك بامبل بعد مغادرة مديرة الملجأ كان غريباً جداً، ففي الوقت الذي تموت فيه المرأة: «ارتدى قبعته بشكل ماجن ومنحرف، ورقص حول المائدة بهدوء»⁽¹⁵⁾. المفارقة التي تتكشف نهاية النص أن بامبل لم يكن سوى محتال سيئ الأخلاق بلا أمانة، وليس الرجل المحترم الذي يقدر المواقف ويتصرف كما يجب.

إنّ المفارقات الضمنية في النصوص المتقنة تكون مرتبطة بمفارقة الحبكة الرئيسية ارتباطاً تكاملياً.

الحبكة الرئيسة في رواية (في انتظار البرابرة) تتجسد في خوف الإمبراطورية من غزو البرابرة، وهو ما يجعلها في حالة استنفار يترتب عنه مفارقات ضمنية وضحايا أبرياء، وفي النهاية يتضح أن البرابرة أناس أبرياء يتجنبون الشر القادم من الإمبراطورية.

أما مفارقة الحبكة في رواية (عازفة البيانو) فتتركز في الأسلوب التربوي التسلسلي الذي يقع على الفتاة معلمة البيانو، لكي تحقق نجاحاً متميزاً في حياتها، فتكون النهاية انحرافها وفشلها في حياتها الاجتماعية؛ في علاقتها بتلميذها الذي أحبها وأراد الارتباط بها لكنها تفقده بسبب مفارقة الوعي بين ما تريده هي وما يحتاجه هو تماماً كما فشلت في أول حفل لها.

المفارقة في كتاب (أنماط الرواية العربية الجديدة):

في الدراسات العربية كانت تطبيقات د. شكري عزيز الماضي لدراسة المفارقة في كتابه (أنماط الرواية العربية الجديدة) من التطبيقات المهمة التي يبدؤها بـ(السرد المهجن والمفارقات): «المفارقة مفهوم رئيسي في النقد الأدبي. وأحسب أنها تصلح لولوج عالم أميل حبيبي الروائي وفهمه وتحليله وتفسيره»⁽¹⁶⁾ ثم يقول تحت عنوان (المفارقة. لماذا؟): «المفارقة مفهوم مجابه. لأنه غامض وغير مستقر، ومتعدد الصور، إن الميزة الأساسية في المفارقة (هي تباين بين الحقيقة والمظهر)»⁽¹⁷⁾.

سنقف فقط مع هذا التعريف المنقول من كتاب (المفارقة وصفاتها) لميويك، وهذا الكتاب ليس مقدسًا رغم أهميته على مستوى العالم؛ «تباين بين الحقيقة والمظهر» التهكم تباين بين الحقيقة والمظهر...، التورية أيضًا تباين بين الحقيقة والمظهر...، المفارقة تباين بين الحقيقة والمظهر...، إذا ما الفرق بين التهكم والتورية والمفارقة؟ باختصار شديد، هذا التعريف غير دقيق، لكن من الواضح أن شكري الماضي قد وصل إلى اقتباسات تكشف الدلالة الخاصة بمصطلح المفارقة: «عدم التوقع، الأمر الذي يثير الدهشة والتأمل، فأن يُسرق اللص أو يغرق مدرب السباحة، مفارقتان تشيران إلى أن هذا الأمر غير محتمل فعلاً. أي تشيران إلى الفرق بين ما يتوقع حدوثه وما يحدث فعلاً. وكلما اتسع هذا الفرق كبرت المفارقة»⁽¹⁸⁾.

وهذا الاقتباس الأخير هو الأنسب لشرح نوع من أنواع المفارقة، وهي المفارقة القدرية أو الكونية Cosmic Irony ويستخدم البعض مصطلح Irony of fate لكن التطبيق الذي ورد على رواية (الوقائع الغريبة...) لأميل حبيبي لم يشر إلى كثير من المفارقات الواضحة، سواء كانت مفارقات لفظية Verbal Irony أم مفارقات موقف Situational Irony والرواية غنية بالمفارقات، لكن سنكتفي بالإشارة إلى أوضاعها: «وكان يصرخ: أنزله يا بغل! فأنزلت رأسي حتى لامست قدميه وأنا أقول: هل عيّنوك ملكًا على الضفة يا صاحب الجلالة؟ فأخذ يعقوب بتلابيبي -أي ببجامتي- وراح يدفعني على الدرج نحو السطح وهو يشنّش: الشرشف، الشرشف! حتى بلغنا موضع المكينة، فانتزعها، فحسبتُ أنه يريد أن يضربني بها، فتعاركنا راقصين رقصة العصا حتى تهاوى على حافة السطح وهو يبكي ويقول: رح يا صديق العمر ورح معك! فقلت إنني رفعت الشرشف على عصا المكينة ملبيًا أمر المذيع من محطة الإذاعة الإسرائيلية. قال: حمار، حمار! قلت: وما شأني إذا كان حمارًا؟ ولماذا لا تستخدمون مذيعين سوى الحمير؟ فأفهمني أن المعني بالحمار هو أنا»⁽¹⁹⁾.

في هذا الاستشهاد عدة مفارقات: أولاً مفارقة موقف: حينما يسمع «سعيد...» نداء المذيع لا يدرك أنه موجه لعرب الضفة فقط لكي يستسلموا أمام الاحتلال الإسرائيلي «فما شأنك أنت في ذلك في حيفا التي هي في قلب الدولة ولا أحد يعتبرها مدينة

محتلة؟، ولم يدرك أن رفع علم الاستسلام يعني أنها محتلة وأنه يدعو إلى فصلها عن الدولة، إضافة إلى مفارقة أخرى، وهي ظنه أن يعقوب أراد إنزال العصا ليضربه بها، فيتعارك معه.

ثانياً: المفارقات اللفظية، حينما يقول له: أنزله -قاصداً العلم الأبيض- يظن أن ينزل رأسه احتراماً...، وحينما ينعته بالحمار فيحسب أن المقصود المذيع، إضافة إلى أنه حينما يشرح له صديقه أن النداء موجه لعرب الضفة وليس لعرب حيفا يرد: «قلت: زيادة الخير خيراً» ولم يدرك أن ذلك تمرّد استحق بموجبه السخط والسجن، وكان يحسب أنه سينال الاستحسان...

ومن المفارقات الضمنية أيضاً: «وأنّس في صفوف تظاهراتهم، فأقلب صناديق القمامة في طريق المتظاهرين، وأهتف بسقوط الدولة، لتبرير اعتداء الشرطة عليهم، وأوسوس في آذان الشيوخ أنهم مزقوا القرآن الكريم في الأعظمية...، ولا أنال أجراً على هذه المهمة سوى إحياء الوعد بعودة «يعاد»»⁽²⁰⁾.

المفارقة هنا لها أكثر من وجه، فمن ناحية الشيوعيين الذين يندس بينهم هي مفارقة داخلية لأنهم يحسبون أنه معهم في حين أنه مندس للإساءة إلى مظاهراتهم وللقيام بأعمال تخريبية تمنح الشرطة المبرر الذي يحتاجونه للاعتداء عليهم، وهي مفارقة داخلية من ناحية سعيد الذي يقوم بهذه الخدمات لكي يعيدوا له حبيبته التي أخذوها منه، ولن يعيدوها إليه أبداً، ولكي يعيش حياة مستقرة، لا تستقر أبداً... ولم ينل مقابل هذه التنازلات سوى المذلة: «أما بقية زملائي في المهمة، فكانوا يترقون في المناصب المخصصة لنا. الشلفاوي صار عضو كنيسة. ونظمي الشاويش صار شاويشاً. وعبد الفتاح راهن زقمة صار مدير مدرسة، وزوجته مديرة مدرسة، وابنته معلمة، مع أن ابنه وقع في أيدي الشيوعيين فبعثوه يتعلم الطب في موسكو»⁽²¹⁾.

طبعاً هذه من المفارقات الضمنية، لكن إذا حددت المفارقة الأساسية (مفارقة الحبكة)، فأجدها على مستويين، سأبدأ بالمستوى الثاني: فسعيد يجد نفسه في علاقة زواج من أخرى تكون ثمرته ولداً يختارون له اسماً هو ولاء، ويغيرون ما اختاره هو

من اسم، ولكن المفارقة أن يتضح بعد أن صار شاباً أنه فدائي، وبسبب ذلك يخسره وأمه...، فإن اسمَ ولاء هنا يحمل مفارقة مركبة ومعقدة نسبياً، فهل هذا العمل الإسرائيلي رغم حرصه على تنشئة ابنه حسب الرغبات الإسرائيلية ينتهي عكس ما خُطط له، أم أن بعض العمل الفدائي يشكل مفارقة لدى العامة؛ فظاهره عمل فدائي وباطنه مبرر للتعبئة الإسرائيلية ضد العرب والفلسطينيين؟!

المستوى الأول: أن سعيداً الذي لا نراه سعيداً، يرث عمله مع الإسرائيليين، من أبيه، أملاً في حياة سلمية وسعيدة، ويجد نفسه في آخر المطاف على رأس خازوق: «قلت لك، يا محترم، إنني لم أذهب إلى قرية السلكة ولم أصنع الحصر لا فيها ولا في غيرها...، وجدتني مرة أخرى، متربعاً وحيداً على رأس ذلك الخازوق الذي بلا رأس، كابوس يحط على صدري كل ليلة، بلا انقطاع، فلا أقوى على إزاحته عن صدري (...) فأتاني صديقي القديم. يعقوب. وكان حزيناً. فصحت به: الخازوق يا صديق العمر! قال: كلنا نقعد عليه! قلت: ولكنني لا أراكم! قال: ولا نحن نرى أحداً. كل وخازوقه وحيد. وهذا هو خازوقنا المشترك (...) ورأيت يعاد ترفع رأسها إلى السماء وتشير نحونا وتقول: حين تمضي هذه الغيمة تشرق الشمس»⁽²²⁾. هذا الخازوق هو نهاية المفارقة الأساسية ونهاية الحكمة، ومن على الخازوق هم الغيمة التي تحجب الشمس.

المبحث الثاني

المفارقة في الحياة اليومية

سبق القول إن المفارقة أن تفهم قولاً أو فعلاً أو شيئاً على غير حقيقته؛ وكل المشاكل التي تحدث في الحياة اليومية بين الناس هي بسبب الفهم الخاطئ للحقائق أو للقيم أو للأشياء أو للآخرين. ومشكلة الإدراكات الخاطئة، في الحياة الاجتماعية والسياسية شغلت كثيراً من الباحثين، كما شغلت أنواع المعارف والإدراكات علم النفس أيضاً.

من الأمثلة التي ساققتها كوليبروك لمفارقة حدثت في الحياة: «ينفق الأستراليون الكثير على إنقاص أوزانهم في حين أنهم يزدادون سمناً»⁽²³⁾.

المفارقة هنا في جانبها الأعمق ليست في أن يبدد الأستراليون الأموال لإنقاص أوزانهم في حين أنهم لا يزدادون إلا سمناً، ولكن المفارقة الحقيقية أنهم يختارون الطرق غير المناسبة لتحقيق أهدافهم، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً، وهي مفارقة داخلية.

من المفارقات التي تناقلتها بعض وسائل الإعلام العربية، في عام 2011، أن فتاة جميلة ظنت أن أبواب الجنة قد فتحت لها؛ حينما فازت بعمل في بيت ابن رئيس عربي، لكن المفارقة أنها عاشت حياة الجحيم تعذيباً وقهراً وإذلالاً وحرقاً، ولولا سقوط ذلك الرئيس وفرار أولاده لما نجت من الموت، حيث وجدت مقيدة مثل فرخ مسلوق. المفارقة هنا خارجية تقع على عامة الناس ومنهم تلك الفتاة!!

تقول لندا هتشون عن استغلال المفارقة في الحياة السياسية: «المفارقة يمكن أن تعمل تعبويًا في خدمة تشكيلة واسعة من المصالح السياسية، أو إضعاف مجموعة أخرى من المصالح»⁽²⁴⁾.

ومن ناحية أخرى، قد تحدث المفارقة في الحياة اليومية بسبب لبس في فهم الذات أو فهم الآخر أو في تكوين فهم خاطئ عن شيء أو ظاهرة، مما يحدث صداماً لدى الآخر أو قد يحدث نتائج على غير ما هو متوقع.

أن تجد من يعرض الأصابع التي تطعمه في حياتك اليومية، مفارقة تدل على مشكلة أخلاقية، وتدل من جانب آخر على خلل في الذات الفاعلة للسوء، والمفارقة في هذه الحالة خارجية تقع على الضحية الذي لم يدرك طبيعته من يتعامل معه. عادةً نتذكر شعراً قائماً على المفارقة في مثل هذه المواقف، مثل قول معن بن أوس المزني:

أَعْلَمُهُ الرَّمَايَةَ كُلَّ يَوْمٍ *** فَلَمَّا اسْتَدَّ سَاعِدُهُ رَمَانِي
وَكَمْ عَلَّمْتُهُ نَظْمَ الْقَوَافِي *** فَلَمَّا قَالَ قَافِيَةً هَجَانِي

ويمكن فهم خصوصية المفارقة في المثالين السابقين من خلال قول منصور النمرى:

وَإِذَا عَفَوْتَ عَنِ الْكَرِيمِ مَلَكَتُهُ *** وَإِذَا عَفَوْتَ عَنِ اللَّئِيمِ تَجَرَّمَا

وقد أعاد المتنبي هذه الدلالة في قوله:

إِذَا أَنْتَ أَكْرَمْتَ الْكَرِيمَ مَلَكَتُهُ *** وَإِنْ أَنْتَ أَكْرَمْتَ اللَّئِيمَ تَمَرَّدَا

فليس كل من تطعمه سيعرض يدك وليس كل من ستعلمه سيتنكر لك، فقط النفوس المريضة، أو على حد تعبير الشاعر (اللئام) فقط، هم من ينبغي الحذر في التعامل معهم، وفي مثل هذه الحالات السلوكية في الحياة اليومية قد تكون المفارقة محيرة، أو من الصعوبة إدراكها، لكن في النص الأدبي تكون المفارقة من صناعات المؤلف، وعدم وضوحها أو إدراكها في النقد يعني إخفاق المؤلف في بناء نصه، كما أشرت سلفاً.

رغم أن موضوع البحث هو المفارقة في النص، والحياة اليومية تقع خارج النص، فلا أرى العالم نصاً كما يرى البعض، إلا أن الإشارة للمفارقة في الحياة اليومية بشكل موجز تساعد في فهم المفارقة في النص، ولأن هدف المفارقة في النص هو التحذير من وقوعها في الحياة اليومية.

مشكلة الإدراك (الفهم):

كيف يكون الإدراك أو الفهم؛ فهم الأشياء، وفهم الذات، أو فهم الآخر، في الحوار أو السلوك؟

معروفٌ في علم النفس أن حقيقة الإنسان تقع بين فهمين: فهمه عن نفسه، وهذا قد يكون صحيحاً وقد يكون غير ذلك، بمعنى مطابقاً لحقيقته أو غير مطابق. وفهم الآخر عنه، وهذا أيضاً قد يكون مطابقاً لحقيقته وقد يكون غير ذلك. وفي حالة عدم مطابقة الفهم للحقيقة تكون المفارقة. بتعبير آخر: تكون مشكلة. ومن تعريفات الفهم أو الإدراك في علم النفس ما يسمى الإدراك البصري والإدراك السمعي والإدراك اللاشعوري...، إضافةً إلى ما يتطابق مع مفهوم المفارقة: «الإدراك المغلوط: أي سوء فهم للعالم الخارجي بتفاعل التركيب الخاص للأشياء المدركة وتركيب النظام الحسي»⁽²⁵⁾.

كيف نكون الفهم السليم؟

لا يسير الإدراك في الطريق الصحيح إذا لم تكن الشخصية سوية؛ هناك قضية أساسية خاصة لدى المجتمعات المتخلفة وهي قضية سواء الشخصية بالمعنى النفسي؛ بمعنى أن تكون الشخصية قد تجاوزت مشاكل الحيل الدفاعية غير السوية، مثلاً هناك سلوك غريزي؛ الحيوان إذا أصيب بجرح وأردت أن تساعد بمعالجته، فإذا شعر بالألم سرعان ما يعض أو ينطح أو (يخمش)، دون أن يدرك أنك تساعد. كلنا قد نقع في مثل هذه الإشكالات بنسب مختلفة، كثيرٌ من الناس إذا وجهت إليه نقداً سلبيةً ما وقع بها، فإنه قد يقوم برد فعل عدائي، دون تفكير في كونه مخطئاً أو مصيباً، ودون سلوك سوي يقوم على أساس المراجعة أو المناقشة والإقناع والاعتناع مع العلم بأن هذه الإشكالية أيضاً قد يشترك فيها أسلوب النقد إذا كان بطريقة مستفزة ولو كان صحيحاً.

في كل الأحوال، ردُّ الفعل إما أن يكون حكيماً إنسانياً سويّاً، أو غير ذلك؛ مثل السلوك التبريري والإنكاري والعدائي الهجومي. إن هذا السلوك فيه نوع من المفارقة، وهي مفارقة داخلية، تقع على من يقوم برد فعل غير سوي.

وهناك سلوك يكون فيه الإدراك لجزئية أو أكثر، ولكن يغيب فيه الإدراك لجزئية أخرى أو أكثر قد تكون هي الأهم، ويتجلى في رسوم الأطفال بشكل واضح؛ الطفل حينما يرسم إنساناً مثلاً قد يرسم الرأس بحجم لا يناسب حجم الجسم، أو قد يجعل يده بحجم مختلف تماماً عن التناسب مع بقية الجسم، وهذا التركيز يكون من خلال ما يراه الطفل مهماً. في الحياة اليومية مثلاً قد تجد شخصاً مبدعاً في مجال الاقتصاد أو بارعاً في حديث الجلسات أو المقالات السياسية... فتجد من يضعه مسؤولاً عن عمل ثقافي أدبي، فتكون نتيجة عمله متعثرة وغير فاعلة، أيضاً هنا يوجد نوع من المفارقة، وهي مفارقة خارجية. مثلاً لو صنعت قارباً أو سفينة بأحسن المواصفات وأعلى التقنيات ووضعتها في صحراء، فلا قيمة لها ولا فائدة منها سوى أنها قطع من مواد، وبالمقابل لو لدينا سيارة بأحسن المواصفات والتجهيزات ووضعناها في البحر فإنها تغرق.

الحيل الدفاعية غير السوية Defense mechanisms:

يدرس النفسانيون هذه الظاهرة عادةً في سلوك الأطفال، ويصفها البعض بأنها بدائية؛ ومنها «الإنكار والتبرير»⁽²⁶⁾. ولكن هذه الظاهرة تكاد تكون هي المحرك لكثير من مشاكل المجتمعات المتخلفة سياسياً وإدارياً واجتماعياً، ومن تجلياتها الإنكار والتبرير والإسقاط والتقمص. إن الفهم السوي يكون بإدراك حدود العقل والذات وبتقدير إمكانات الآخرين، وإدراك حقائق الأشياء بطريقة سوية. مشكلة الفهم ليست فردية فقط، فقد تكون جماعية، وقد تتجلى في التعصبات الجماعية.

المبحث الثالث

المفارقة في النصوص الدينية والفكرية

كانت الحوارات الأفلاطونية هي أول أنموذج استخدم فيه لفظ المفارقة، وسميت المفارقة السقراطية. لكن كما تكرر في أكثر من سياق، إن المفارقة السقراطية لها خصوصيتها وعلاقتها بالمصطلح النقدي الحديث علاقة محدودة، وكانت الرؤى الفكرية التنظيرية للألماني فردريك شليجل هي الأسس الحقيقة لنظرية المفارقة، لكن مشكلة التصنيفات اللاحقة قد حصرتها على المفارقة الرومانسية. وكما ورد في بداية هذا الفصل، فقد أدرك شليجل أسباب المفارقات، وذلك بسبب حدود إمكانية الإنسان الذي لا يستطيع الإحاطة بأسرار الكون والحياة.

تناولت كلير كوليبروك المفارقة عند بعض المفكرين والفلاسفة مثل نتشه ودي مان وفليكس جواتري في كتابها (المفارقة 2004 Irony) وقبله كانت قد أصدرت كتاباً مستقلاً عن المفارقة في الفلسفة *Irony in the work of philosophy 2002* وسأشير في هذا المبحث لما تناولته عن جاك دريدا وجيل دولوز فقط.

جاك دريدا: نتيجة الإشكالات التي علقها بالمصطلح والخلط بين المعنى التقليدي البلاغي والمعنى الاصطلاحي، كان لبعض المفكرين آراء وقعت في تبعية الخطأ ولم تستطع تجاوزه مثل جاك دريدا إذا صح رأي كوليبروك في كون المفارقة لديه هي نفسها المفارقة السقراطية: «مثل المفارقة السقراطية إذاً تفكيكية دريدا، كلاهما ملتزم بضرورة وشرعية المفهوم، والإدراك أن لا استعمال عرضي أو قدرة تحديد الكلام لتمام المفهوم»⁽²⁷⁾.

هذا الرأي ورد تحت عنوان (المفارقة خارج السياق) حيث تناولت دريدا ونتشه ودي مان. وبحسب فهم كوليبروك يرى درايدا أنه من المستحيل التمييز بين المفارق وغير المفارق⁽²⁸⁾.

كلام درايدا ليس مقدساً، فهو يخطئ ويصيب مثله مثل غيره من المفكرين. أيُّ دارس استند في فهم مصطلح المفارقة على المعنى التقليدي المتعلق بالمفارقة

السقراطية أو بالتعريفات في العصر الروماني (شيشرون أو كونتليان) لا شك سيواجه إشكالاً وتعقيداً في فهمه، كما فصلت سابقاً. وأيُّ دارس لا يفرق بين وظيفة المفارقة في النص الإبداعي والمفارقات التي تحدث في الحياة اليومية لا شك سيواجه غموضاً وتعقيداً أيضاً في فهم المصطلح.

المفارقة في النص تُستخدم أداة تأليف...، تقنية تأليف وأسلوب أيضاً، ومن المهم التفريق بين المفارقة في النص والمفارقات التي تحدث في الحياة ولها سياقاتها. سنتذكر تعليقاً سابقاً حول استخدام المفارقة في النص وحدث المفارقة في الحياة اليومية (تستخدم - تحدث) وأن هذا الفارق ما لم يكن واضحاً في ذهن الدارس أو الباحث فلا شك سيواجه إشكالاً في فهم وتوظيف مصطلح المفارقة، فاستخدام المفارقة تقنية في بنية الحكمة أو في سياقاتها الأسلوبية الداخلية، يكون من أهدافه ألا تحدث مثل تلك المفارقات في الحياة وفي السلوكيات اليومية.

جيل دولوز: تحت عنوان (المفارقة والفكاهة) تناولت «كوليبروك» جيل دولوز وفليكس جواتري⁽²⁹⁾:

إن كلير كوليبروك لها كتاب مستقل عن دولوز، وهي تشرح هنا رؤيته ورؤية جواتري للمفارقة على أساس أنها تعتمد على منطق (الدالّ / signifier)، والمفارقة إشكالية (دال) أيضاً تعيدنا إلى نفس مشكلة المعنى البلاغي للمصطلح وليس لمعناه النقدي الحديث، في حين أن إشكالية المفارقة هي إشكالية تلقّ، أي إشكالية مدلول Signified ودلالة Signification وليست إشكالية دالّ. ومن المهم الإشارة هنا إلى أن دولوز حينما يتحدث عن المفارقة دالاً وفكاهة أيضاً! أرى أنه يتحدث عن مدخلين، أو بعبارة أخرى عن موضوعين: الأول طبيعة المصطلح (دال) والثاني وظيفته (فكاهة).

من الواضح أنّ جاك دريدا وجيل دولوز ينطلقان من مفهوم مشترك، لكن طريقة التعبير اختلفت بينهما.

مشكلة مفهوم المفارقة التي يشكو منها الكتاب تبدو أكثر تعقيداً حينما يكون التناول بشكل تعميمي؛ أي حينما يتم تجاهل أنواعها. والفرق الجوهرى بين المفارقة

اللفظية وبقية أنواع المفارقة -وكما سبق- أنَّ الكتب المتخصصة في المصطلح كانت أقرب إلى فهمها، كما كانت كلير كوليبروك أقرب إلى توسيع مفهوم المفارقة اللفظية بحيث شملت المعنى الحديث، لكنها استبقت المفهوم التقليدي دون مناقشة.

الفرق بينهما -على ما بينهما من فارق جوهري- هو الفرق بين المشكلة ومعالجتها، وكذلك دوجلاس كولن ميويك، كان دقيقاً في أمثلته على أنواع المفارقة الأخرى، مع فارق واضح بينه وبين الدراسات التي صدرت في العقد الماضي؛ من حيث غربة الأنواع التي تناولها، إضافة إلى إدراك مشكلة الخلط بين المفارقة اللفظية والتهكم التي كانت في كتابه على حالها التقليدي.

في سياق حديث كلير كوليبروك عن مشكلة المفارقة تطرح تساؤلاً لافتاً: «لماذا تكون المفارقة مشكلة؟ ولماذا منذ العصر اليوناني إلى الآن نُظر للمفارقة مشكلة سياسية؟ إذا أخذنا أبسط تعريفاتها التي يعود تاريخها إلى شيشرون وكونتليان حيث تكون المفارقة قول شيء على نقيض ما يفهم، ثمَّ نبدأ نسترجع إحساس طبيعة المفارقة الصعبة والمتنازع عليها»⁽³⁰⁾. المشكلة ببساطة: لم يتم الفصل بين الوظيفة الأدبية والنقدية في النص وجذور المصطلح التقليدية. وأيضاً لم يتم فصل وظيفة المفارقة في النص عن مظاهر حدوثها في الحياة اليومية والسياسية.

المفارقة في النصوص الدينية والأدبية تشكل تحذيراً وتنبيهاً من الوقوع فيها في السلوكيات اليومية، وتقدم أشكالاً وتجسيديات متنوعة للاعتبار والاستفادة منها في السلوكيات اليومية.

هوامش الفصل الثاني

- (1) Colebrook. ibid. P.47.
- (2) ميويك. مرجع سابق، ص34-35.
- (3) The Penguin Dictionary. Ibid. P.373.
- (4) أرسطو طاليس. (1973). *فن الشعر*، ترجمة: عبد الرحمن بدوي، بيروت، دار الثقافة، ص35-36.
- كتاب (فن الشعر) عن نظرية النقد الكلاسيكية. ولكنه سُمي (فن الشعر)؛ لأن كل أشكال الأدب كانت تكتب شعراً، واستمرت إلى ما بعد عصر النهضة، لهذا قُسِمَ إلى: شعرٍ ملحمي، وهو الذي نبعت منه الرواية. وشعرٍ درامي، وهو الذي تطورت عنه فنون المسرح والسينما والأوبرا والأوبريت والأعمال الدرامية التلفزيونية. وشعرٍ غنائي، وهو الذي علفت به -واقترعت عليه- صفة الشعر. ووصل إلى قصيدة النثر! وقد كانت كتابة أول النصوص الدرامية نثراً بدعة، ولكنها مع الزمن أصبحت هي السائدة. ثم جاء بعض نقاد الحداثة وما بعدها ليقدموا بضاعةً قديمةً بأغلفةٍ جديدة، تحت مسمى تداخل الأنواع، ومنه جاء تداخل الشعر مع الرواية والقصة، أو شعرية الرواية والقصة.
- (5) Rorty, Richard. (1995) *Contingency, Irony, and Solidarity*. Cambridge.
- (6) Colebrook, ibid. P31.
- (7) Welsensee, Theresa. (2009). *the Use of Irony in Jane Austn's Pride and Prejudic*. Justus-Liebig-University Giessen.
- (8) Ibid.
- (9) Adams, Henry. (1880). *Democracy, an American Novel*. Chapter I.
- (10) Ibid.
- (11) Knox, Ibid. P. 45.
- (12) كوتزي. (2000). *في انتظار البرابرة*. ترجمة: ابتسام عبد الله. المجلس الأعلى للثقافة. القاهرة، ص7.
- (13) المرجع السابق، ص20.
- (14) يلنيك، ألفريدة. (2005). *عازفة البيانو*، ترجمة: سمير جريس، دار ميريت، 416.
- (15) *Boghian, Ioana*. Ibid. P.51.

- (16) الماضي، شكري عزيز. (2008). *أنماط الرواية العربية الجديدة*. الكويت. عالم المعرفة. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، سبتمبر، ص23.
- (17) المرجع السابق، ص23.
- (18) المرجع السابق، ص24.
- (19) حبيبي، إميل. (1988). *الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل*. القاهرة. روايات الهلال. دار الهلال، ص120-121.
- (20) المرجع السابق، ص69.
- (21) المرجع السابق، ص69.
- (22) المرجع السابق، ص152-153.
- (23) Colebrook. Ibid. P. 13.
- (24) Hutcheon. Ibid. P. 10.
- (25) Matsumoto, David. (2009). *the Cambridge Dictionary Psychology*. Cambridge. P.155.
- (26) Ibid. P. 199.
- (27) Colebrook. Ibid. P.97.
- (28) Ibid. P. 96.
- (29) Ibid. P. 129.
- (30) Ibid. P.15.

الفصل الثالث

بعض المفارقات في آيات من القرآن الكريم

مدخل:

تجليات المفارقة في القرآن من أغنى المداخل للدراسة والتأمل، وخاصةً في سورة الكهف حيث بدت بأكثر من شكل وتجسّد أوضحها في قصة موسى والعبد الصالح عليهما السلام. ويختص هذا الفصل بدراسة المفارقة في القرآن الكريم، وجاء في ثلاثة مباحث:

تناول المبحث الأول المفارقة في سورة الكهف من خلال إشكالية الذات والحقيقة؛ إشكالية حدود العلم والمعرفة وحدود العقل والإدراك، وما يستفاد من ذلك التقدير لما يقع خارج الذات، والتقدير لفكر وموقف ورؤى الآخر، وفوق كل ذلك التقدير للقول الحق والقول الفصل من الله عز وجل في قصة موسى والرجل الصالح، ومفارقات أخرى متعددة في القصص والمواقف التي وردت في السورة، من خلال فكرة الاستطاعة، والفرق بين (تستطع) غير الناقص الذي ارتبط بكمال الله وما علم العبد الصالح منه من علم، واللفظ (تستطع) الناقص الذي ارتبط بنقص المخلوق الذي لم يستطع الصبر على ما لم يحط به خبرًا.

ويختص المبحث الثاني ببعض المفارقات في سورة يوسف من خلال مفارقة الكيد بين يوسف عليه السلام وإخوته وهو من نزغ الشيطان، ومفارقة كيد امرأة العزيز والنسوة وهو من النفس الأمارّة بالسوء.

ويختص المبحث الثالث ببعض المفارقات من خلال ما ورد في سورة البقرة وآل عمران والمائدة والتوبة والنحل والحج، ومفارقة سوء الظن بالنفس؛ أو انعكاس طبيعة الذات على فهمها للآخر أو الأشياء والظواهر، مثل سوء الظن بالنفس، كما في الإشارة إلى الذين جاءوا بالإفك في سورة النور، ومفارقة الفارق العلمي والمعرفي في سورة النمل من خلال ما حدث لملكة سبأ مع النبي سليمان عليه السلام، ومفارقة أهل المال في سورة القصص من خلال ما حدث لقارون، ومفارقة غرور الطغاة

فيما حدث بين موسى وفرعون في سورة غافر، ومفارقة السخرية والجهالة وبعض الظن الآثم في سورة الحجرات، ومفارقة الطمع في قصة أهل الجنة في سورة القلم، ومفارقات أخرى في كثير من الآيات.

المبحث الأول

المفارقة في سورة الكهف

مدخل:

تجليات المفارقة في القرآن عمومًا وفي سورة الكهف خصوصًا تكاد تكون كشفًا لمشكلة عقل الإنسان المحكوم بحدود المعرفة والخبرة، وحكمة وقدرة الله التي ليس لها حدود. معرفة الإنسان وخبرته محكومة زمنيًا ومكانيًا، وكلما تجاوزت خبرته وعلمه حدود زمانه ومكانه إلى أزمنة وأماكن وتجارب أخرى زادت وتوسعت معارفه وإدراكاته للحقائق وللأشياء، وقلّت مشاكله في الحياة. ومهما بلغ المخلوق من العلم فلا يستطيع أن يدرك الحقائق بدون الاستعانة بهدي الخالق تبارك وتعالى.

هناك عدة دراسات حديثة عن سورة الكهف ككتاب The Quran in its historical context الذي حرره جبريل سايد رينولدز (2008) وما جاء فيما أصدره الدكتور محمد عابد الجابري قبل وفاته؛ سواء في كتابه (مدخل إلى فهم القرآن الكريم) أو في (فهم القرآن الحكيم). لكنني لم أجد أحدًا يقدم قراءة علمية جديدة أو مدخلًا منهجيًا يكشف ما غاب من دلالات وقيم جديدة نحتاجها في سلوكنا اليومي، وهو ما تتيحه لنا التطورات المعرفية الجديدة والغنية.

في كتاب (القرآن في سياقه التاريخي) تناول سيدني جريفيت قصة أصحاب الكهف بنوع من التفصيل، وركز على المقارنة بين ما ورد في سورة الكهف في القرآن وما ورد تاريخيًا قبل الإسلام، لكنه توقف عند المظاهر الشكلية للقصة، مثل الاختلاف في تفسير (الرقيم) وعدد أصحاب الكهف، ولماذا لجأوا إليه، وأسباب بعثهم.

وسأشير تحديدًا إلى وقوفه عند قوله تعالى في سورة الكهف ﴿ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ١٢﴾ حيث يقول: إن الاختلاف في حساب فترة

لبثهم في الكهف قد ورد في السريانية، لكن ليس هناك ذكر لوجود فريقين مختلفين في الحساب⁽¹⁾. هذه المقارنة كما تبدو تحتاج لإعادة التفكير في دلالات السياق القرآني، لأن الهدف هنا ليس الاختلاف حول الوقت الذي لبثوا فيه نياماً، وإنما الهدف تصوير حدود إمكانية العقل في الإدراك، والتساؤل حول فترة لبثهم هو تساؤل عن القدرة الإدراكية؛ إن الهدف هنا كما هو واضح المفارقة التي يقع فيها الإنسان، فيخطئ في التقدير: تنبيه الإنسان إلى حدوده، قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾^(٨٥) وقال في سورة الكهف: ﴿لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَى لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا﴾^(١٢). أي من استطاع أن يتجاوز حدود علمه وخبرته الذاتية ويدرك الحقيقة حقيقة لبثهم. أما الحزبان فإن الإشارة إليهم تكشف الاختلاف في الإدراك. والإشارة إلى حزبين توضيح مهم يميز القرآن بما لم يشملته غيره⁽²⁾.

وفي أسباب بعث أصحاب الكهف يقدم القرآن أكثر من سياق إضافة إلى السياق السابق. قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ...﴾^(١٩).

إن سياق ﴿وَكَذَلِكَ أَعِزَّنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ يكشف دلالة أخرى بعد بعثهم، هو العثور عليهم؛ لأنه من الممكن أن يبعثهم ولا يعثر عليهم أحد، بحكم أن حرصهم قد تجلّى في قوله تعالى: ﴿وَلَيْتَلَطَّفُ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا﴾^(١٩). فبعثهم مرتبط بالبعث يوم القيامة كبرهان على ما سيتحقق ويقع من القول الحق واليقين الثابت.

القرآن يحمل دلالات متعددة، قد ندرك بعضها ويغيب عنا كثيرٌ أو ما قد يكون مرتبطاً بإدراك زمن مستقبلي آخر، ومنها ما سيبقى إلى أن يأتي تأويله يوم القيامة.

ومن الدلالات التي قد يرتبط فهمها بزمن آخر في القرآن بشكل عام، قوله تعالى في سورة القيامة: ﴿بَلْ قَدَرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾^(٤). المفسرون السابقون ابتعدوا عن الدلالة الحقيقية المقصودة في بيان الإعجاز في خصوصية البصمات في بنان كل فرد في كل البشر. وقوله تعالى في سورة الحجر: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ

فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١٤﴾ لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ ﴿١٥﴾. وهذه الآية فيها أكثر من دلالة كشفها العلم الحديث، منها العروج في الفضاء خارج نطاق الجاذبية الأرضية، ومنها أن الشمس لا تظهر أنوارها إلا في السماء الدنيا، ولهذا يقول تعالى في سورة الملك: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصْبِيحٍ...﴾ ﴿٥﴾ فلا تظهر الأنوار إلا بوجود ذرات التراب وذرات بخار الماء. ولأن ذرات التراب وبخار الماء ليست موجودة في الفضاء الخارجي فإن رجال الفضاء لا يرون هناك سوى الظلام الدامس، لهذا لو فتح الله على الكفار باباً من السماء ﴿لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ﴾.

ما جاء في كتاب (القرآن في سياقه التاريخي) مجرد مقارنات شكلية بين ما جاء في القرآن مع ما جاء قبله⁽³⁾، مثل الاختلاف حول عدد أصحاب الكهف، وهذه قضية هامشية، كما سيتضح في سياق التعليق على رأي الدكتور محمد عابد الجابري.

يرى الدكتور الجابري أن سورة الكهف أنزلت للرّد على ثلاثة أسئلة وجهت لرسول الله - ﷺ - عن أصحاب الكهف والرجل الطواف وعن الروح: «ثم جاء من الله عز وجل بسورة أهل الكهف، فيها معاتبة إياه على حزنه وخبر ما سأله عنه من أمر الفتية والرجل الطواف» وفي الهامش يقول: «أما عن السؤال الخاص بالروح، فانظر سورة الإسراء»⁽⁴⁾.

يؤكد الجابري أن السؤال الخاص بالروح جاء في سورة الإسراء، ولم يفسر ولم يوضح سبباً يكشف سبب الإجابة حول السؤالين عن أصحاب الكهف وعن ذي القرنين في سورة الكهف، وعن الإجابة على سؤال الروح في سورة الإسراء: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾⁽⁵⁾.

ويبدو لي أن هناك فرقاً بين كون السورة أنزلت بسبب حادثة الأسئلة الثلاثة، وكونها أنزلت للرّد عليها. الإجابة عن الأسئلة ليست هي الأساس، بدليل أن إجابة السؤال عن الروح جاءت في سورة أخرى، وبدليل أن القرآن تجاوز الاهتمام بتحديد عدد أصحاب الكهف إلى ما هو أهم، ومن ذلك الحكمة من حادثة أصحاب الكهف ذاتها، إلى التنبيه بحدود العقل والإدراك لدى الإنسان وبالنسبية بين الذات والحقيقة.

وكانَّ الله عز وجل أراد أن يقول: ليس المهم أنَّ عددهم كان كذا أو كذا، بل أنَّ الناس قدراتهم محدودة وعلمهم محدود، ولهذا قد يختلفون في أبسط الأشياء ومنها عدد أصحاب الكهف، مع ملاحظة أنَّ الله حدد تفاصيل إعجازية لم يكن يعرفها أحد، مثل تقليبيهم ودور الشمس في الحفاظ على الأجساد من التحلل، ومثل ﴿ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ عِزِّهِمْ ﴾ و﴿ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ ﴾.

واضح أنَّ تحديد عدد أصحاب الكهف ليس هدفًا، ولو كان لتحديد العدد أهمية فإنَّ الله على ذلك لقدير، ولهذا علينا أن نجتهد في فهم ما أراد الله أن نفهمه من آياته، ولا ننحرف إلى ما تجاوزه القرآن. وكما سبقت الإشارة فإنَّ آيات القرآن لا تنحصر في دلالات محدودة بل تتسع إلى دلالات قد نفهم بعضها وقد يبقى بعضها مرتبطًا بعلم أو زمن لم ندركه.

ومن أسرار القرآن ما لا يعلمه إلا الله؛ لهذا فإنَّ المنهجية العلمية بمقاييسها العالمية تقتضي منا التواضع وربط أحكامنا بما نملكه من استنادات قد تكون صائبة وقد تكون خاطئة. إنَّ مقياس سلامة التفكير قابلية التفاهم ومراجعة أخطاء الذات. والمشكلة التي تدخل في أمراض القلوب وأمراض النفوس، سواء بالمعنى السيكولوجي أو بالمعنى الديني، هي التعصب لخبرة وعلم الذات والإصرار على الخطأ.

يقول الدكتور الجابري في هذه الفقرة: «تشتمل هذه السورة على ست فقرات حسب توزيعنا: مقدمة، قصة أهل الكهف، والنهي عن الاستجابة لمطالب قريش وضرب الأمثال لهم، قصة موسى والخضر، قصة ذي القرنين، خاتمة... في هذا الإطار إذن يجب أن نقرأ فقرات هذه السورة بما فيها قصة أصحاب الكهف وقصة الخضر وقصة ذي القرنين. أما الفقرة الثالثة فهي مخاطب قريشًا بلغة الوعيد: بصيغة التهديد وضرب المثل»⁽⁶⁾.

وكان الأصح منهجيًّا ألا يستخدم الجابري صيغة: «في هذا الإطار إذن يجب أن نقرأ فقرات هذه السورة». ربما لم يكن يقصد التفكير الإقصائي، التفكير الأحادي الذي يقطع الطريق على فكر وروى الآخر، لكنَّ مما يستدعي هذه الإشارة أنَّ سورة

الكهف تكاد تدور حول هذه المشكلة؛ مشكلة حصر التفكير على الذات بعيداً عن الحقيقة، وبمعزل عن الآخر وبدون تقدير أقدار الله، وقصة موسى والعبد الصالح أوضح أمثلتها.

المفارقة في قصة موسى والعبد الصالح:

أول المفارقات في قصة موسى والعبد الصالح كانت حينما وصل موسى مع فتاه إلى مجمع البحرين؛ حيث علامة لقائه بالعبد الصالح، لكن نتيجةً لعلمه المحدود وقدرات فتاه المحدودة، فقد أنسى الشيطان الفتى أن يذكر لموسى، واستمر موسى في السفر إلى هدفه، في حين أنه قد وصل إليه وتجاوزه دون أن يدرك ذلك، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنَهُمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ سَرَبًا ۖ ﴿٦١﴾ فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَاهُ إِنَّا غَدَاءُ نَا لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا ۖ ﴿٦٢﴾ قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَا إِلَى الصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ الْحُوتَ وَمَا أَنسَيْنِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ وَاتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي الْبَحْرِ عَجَبًا ۖ ﴿٦٣﴾ قَالَ ذَلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ فَارْتَدَّ عَلَىٰ آثَارِهِمَا قَصَصًا ۖ ﴿٦٤﴾﴾. المفارقة هنا تكشف حدود الاستطاعة عند الإنسان.

إنَّ الشيطان يوقع الإنسان في المفارقات بعدة طرق مثل القول بغير علم، وينسيه ما عليه، لهذا يكون علينا أن نستعيز بالله من الشيطان الرجيم، قال الرحمان في سورة المؤمنون: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيْطَانِ ۖ ﴿١٧﴾ وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ ۖ ﴿١٨﴾﴾ وفي سورة الأعراف: ﴿وَأَمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ۖ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّكَ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ ۖ ﴿٢٠١﴾﴾ وفي الكهف: ﴿... وَأَذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِي ربي لِأَقْرَبَ مِنْ هَذَا رَشَدًا ۖ ﴿٢٤﴾﴾ اذكر أن الله على كل شيء مقتدر، وأن الاستعانة والاستعاذة بالله هما حصن المؤمن.

إنَّ موسى معروف اسمًا وصفةً، والعبد الصالح ليس له أي صفات غير أن الله آتاه رحمة من عنده وعلمه من لدنه علمًا، قال تعالى في سورة الكهف: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا ۖ ﴿٦٥﴾﴾.

علينا أن نتأمل ما أراد الله أن نتأمله في واضح تنزيله الحكيم الذي لم يجعل له عوجاً، وهو هدى ورحمة للمتقين، وكتاب مبين، وفيه من كل شيء مثل. ويقول فيه تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي أَلْكِتَابٍ مِنْ شَيْءٍ﴾، فإذا كان الله لم يحدد عدد أصحاب الكهف فلا ننشغل بالعارض ونترك الجوهرى، وإذا كان الله قد أخفى صفات العبد الصالح فلنتأمل دلالة الإخفاء بما يتفق مع سياق الآيات في سورة الكهف، بشكل خاص، ومع سياق القرآن بشكل عام⁽⁷⁾.

وفي قصة موسى والعبد الصالح تحذيرٌ من إشكالية تغييب خصوصيات أرزاق الله في مخلوقاته، إضافة إلى مشكلة خبرة الذات في إدراك الحقيقة من خلال المفارقة؛ موسى نبي الله وكليمه، وقد أمره الله أن يتعلم من ذلك العبد الحكمة التي تكشف حدود العقل والعلم، وتعلم الإنسان ألا يفكر من خلال ذاته وخبراته فقط، بل يضع حساباً لعلم فوق علمه ولمعلومة تتجاوز فهمه واحتمال ممكن...؛ ألا يفكر بمعزل عن الله وعن أقدار الله التي لا يدركها، وعن رزق الله لغيره من الناس، ويتعلم الإنسان أيضاً احترام رأي الآخر وموقفه.

البداية في هذا السياق، قال تعالى في سورة الكهف: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَني مِمَّا عَلَّمْتَ رُشْدًا﴾^(١٦) قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا^(١٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرًا^(١٨). هنا تكمن مشكلة الإنسان أنه يحكم على الأشياء من خلال خبرته ومعارفه الشخصية وما يفهمه من علم؛ فيكون الدرس تنبيه الإنسان إلى هذه المشكلة، لكي نعتبر منها ونعمل حساباً لله ولرزق الله لغيرنا فنقدّر ذلك، مع الأخذ بعين الاعتبار أن لفظ (خُبْرًا) يعني: الخبر والعلم الشامل. إن الإشكالية هنا أن العقل الإنساني مقيدٌ بخبراته وعلمه مهما كانت نيّاته خالصة وغير مريضة، ونبي الله موسى بلا شك سليم القلب ومخلصٌ للإحسان⁽⁸⁾.

وبالنسبة لقصة موسى فإن الدلالة لها خصوصيتها بحكم أننا مع نبي من أولي العزم والتفضيل، فيكون الدرس من ذلك أن على الإنسان العادي إذا أخلص النية إلى الله أن يجعل في ذهنه دائماً حساباً لما هو خارج خبرته وعلمه وأن يحترم أرزاق الله في خلقه. وتقدير الآخرين من تقدير الله؛ الله الذي خلقنا وأعطانا هو الذي خلق الآخر

وقد لا ندري ما أعطاه وما خصه، والأهم من ذلك في هذا السياق أن نعمل حساباً للحقيقة؛ والحقيقة هنا مسألة ليست سهلة لنسبيتها بالنسبة للإنسان، وخصص لها الله مثلاً شاملاً كاملاً في هذه القصة. ولهذا يكون علينا (التبيين والتبصّر والتأكد) وألا نجعل ذاتيتنا وخبرة عقولنا وما نعلمه مقياساً وحيداً، بل نرجع إلى الله، والله يعلمنا هنا أن نقدر رزقه للآخرين.

نجد هنا أن نبي الله موسى يعرف أن الله قد خص هذا العبد بعلم لا يعلمه، قال تعالى: ﴿قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِرًا وَلَا أَعْصِي لَكَ أَمْرًا﴾ (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلَا تَسْأَلْنِي عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْرًا ﴿٧٠﴾ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْنَاهَا لِنُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا إِمْرًا ﴿٧١﴾ ﴿٧٢﴾

تعهد موسى بالصبر وعدم العصيان، وقد أمره العبد الصالح ألا يسأله عن شيء حتى يحدث له منه ذكراً، لكن ما حدث أن موسى عند أول فعل أنكره عقله وحدود خبرته وعلمه لم يستطع صبراً، فيرد عليه العبد الصالح: ﴿قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (٧٢) قَالَ لَا نَأْخُذْ بِمَا نَسِيتُ وَلَا تَرْهَقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا ﴿٧٣﴾. هذه المفارقة الأولى في المواقف الثلاثة مع العبد الصالح. وموسى ما زال لا يعرف سبب هذا الفعل، لكن من دلالة قبول موسى واعتذاره أن نفكر تفكيراً متعددًا يعمل حساباً لأكثر من احتمال مختلف يتجاوز حدود خبراتنا وتفكيرنا إلى خبرات وأفكار أخرى من الممكن أن تكون (٩).

إن المواقف التي ساقها القرآن هي الحد الأعلى الذي يندرج تحته ما هو أقل شأنًا منه في حياة الناس اليومية، فمن هم عامة الناس بالنسبة لموسى، وما المواقف التي قد يحدث فيها اللبس بين الناس مقارنة مع ما حدث مع موسى عليه السلام؟

الموقف الأول كان في خرق السفينة، والموقف الثاني في قوله تعالى: ﴿فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا لَقِيَا غُلَامًا فَقَتَلَهُ قَالَ أَقْتَلْتَنِي زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَقَدْ جِئْتَ شَيْئًا نُكْرًا﴾ (٧٤) ﴿٧٥﴾ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾ قَالَ إِنْ سَأَلْتُكَ عَنْ شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلَا

تُصِجَّتِي قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْرًا ﴿٧٦﴾ فَأَنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا أَنْبَأَ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطَعَمَا أَهْلُهَا فَأَبْوَأَ
أَنْ يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارًا يُرِيدُ أَنْ يَنْقَضَ فَأَقَامَهُ، قَالَ لَوْ شِئْتَ لَتَخَذْتَ عَلَيْهِ
أَجْرًا ﴿٧٧﴾.

إن موسى هنا لم يستنكر كما فعل سابقًا، ولكنه أشار بـ ﴿لَوْ شِئْتَ﴾ لكن الهدف
هو انتهاء الدرس المتعلق بكشف حدود الاستطاعة وحدود العلم، وتعليم آلية التفكير
المتعدد، الذي يقدر أقدار الله.

فهل خرق السفينة يكون لإغراق أهلها فقط أم أن هناك احتمالات أخرى...، بالطبع
هناك احتمالات أخرى، بدليل ما وضعه العبد الصالح في النهاية: أن نعمل حسابًا
لما يعلمه غيرنا، أو لما لا نعلمه وما زال في علم الله كما في الآيات التي لم تتضح
دلالاتها التفصيلية إلا بعد علم ظهر بعد عدة قرون من نزول القرآن، وفي موقف بناء
الجدار، هل صاحبه من نفس هذه القرية أم لا؟ هل هو موجود فيها أو قادر على دفع
الأجر أم لا؟ وهو ما يتكشف فيما بعد.

قال تعالى: ﴿قَالَ هَذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنَكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا
﴿٧٨﴾ أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسْكِينٍ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ
يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾ وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا
طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾ فَأَرَدْنَا أَنْ يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِمَّنْ زَكَوَتْ وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾ وَأَمَّا
الْجِدَارُ فَكَانَ لْغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا
فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِیَّ
ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾﴾.

إن هذا التنبيه في قوله تعالى: ﴿... رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْنَاهُ عَنْ أَمْرِیَّ...﴾
يذكرنا بما جاء في آية سابقة بموقف أبي يوسف عليهما السلام حينما يقول في
سورة يوسف: ﴿... أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ
الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمَ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾ قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي

ضَلَّكَ الْقَدِيمِ ﴿٩٥﴾. الآخرون يكذبونه ويصفونه بالضلال لأنهم لا يعلمون ما يعلمه من الله، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْقَاهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا ۖ قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنَّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ ﴿٩٦﴾.

والمفارقة في الآية أوضح من أن تشرح. المفارقة أن تفهم قولاً أو فعلاً أو شيئاً... فهماً بغير حقيقته، فتحدث مشكلة؛ المشكلة في موقف الأب أن الناس لم يحترموا علمه من الله، بل وظنوه في ضلال، كما ظن أبناؤه أنه بعنايته بيوسف في ضلال مبين أيضاً: ﴿...إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ ﴿٨﴾ في حين أن الأب على الحق وهم في ضلال مبين، هكذا تتجلى المفارقة.

وموسى في الموقف الأول يفهم من خلال خبرته أن خرق السفينة لا يسبب إلا غرقها، ولم يكن يعرف أن ترك السفينة سليمة سيرضها للنهب غصباً، فإنَّ خرقها في سياق خاص وحالة خاصة كان لمصلحة أصحابها وليس العكس. وكذلك الموقف الثاني قتل الغلام كما هو واضح في السورة، وفي الموقف الثالث يفهم أن الجدار في القرية لأحد ساكنيها الذين أبوا أن يضيّفوهما، في حين أن الجدار لـليثيمين في المدينة، إضافة إلى أنه لا يعرف أن تحته كنزاً لهما، وترك الجدار على حاله قد يكشفه فيذهب إلى غير أهله.

من دلالات هذه المواقف ونهايتها أن الإنسان بحاجة إلى تذكير دائم وترويض مستمر لكي يتجاوز مشكلة الذات والحقيقة، مشكلة حدود المخلوق الذي قد ينسى قدرة الله التي ليس لها حدود، وقد يغيب عن المخلوق تقدير أقدار الله بين مخلوقاته.

كما نتعلم من هذه المواقف تقدير أرزاق الله لغيرنا، وأن تصبح من آليات التربية اليومية، كم من المشاكل تحدث بسبب هذه المشكلة؛ المواقف الثلاثة تؤكد درساً واحداً هو حدود استطاعة المخلوق وحاجته لهدى الخالق الذي له العبادة وحده وبه الاستعانة وحده. لهذا كان لسورة الكهف أهمية خاصة، ومن ذلك قراءتها في كل جمعة⁽¹⁰⁾.

بقية المفارقات في سورة الكهف:

سنحاول هنا أن نتناول بقية المفارقات في سورة الكهف: مفارقة بالكذب، ومفارقة بالظن، ومفارقة استباق قدرية. ومن باب التأكيد والتوضيح يتكرر هنا ما تمت الإشارة إليه في الفصل الأول حول توحيد مفهوم المفارقة، وأن تحديد وصف بعض المفارقات كان على أساس الصفات لا الأنواع؛ بمعنى: حينما نقول مفارقة لفظية، أو مفارقة قدرية، أو كما يتجلى في القرآن بما يمكن وصفه بصفات أخرى، مثل مفارقة بالكذب، أو مفارقة بالظن؛ فإنّ هذا التخصيص من باب التفصيل في توضيح مظهر المفارقة، أو تحديد خصوصية صفتها بالدلالة اللفظية، وليس من باب التفريق النوعي التقليدي الذي اقترن فيه كل نوع بتعريف يخصه، وهو ما تجاوزه هذا البحث، وكان من أهدافه توحيد تعريف المفارقة.

فهذا التخصيص في وصف المصطلح يكون من خصوصيات أسلوب التعبير ومن خصوصيات الضرورة التي قد يتطلبها السياق وموضوعه مع الأخذ بعين الاعتبار أنّ الكثير، إن لم يكن كل المفارقات أو التحذير منها التي أشرت إليها، قد تعمدت أن تأتي متحررة من الصفات، فذلك يجعل التحليل أكثر مرونة في إغناء بعض المفارقات بأمثلة متعددة تتجاوز الصفة الواحدة إلى عدة صفات تعرف ضمناً دون تحديد.

مفارقة بالكذب:

قال تعالى في سورة النساء: ﴿أَنْظُرْ كَيْفَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا﴾ (٥٠). وقال في سورة الكهف: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ (١) قِيمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّنْ لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنْذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا (٥).

من دلالة الحمد لله هنا أنه يأتي كإجابة لمفارقة محتملة، أو بعبارة أخرى يقطع طريق الالتباس بمفارقة على من لم يتضح له أن القرآن هدى ورحمة من الله، قال تعالى: ﴿...وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ۖ﴾ ﴿١﴾ فلا ألغاز ولا إلغاز، قال تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿٢﴾ (سورة البقرة)، وقال: ﴿تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ﴾ ﴿٣﴾ (سورة القصص)، وقال: ﴿مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَىٰ﴾ ﴿٤﴾ (سورة طه)، وقال في الكهف: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَٰذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِن كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾ ﴿٥﴾.

نجد أكثر من آية وفي أكثر من سورة إشارة إلى أن القرآن فيه من كل شيء مثل، وأن المشكلة في جدل الإنسان وكفره وإعراضه؛ ففي القرآن كل ما يحتاجه الإنسان لفهم ما عليه وما له في الحياة الدنيا؛ لكي يتجنب شقاء الدنيا والآخرة؛ ولكي يكون القرآن دليله في كل شيء. فحينما يعرض عن هذه النعمة والرحمة، يقع في مفارقة وعيه وقدرته المحدودة التي أعرضت عن علم وهدى الخالق الحكيم، ويغفل عن الحذر من عدوه الحقيقي إبليس وطبائعه وسيئاته ومن يتبعه من بني آدم...، وأن عدو الإنسان ليس الإنسان بل الشيطان، كما سيتضح في سياق المفارقة في قصة يوسف وإخوته.

المفارقة أن من يقع في طبائع الشيطان وما يأمر به قد لا يدرك أنه لا يتبع أمر الله وإنما يتبع الشيطان. لهذا وجب التأكيد على أن آيات كثيرة تكشف خطوات الشيطان وما يأمر به، وما علمنا الله من استعازات وأخلاقيات حسنة نحسن بها أنفسنا من شروره وسيئاته في عدة سياقات؛ وعليه فإن من يتعرض لظلم أو لسوء من إنسان آخر، فإن الله يبين في أكثر من آية أن الصبر والعفو والصفح عن الناس خير للصابرين، ومن أسباب غفران الله لسيئات المؤمنين:

قال تعالى في سورة النور: ﴿وَلَا يَأْتَلِ أُولُو الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِيَعْفُوا وَلِيَصْفَحُوا أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ ﴿٢٢﴾، وقال في سورة الشورى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ ﴿٤٠﴾ ولمن أنصَرَ بعد ظلمه فأولئك

مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ ﴿٤١﴾ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوتِيَكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٣﴾، وقال في سورة التغابن: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنِّ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ وَأَوْلَادِكُمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَوْا وَتَصَفَحُوا وَتَغْفِرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾، وقال في سورة النحل: ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِلصَّابِرِينَ ﴿١٦﴾ وَأَصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿١٨﴾﴾.

الإحسان من صفات المقربين وأهل جنة النعيم. ومن لا يدرك هذا قد يقع في مفارقة الثأر والانتقام. الإحسان في السلوك والمعاملات جانب وفي العبادات جانب آخر، وقد ورد وصف الإحسان في العبادات في سورة الذاريات: ﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿١٥﴾ ءَاخِذِينَ مَا ءَأَنَّهُمْ رَبُّهُمْ إِيَّاهُمْ كَانُوا قَبْلَ ذَلِكَ مُحْسِنِينَ ﴿١٦﴾ كَانُوا قَلِيلًا مِّنَ النَّاسِ مَا يَهْجَعُونَ ﴿١٧﴾ وَإِلَّا سَحَابٌ مُّمَسَّكُونٌ ﴿١٨﴾ وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ ﴿١٩﴾. وورد وصف المحسنين في السلوك في سورة آل عمران: ﴿الَّذِينَ يُفْقُونَ فِي الضَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظُمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٤﴾﴾.

فلو تنبه الإنسان لمثل هذه الهدايا التي كان علينا أن نحمد الله عليها لما حدثت الفتن والصراعات والحروب والمشاكل بين المسلمين التي لا تترك إلا شقاء وتعاسة وأضرارًا وخرابًا، ولو عمل الإنسان بهدى الله لتحقيق الخير والسلام وإقامة الميزان. لهذا فإن من يعرض عن هدي الله وكتابه وذكره تكون له معيشة ضنك، قال تعالى في سورة طه: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَمَةِ أَعْمَى ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَلِكَ أَنتَ أَتِنَّا فَنَسِينَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ نُنْسِي ﴿١٢٦﴾ وَكَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ أَسْرَفَ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِثَابِتِ رَبِّهٖ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَدُّ وَأَبْقَى ﴿١٢٧﴾. والعودة لله وللذكر الحكيم تحتاج لإيمان خالص؛ يزيد الذين آمنوا إيمانًا، ولا يعقله إلا العالمون، قال تعالى في سورة العنكبوت:

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (٤٣)؛ لهذا علينا أن نحمد الله الذي أنزل الكتاب ولم يجعل له عوجًا.

وفي سياق مفارقة القياس الذاتي الذي ينحصر على المخلوق، ولا يدرك أن الخالق ليس كمثله شيء، قال تعالى في سورة الكهف: ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ (٥). هنا المفارقة خارجية تقع على ﴿الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ (٤) لأنه ﴿مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ﴾، لأن قياسهم هنا ذاتي محصور بوعي الذات وما يقع عليها من ممارسات حياتية، وغاب عن هؤلاء قوله تعالى في سورة الشورى: ﴿... لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (١١). وهنا المفارقة مفارقة كذب، لأن فيها قولاً بغير علم.

ثم يأتي تفصيل يكشف حقيقة أصحاب الكهف، وفي سياقه كشف مفارقة بالكذب أيضاً. قال تعالى في سورة الكهف: ﴿تَحْنُ نَفْسُ عَلِيكَ نَبَاهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى﴾ (١٣) وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا فَقَالُوا رَبُّنَا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَنْ نَدْعُو مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذَا شَطَطًا﴾ (١٤) هَؤُلَاءِ قَوْمُنَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِهِ آلِهَةً لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ (١٥).

يأتي كشف المفارقة في قوله تعالى: ﴿لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ (١٥). المفارقة قد تحدث حينما تغيب المعرفة بالحقيقة، أو حينما ينحصر الحكم على الذات دون إدراك لمخالفته للصواب؛ الذين اتخذوا من دون الله آلهة لا يملكون سلطاناً واضحاً على ذلك ولا دليلاً، والقول بغير علم من أمر الشيطان ومن خطواته كما هو واضح في أكثر من آية.

مفارقة رجم بالغيب وهو نوع من الكذب:

قال تعالى في سورة الكهف: ﴿وَكَذَلِكَ أَتَتْهُمْ لَعْنُهُمْ لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ السَّاعَةَ لَا رَيْبَ فِيهَا إِذْ يَتَنَزَّعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرُهُمْ فَقَالُوا ابْنُوا عَلَيْهِم بُنْيَانًا

رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٦١﴾. من دلالات بعثهم تأكيد حقيقة بعث الناس جميعاً يوم القيامة وهو ما أنكره كثيرٌ وشك فيه آخرون نتيجة مفارقة فهم خاطئ...، فبعث أصحاب الكهف دليل واضح لكيلا تحدث مفارقات في الإيمان بيوم القيامة. قال تعالى في سورة يونس: ﴿وَمَا يَنْبَغُ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾﴾.

قال تعالى في سورة الكهف: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ قُلْ رَبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾﴾. في هذه الآية تتجلى المفارقة في عدم قدرتهم على تحديد العدد، فيأتي النهي ألا يستفتي منهم أحداً، لأن قدرة المخلوق محدودة، والحق لا يعلمه إلا الله ومن رحم.

وقال تعالى في السورة ذاتها: ﴿وَلَبِثُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾﴾ قُلِ اللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُ غَيْبُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ مَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا ﴿٣٦﴾ وَأَتْلُ مَا أُوْحِيَ إِلَيْكَ مِنْ كِتَابِ رَبِّكَ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَلَنْ يَجِدَ مِنْ دُونِهِ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾﴾. هنا يأتي العلم من الله في تحديد ما عجزوا في تحديده؛ الله أعلم بما لبثوا، بهذا تتأكد حدود قدرة الإنسان ومعرفته وإدراكه واستطاعته.

مفارقة قدرية:

قال تعالى في سورة الكهف: ﴿فَلَعَلَّكَ بَنِيعٌ نَفْسِكَ عَلَىٰ ءَاثَرِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا ﴿٦﴾﴾ إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾. هنا مفارقة تقع على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم الذي يكاد يهلك نفسه حزناً على من لم يؤمن من اليهود والنصارى...، ويأتي الكشف في قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴿٧﴾﴾ وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا ﴿٨﴾﴾.

في الآيتين السابقتين مفارقة استباق عن الدنيا بما فيها من زينة سيصيرها الله إلى خراب، وهذه مفارقة يمكن تسميتها قدرية. وسميتها مفارقة استباق لأنها تكشف ما لم يحدث وسيحدث ربما في نهاية الزمان... على أساس أن زينة الدنيا هذه قد تعمي الكثير فلا يدركون نهايتها، ولا يحسبون لذلك حساباً، وقد تغرهم قدراتهم التي منحها الله لهم لأداء الأمانة التي استأمنهم عليها، فتعمي بصائرهم عن إدراك نهايتهم ونهاية الحياة الدنيا كلها⁽¹¹⁾.

قال تعالى في سورة الكهف: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَايٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۚ (٢٣) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ ۚ وَادْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰ أَنْ يَهْدِيَنِي رَبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ۚ﴾. يمكن القول إن التحذير من الوقوع في المفارقة الكونية أو المفارقة القدرية، قد تجلّى فيما جاء في الآية السابقة التي تشكل تحذيراً واضحاً من الوقوع فيها؛ المفارقة القدرية هي حالة إشكالية يقع فيها الإنسان، فيحدث له ما لم يكن يحسب حسابه. على سبيل المثال: حينما تقول أنك ستذهب اليوم التالي للمشاركة في عمل ما، أو ستنجز بعض الأشياء، ولم يخطر ببالك أنك قبل أن يأتي اليوم التالي ستنزلق وتكسر قدمك، فلا يكون باستطاعتك تنفيذ ما قلت، أو حتى إذا قدر الله وجاء أجل الموت، فيكون من دلالة هذا الإدراك لمثل هذه المفارقة التزام الحسنات، كما يقال «قد يخرج النفس ولا يعود»، ومن دلالاته تذكر حدود قدرة الذات. وتربط ما ستفعله في المستقبل بمشيئة الله الذي هو على كل شيء مقتدر، والذي قدر الأقدار التي لا تدركها.

في قصة الرجلين تأتي المفارقة تصويراً تجسدياً لما يسمى المفارقة القدرية: قال تعالى في سورة الكهف: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَبٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ۚ (٢٢) كِلَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْهُمَا أَكْلُهُمَا وَلَمْ تَظْلِمْ مِنْهُ شَيْئًا وَفَجَرْنَا خِلَالَهُمَا نَهْرًا ۚ (٢٣) وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ۚ (٢٤) وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَٰذِهِ أَبَدًا ۚ (٢٥) وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُودْتُ إِلَىٰ رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ۚ﴾.

هكذا كانت صورة لغرور الإنسان وجهله وسوء فهمه وسوء ظنه، فهو قد ظن في نفسه الخيرية وأنه وحده من يستحق التباهي لمجرد أن الله أكرمه بنوع من الرزق.

إن في قصة موسى إيضاحاً إضافياً؛ فنبي الله موسى وكليمه، بما رزقه الله وعرفه على العالمين، قد جعل الله عبداً من عباده لا يعرفه أحدُ مصدرًا لتعليمه هذه الحكمة، حكمة حدود العقل وحدود العلم وحدود المخلوق وحاجته لحكمة وقدرة وعلم ورحمة الخالق تبارك وتعالى. فأنت قد لا تدري ما الخير وما الشر إلا برحمة وهدي من الله؛ الله لم يقل من يؤت مالا ولم يقل من يؤت سلطانا؛ كلاهما قد يظلم نفسه وغيره بماله أو بسلطانه أو بهما معا، وإنما قال الله: ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (سورة البقرة). ومن يؤت الحكمة ير الحق حقاً فيتبعه وير الباطل باطلاً فيتجنبه برحمة الله.

قال تعالى في سورة الكهف: ﴿قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّكَ رَجُلًا﴾ (٣٧) ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (٣٨) ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنْ تَرَنِ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾ (٣٩) ﴿فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِنَ السَّمَاءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا﴾ (٤٠) ﴿أَوْ يُصْبِحَ مَاءُهَا غَوْرًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَبًا﴾ (٤١) ﴿وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبِرْ يَقْلَبْ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلِّغْنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (٤٢) ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًا﴾ (٤٣) ﴿هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا﴾ (٤٤).

(أنا أكثر منك مالا وأعز نفرا) هنا المفارقة التي غفل فيها الرجل عن إرادة الله وأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين؛ ولهذا قال تعالى على لسانه: ﴿... وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً...﴾ ولهذا يأتي كشف المفارقة في قوله تعالى: ﴿وَأُحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبِرْ يَقْلَبْ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلِّغْنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا﴾ (٤٢) ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِتْنَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًا﴾ (٤٣) (سورة الكهف).

وهذا يكشف أيضا المفارقة في قوله ﴿... قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ (٣٥)، وتأكيذاً لكرامة النفس وإعطائها الحق في التفوق والتكبر على الآخر يقول:

﴿...وَلَيْنَ رُودَتْ إِلَى رَبِّي لِأَجْدَنَ خَيْرًا مِّنْهَا مُنْقَلَبًا﴾ ﴿٣٦﴾. وجاء في سورة فصلت:
﴿وَلَيْنَ أَذْقَنَهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَاءَ مَسَّتْهُ لِيَقُولَنَّ هَذَا لِي وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ
قَآئِمَةً وَلَيْنَ تُجِيعْتُ إِلَى رَبِّي إِنْ لِي عِنْدَهُ لِلْحُسْنَىٰ فَلَنُنَبِّتَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِمَا عَمِلُوا
وَلَنُذِيقَنَّهُمْ مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ ﴿٥٠﴾.

مفارقات أخرى:

قال تعالى في سورة الكهف: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا
مِّنْ ءَايَتِنَا عَجَبًا﴾ ﴿٩﴾. ففي آيات الله ما هو أعجب من قصة أصحاب الكهف كما
شرح المفسرون. إذا هنا يقع علم الإنسان في مفارقة معرفية تكشف حدود العقل
بخبرة ومعارف محكومة بحدود الزمان والمكان... والخطاب هنا للرسول الكريم
صلى الله عليه وسلم الذي لا ينطق عن الهوى، كيف بالإنسان العادي. إذا علينا أن
نستعين بالله في كل شيء.

في تفصيل قصة أصحاب الكهف قال تعالى: ﴿إِذْ أَوَى الْفِتْيَةُ إِلَى الْكَهْفِ فَقَالُوا
رَبَّنَا ءِاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا﴾ ﴿١٠﴾ فَضَرَبْنَا عَلَىٰ ءَاذَانِهِمْ فِي
الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَاهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوا أَمَدًا ﴿١٢﴾. ﴿١٣﴾
المفارقة هنا تكشف حدود علم المخلوق؛ الإنسان الذي يحكم من خلال خبرته وعلمه،
والنتيجة أن كل الناس من الممكن أن يخطئوا في حساب مدة زمنية قدرها الله،
فأصحاب الكهف أنفسهم لم يدركوا كم لبثوا. فيكون من دلالات هذا الموقف كما سبق
في مدخل هذا الفصل أيضًا كشف حدود العقل المقيد بخبرات مرتبطة بالزمان والمكان
مهما تعدداً واختلفا.

قال تعالى: ﴿وَحَسَبْنَاهُمُ أَيُّكَاطًا وَهُمْ رُقُودٌ وَنَقَّلْنَاهُمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ
وَكَبَّهْمُ بِسِطِّ ذِرَاعَيْهِ بِالْوَصِيدِ لَوِ اطَّلَعَتْ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتُ مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمَلِئْتُ مِنْهُمْ
رُغْبًا﴾ ﴿١٨﴾ (سورة الكهف). المفارقة في الآية واضحة؛ وهي مفارقة ظن (وتحسبهم
أيقاطًا وهم رقود)، فضلاً عن مفارقة افتراض ﴿لَوِ اطَّلَعَتْ﴾ مع الأخذ بعين الاعتبار أن
مفارقة الظن أيضًا افتراضية، والتصوير هنا فيه أكثر مما يتضمنه سياق هذه الدراسة.

قال تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ قَالَ قَائِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِئْتُمْ قَالُوا لَبِئْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالُوا رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِئْتُمْ فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هَذِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فَلْيَنْظُرْ أَيُّهَا أَزْكَى طَعَامًا فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ۝١١﴾ (سورة الكهف). هنا مفارقة داخلية: فهم بحسب خبرتهم يعتقدون أنهم لبثوا يومًا أو بعض يوم، في حين أنهم لبثوا ثلاثمئة سنين وازدادوا تسعًا، والأرقام لها دراسات تكشف مدى الإعجاز فيها وهي ليست محل اهتمام هذه الدراسة.

ثم تأتي هنا المفارقة الداخلية بين أصحاب الكهف؛ الله بعثهم لأكثر من حكمة، ومن ذلك تبصير المخلوق بقدرة الخالق في الخلق والبعث، وليدركوا ما وقعوا فيه من لبس في تقدير وقت نومهم، فرغم إيمانهم إلا أن علمهم محدود والعقل يقيس من خلال خبرته. هنا الدلالة مرتبطة بالحكم على العقل البشري ومحدودية إدراكه المحكومة بحدود الزمان والمكان الحقيقي والمعرفي. على خلاف الحقيقة التي قد تتجاوز حدود الذات وخبراتها وعلمها. وفي سورة الإسراء: ﴿ يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْجُدُونَ لِحَمْدِهِ وَتَنْظُرُونَ إِن لَّبِئْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ۝٥٤﴾.

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَنْ تُفْلِحُوا إِذَا أَبْكَدَا ۝٢٠﴾ (سورة الكهف). ففي فهمهم أنهم ما زالوا في زمن الظلم الذي هربوا منه، بالتالي لا يعرفون أنهم في زمن لا يحتاج إلى حذرهم... نتيجة للقياس الذاتي الذي وقعوا فيه.

العقل محكوم بحدود يجب مراعاتها، قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿ ... وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾. والمفارقة المعرفية تحدث حينما يغفل الإنسان عن إدراك حدود علمه وحدود قدرته وأن القدرة لله وحده الذي هو على كل شيء مقتدر. وقد سبقت دراسة قصة موسى والعبد الصالح في بداية الفصل لأهميتها، ولما تمثله من تميز ووضوح في تصوير المفارقة، ولما تكشفه من ضعف المخلوق وكشف حدود استطاعته. ومن مفارقات المعرفة والإدراك قوله تعالى في سورة الحجرات:

﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهْلَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (٦) ﴿وَمِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ فِي سُورَةِ عَبَسَ: ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ﴾ (١) أَنْ جَاءَهُ الْأَعْمَى (٢) وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهِ يَرِيكَ﴾ (٢) وَقَوْلُهُ فِي سُورَةِ الشُّورَى: ﴿اللَّهُ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ﴾ (١٧)﴾.

إنه التحذير الذي ينبه أي عقل تنبيهاً شديداً حتى لا يقع في مفارقة، قال تعالى في سورة الكهف: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا﴾ (١٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ (١٤). الآيتان واضحتان ولا تحتاجان إلى شرح، وما يحتاج إلى جهد ومثابرة هو مراقبة الذات والتفكير الدائم بالاستنارة بالقول الحق الذي لم يجعل له عوجاً. فسياق الآيتين يخص الذين كفروا. والمفارقة تكشف ضعف حدود العقل الذي يجعلونه مقياساً دون إدراك لحدوده.

وقال تعالى في سورة الكهف: ﴿وَأَضْرِبْ لَهُمْ مَثَلًا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنْ السَّمَاءِ فَأَخْلَطَ بِهِ نَبَاتَ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ مُقْنِدًا﴾ (٤٥) الْمَالِ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَتُ الصَّالِحَتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾ (٤٦). المفارقة هنا من باب المثل: النبات الذي يسر النظر حين يصير هشيماً وكان الله على كل شيء مقتدرًا. وكذلك فإن المال والبنون مآلهما إلى فناء، ولا يبقى إلا العمل الصالح. فلا يغتر الإنسان بماله أو أولاده ف﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ (٣٦) وَبَقِيَ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٣٧) (سورة الرحمن). هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى تحذر المفارقة من الخطأ في الفهم والتقدير، والمال والولد قد يكون فيهما ما يضر، قال تعالى في سورة التغابن: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِتٍ مِنْ أَزْوَاجِهِمْ وَأَوْلَادِهِمْ عَدُوًّا لَكُمْ فَاحْذَرُوهُمْ وَإِنْ تَعَفَّوْا وَنَصَفَحُوا وَتَغَفَّرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (١٤). فلا يكون هذا الزائل شاغلاً عن الحقيقة وعن الله وعن اتباع الخيرات فهي الباقية.

وقال تعالى في سورة الكهف: ﴿وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا﴾ (٤٧) وَعَرِضُوا عَلَىٰ رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ

زَعَمْتُمْ أَنَّنِي جَعَلْتُ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوَلِّتُنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظِلُّمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾ ﴿٤٨﴾ ﴿٤٩﴾ في هذه الآيات تفصيلٌ تحذيري من الوقوع في التباس الإدراك الذي يشكل المفارقة التي تنكشف يوم الحساب.

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴿٥٠﴾﴾ (سورة الكهف). الموقف يكون من خلال فهم أو إدراك؛ وهنا يكشف الله للإنسان حقيقة غيبية، تبين حقيقة أن إبليس الفاسق هو العدو للإنسان، ويحذره من الوقوع في مفارقة أن يتخذ من العدو ولياً، فإبليس قد أقسم على الإفساد والتضليل، ومن ذينك التباغض والتخاصم بين الناس، وأنه يأمر بالفحشاء والمنكر وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون، والنزغ بين الناس.

ومن باب الحذر من فتنته: تجنب بعضنا كراهية بعض، ومحبة الخير لغيرنا، والتسامح والرضى بأرزاق الله لنا ولغيرنا، والقول الأحسن: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُبِينًا ﴿٥٢﴾﴾ (سورة الإسراء). ومن فتن الشيطان كشف العورة، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿يَبْنِيءَ آدَمَ لَا يَفْنَيْنَكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَ بَيْتِهِمْ إِنَّهُ يَرَبُّكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيْطَانَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾.

المفارقة أن تفهم قولاً أو فعلاً أو شيئاً فهماً بغير حقيقته فتحدث مشكلة، والقرآن لأنه (هُدًى وَرَحْمَةٌ) يركز على التحذير من الوقوع فيها، من خلال كشف حدود العقل البشري وأنواع المزالق التي قد يقع فيها؛ العقل كما أشرت هو نتاج خبرات ومعارف محكومة بالزمان والمكان. وما لم يخبره الإنسان يغيب عن إدراكه، وهنا عليه أن يستوعب هذه الفجوة ويستعين بالله ويحترم ما قسمه الله له ولغيره ويحترم أرزاق الله في مخلوقاته ويعمل الحساب لقدرة الله وحكمته التي قد لا يدركها المخلوق.

في سورة الكهف من الدلالات ما يحتاج لكتاب مستقل، لكن هنا أشير لبعض ما لاحظته من علاقات دقيقة بين الآيات مثل العلاقة بين قصة موسى والعبد الصالح وبين قصة ذي القرنين؛ ففي القصتين عبدان خصهما الله برزق من عنده: العبد الصالح آتاه رحمة وعلمه علماً، وذو القرنين آتاه من كل شيء سبباً. وفي قصة الأول تكررت ثلاث مرات (فانطلقا)، وفي قصة الثاني تكررت ثلاث مرات (فأتبع سبباً)، وفي القصتين ثلاثة مواقف أعتقد أن فيها من الأسرار ما ينبغي أن نتأمله، عسى الله أن يهدينا لبعضها:

في قصة الأول بُني جدار، وفي قصة الثاني بني سد؛ وبناء الجدار كان لمنع اكتشاف ما تحته من كنز لأهل القرية الذين تَكشَّفَ من عدم إطعامهم عابري السبيل مدى بخلهم وسوء طبيعتهم. وبناء السد كان لمنع فسادٍ وبغيٍّ من أساءوا تصريف قوتهم واستطاعتهم. ومن ناحية أخرى أجد طرفين آخرين فيهما من الضعف ما لم يمكنهما من حفظ حقوقهما، كما هو واضح في الآيات. وموقف قتل الغلام يقابله ﴿كَذَلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا﴾ (٩١). وهنا أشير إلى أن التقابل في المواقف قد لا يعني التطابق أو التماثل، ولكن قد يعني التعاكس.

أما موقف خرق السفينة فكان لمنع من أساء تصريف سلطته بأخذ حق غيره غصباً، ولحفظ حق مساكين يعملون في البحر؛ أي يسترزقون بالعمل الحلال؛ إذاً هناك أيضاً طرفٌ أساء تصريف قدرته، وطرفٌ أحسنها. يقابل هذا الموقف موقف تعذيب وعقاب من أساء تصريف طاقاته واستطاعته، والإحسان لمن أحسنها. وفي (فانطلقا) و(فأتبع سبباً) ما يستوجب التفكير، لكن معنى الحركة والعمل في أداء ما على الإنسان من تكاليف يتضمنه اللفظان. (انظر ملحق 1).

المبحث الثاني

المفارقة في سورة يوسف

المفارقتان الرئيستان في سورة يوسف: مفارقة كيد الإخوة ومفارقة كيد النسوة. ترتب عن هاتين المفارقتين عدة مفارقات أخرى كما سيتضح في سياق دراسة قصة يوسف وإخوته وقصة يوسف وامرأة العزيز: فإخوة يوسف كادوا له كيداً، وقد حذره أبوه حينما قال له: ﴿لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ (سورة يوسف)، وهو كيد من نزغ الشيطان كما هو واضح من هذه الآية والآية (100) من نفس السورة، وكانت نتيجته إقصاءه عن أبيه وأهله. وامرأة العزيز كادت ليوسف، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَىٰ فَمِصْرَهُ قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ﴾ (٢٨) وقال يوسف حينما جاءه رسول الملك (إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ): ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْتِنِي بِهِ؟ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسَأَلَهُ مَا بَالَ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ (٥٠) فلما حصص الحق قالت امرأة العزيز: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَجَعَا رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٥٢) وهو كيد من النفس الأمارة بالسوء كما هو واضح من الآية. وكانت نتيجته السجن سنين (12).

وأستغرب أن يصف بعض المفسرين قصص القرآن بوصف لا يتفق مع سياق الآيات بنحو خاص ولا مع سياق السور بنحو عام، مثل القول بأن قصة أصحاب الكهف أو قصة يوسف كانت لتسلية الرسول ومواساته (13). القرآن هدى ورحمة وبيان، يقول تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ إذا القصص للعبارة ولفوائد موصولة بسلوكيات الناس اليومية إلى أن تقوم الساعة، وليس حصراً لتسلية الرسول - ﷺ -، فلا يغفل الناس عن استلهام الدروس والعبر منها، فقد كانت تنبيهاً وبياناً وهدى للرسول وللناس وموعظة وذكرى للمؤمنين (ولا أقول تسلياً): ﴿وَكَلَّا تَقْصُصْ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنْثِيَتْ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة هود) و﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ

بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴿٣﴾ (سورة يوسف).

لاحظ ﴿ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قَبْلِهِ لَمِنَ الْغَافِلِينَ ﴾. إذا لكيلا يغفل الرسول وأمته عن العبر التي أرادها الله لعباده لتكون (هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ)؛ كما هو واضح في نهاية سورة يوسف في قوله تبارك وتعالى: ﴿ لَقَدْ كَانَتْ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ (٣٣). ومن أهم العبر في قصة يوسف أن نتخذ الشيطان عدواً في نزعه بالفرقة والشقاق والتحريش بين الناس، وذلك بالأناقة في نزعه، ونحب الله في رزقه لغيرنا وأن نحترم إرادة الله الذي هو بكل شيء عليم. لا يخالف إرادة الله إلا من خسر الدنيا والآخرة.

المفارقة في قصة يوسف وإخوته:

قال تعالى في سورة يوسف: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ ﴾ (٤) قَالَ يَبْنَى لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴾ (٥). خوف الأب على يوسف وعنايته به كان بسبب علم يعلمه من الله، ولكن بقية الأبناء أساءوا التقدير؛ مفارقة ظن الإخوة أن التخلص من يوسف سيجعلهم محل اهتمام الأب: ﴿ إِذْ قَالُوا لِيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَيْنَا مِنْ أَخِيهِمْ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾ (٨) أَقْتُلُوا يُوسُفَ أَوْ طَرْحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهَ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ ﴾ (٩).

ولم يدركوا أنهم لن يجدوا إلا عكس ما ظنوه، فبعد أن تخلصوا من أخيه يوسف لم يجدوا من أبيهم ما توقعوه، وهي مفارقة واضحة؛ لأن الأب يعلم من الله ما لا يعلمون؛ قال تعالى: ﴿ وَجَاءُوا عَلَى قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ ﴾ (١٨) وقد قيل: «إن الصبر الجميل صبرٌ بلا شكوى. والصفح الجميل صفحٌ بلا عتاب. والهجر الجميل هجرٌ بلا خصام».

وكان حزن الأب على يوسف حتى ابيضَّت عيناه من الحزن فهو كظيم. وقد تكررت ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ حينما لم يرجعوا بأخي يوسف لما ذهبوا به إلى العزيز، والمفارقة أن العزيز هو يوسف نفسه: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ﴾ (سورة يوسف).

وحينما لم يرجعوا بأخيهم قال تعالى على لسان يعقوب عليه السلام: ﴿قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَأْتِيَنِي بِهِمْ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٨٣) وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَأْسَفُنِي عَلَى يُوسُفَ وَأَبْيَضْتُ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ (٨٤). إن القول ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ ارتبط بفعلتهم الأولى وهي التخلص من يوسف طمعاً في عناية لا يستحقونها ولا يعرفون سرها. وحينما يستبقي يوسف أخاه كان قولهم: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَصِفُونَ﴾ (٧٧).

الملاحظ أنهم بعد التخلص من يوسف زعموا أنهم سيكونون صالحين: ﴿أَقُولُوا يُوسُفُ أَوْ أَطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾ (١) ولكنهم هناك يتهمونهم أمام أخيه بالسرقة ولا يعرفون أنهم أمام يوسف نفسه. هنا مفارقة الافتراء، حيث كان كشفهم أمامه في تهمة ظالمة، فهم يعلمون أن يوسف لم يسرق والله أعلم بما يصفون، فهم بعد فعلتهم الأولى بيوسف وبعد كل هذه السنين، لم يكونوا قوماً صالحين.

الملاحظ أنه لو لم يتم إخفاء الصواع في رحل أخيه ما كان تبين ما تخفي صدورهم، فهم لم يحسنوا الظن بأخيهم ولم يدافعوا عنه، بل وكشفوا عن الغل: ﴿قَالُوا إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾ (١٤) إِذَا قَوْلُ الْأَبِ: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ يكشف معرفة الأب بأنفس أبنائه المريضة من خلال علم يعلمه من الله: ﴿وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨٦)، وقد تأكد طبع الأبناء حينما

قالوا: ﴿إِنْ يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَهُ مِنْ قَبْلُ﴾. فإن القول ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا﴾ مبني على معرفة الأب بأنفس أبنائه التي فيها كراهية أبناء الأم الأخرى، بمعنى (نحن أحسن وأحق بالعتاة)، فاستخدام الأب نفس اللفظ الذي استخدمه بعد أن تخلصوا من يوسف، يجعل يوسف وأخاه في كفة تقابل كفة أخرى خالطها مرض الكراهية.

وفي سياق آخر، هناك مفارقة العلم والمعرفة التي كانت لدى الأب وغابت عن علم الآخرين، ولأنهم لم يحسنوا النية فيما لديه كان القذف بالضلال، في حين أنهم هم في الضلال المبين: ﴿وَلَمَّا فَصَلَتِ الْعِيرُ قَالَ أَبُوهُمْ إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَنْ تُفِذُونِ﴾ (٩٤) ﴿قَالُوا تَاللَّهِ إِنَّكَ لَفِي ضَلَالِكَ الْكَبِيرِ﴾ (٩٥) ﴿فَلَمَّا أَنْ جَاءَ الْبَشِيرُ أَلْفَهُ عَلَى وَجْهِهِ فَارْتَدَّ بَصِيرًا قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٩٦). وقد أشرت لهذه المفارقة في سياق سورة الكهف.

وكان الكشف النهائي لمفارقة الحلم ومفارقة سر أهمية يوسف لدى أبيه من قبل، ولدى العالمين من بعد، قال تعالى: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (١٠٠) ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (١٠١) ﴿ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ (١٠٢) ﴿وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠٣).

سبقت الإشارة في سياق قصة موسى والعبد الصالح إلى أن الشيطان يوقع الإنسان في مفارقة النسيان فيغفل عما ينبغي أن يؤديه: ﴿وَمَا أُنْسِيهِ إِلَّا الشَّيْطَانُ أَنْ أَذْكُرَهُ﴾. وتمت الإشارة في نفس السياق إلى أهمية ما علمنا الله من استعاذات نتحصن بها من تلبساته وشروره. وفي سورة يوسف: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ

مَنْهُمَا أَذْكَرُنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾

الشیطان أوقع بین یوسف وإخوته، وهو العدو الحقيقي للإنسان، كما ینبه الرحمان عباده فی أكثر من آیه مثل قوله تعالى فی سورة فاطر ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (٦) وقوله فی سورة البقرة ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١٣٨) وقوله فی السورة ذاتها ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلَامِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوبَ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٢٠٨) وقوله فی الأعراف ﴿فَدَلَّيْنَاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٢٢) وفي الزخرف ﴿وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطَانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٦٢) وفي القصص ﴿فَوَكَرَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ﴾ (١٥) وفي الكهف ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ (٥٠) وفي يوسف ﴿قَالَ يَبْنَئِي لَا نَقْصَصَ رُءُوكَ عَلَى إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا لَكَ كَيْدًا إِنَّ الشَّيْطَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (٥) (١٦).

المضارقة في قصة يوسف مع امرأة العزيز:

قال تعالى فی سورة يوسف: ﴿وَرَوَدَتْهُ الَّتِي هُوَ فِي بَيْتِهَا عَنْ نَفْسِهِ وَغَلَّقَتِ الْأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (٢٣) وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنَّ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَنَصْرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ (٢٤) وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٥) قَالَ هِيَ رَوَدَّتْنِي عَنْ نَفْسِي وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا

إِنْ كَانَتْ فَمِصُّهُ، قَدْ مِنْ قُبْلِ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ الْكَذِبِينَ ﴿٣٦﴾ وَإِنْ كَانَ فَمِصُّهُ، قَدْ مِنْ دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٧﴾ فَلَمَّا رَأَى فَمِصُّهُ، قَدْ مِنْ دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٣٨﴾ يُوسُفُ أَعْرَضَ عَنْ هَذَا وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخَاطِئِينَ ﴿٣٩﴾ وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَنْ نَفْسِهِ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴿٤٠﴾

حينما ألفيا سيدها لدى الباب اتهمت يوسف أنه هو الذي راودها: ﴿وَأَسْتَبَقَا الْبَابَ وَقَدَّتْ فَمِصُّهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا الْبَابِ قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ ﴿٤٥﴾. المفارقة هنا خارجية تقع على العزيز فهو لم يعرف حقيقة الموقف بسبب حضوره وهما لدى الباب، وكان الكيد السريع من المرأة باتهام يوسف في ذنب اقترفته هي.

كم من المواقف المشابهة تحدث في حياة الناس اليومية، لا أقصد المراودة، ولكن كم من الناس يقتربون من الأخطاء ويرمون بها أبرياء تنصلاً أو حقداً. ويأتي كشف أولي للمفارقة حينما شهد شاهد من أهلها...، كما هو واضح في السورة، لكن الكشف النهائي كان حينما ححصص الحق؛ فبعد أن يقدم يوسف تأويل الرؤيا وتتكشف أهميتها للملك يطلبه، فيكون شرطه أن يسأل النسوة اللاتي قطعن أيديهن ليعرف الجميع الحقيقة التي بغيابها يبقى يوسف محل شبهة: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ أَتُؤْنِسُنِي بِهِ؟ فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ أَرْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَسْأَلُهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ الَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ إِنَّ رَبِّي بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ﴾ ﴿٥٠﴾ قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدْتُنَّ يُوسُفَ عَنْ نَفْسِهِ قُلْنَ حَاشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِنْ سُوءٍ قَالَتِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ الْكَفَّ حَصْحَصَ الْحَقُّ أَنَا رَاوَدْتُهُ عَنْ نَفْسِهِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّي لَمْ أَخُنْهُ بِالْغَيْبِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي كَيْدَ الْخَائِنِينَ ﴿٥٢﴾

بهذا الموقف تنكشف مفارقة اتهام يوسف بالمراودة ظلماً. إن نتيجة المفارقة قبل أن تتكشف كانت السجن ظلماً: ﴿... فَلَيْتَ فِي السِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ ﴿٤٢﴾. وبعد أن تكشف المفارقة كان التمكين: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُوهُ مِنْهَا

حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ نَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾. وشتان بين السجن والتمكين. وبهذا ندرك خطورة المفارقة، وخطورة الظلم والله لا يحب الظالمين؛ لهذا كان القرآن حافلاً بالتحذير من الظلم ومن الأخطاء التي قد تحدث بسبب فجوة المفارقة، ومن فتن الشيطان الذي يريد أن ينزغ بين الناس ويوقع بينهم.

المبحث الثالث

مفارقات أخرى في القرآن

سورة البقرة:

قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾. والمفارقة واضحة في الآيات السابقة، ف﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ هذا تصورهم عن أنفسهم، تصور المخلوق حينما لا يدرك الحق، فيأتي اليقين من الله: ﴿أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ فالسفهاء يسخرون من الذين لم تخالطهم السفاهة، وهي مفارقة تكبر على الآخرين.

وقوله تعالى في سورة الحجرات يذكرنا بمن يسخر ممن هو خير منه: ﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِاللِّغَالِيبِ بَشَرٌ لِّتَكُونَ لِلْإِنسَانِ الْمُسْتَقِيمِ ﴿١١﴾﴾. وقد سبقت الإشارة إليها في سياق قصة موسى والعبد الصالح في سورة الكهف. مع ملاحظة الفارق الواضح بين الآية 13 في سورة البقرة والآية 11 في سورة الحجرات: الأولى خطابها في المنافقين، والثانية خطابها في المؤمنين. وهنا في الآية 13 من سورة البقرة يبدو أن تتبع خطوات الشيطان في خطيئته ﴿أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ تكون أقرب لـ ﴿أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ السُّفَهَاءُ﴾.

والاستهزاء بالآخرين من صفة الجاهلين: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَنْتَخِذْنَا هُزُوءًا قَالِ أَعِودُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ (سورة البقرة).

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيَاطِينِهِمْ قَالُوا إِنَّمَا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزَءُونَ ﴿١٤﴾﴾. المفارقة في هذه الآية داخلية تقع على المؤمنين الذين يكون خداعهم، لكن يأتي من الله القول الفصل في كشف الحقيقة: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ نَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٤٤﴾﴾ وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ ﴿٤٥﴾﴾ (سورة البقرة). رغم أن سياق الآيتين يخص بني إسرائيل، إلا أن العبرة موصولة إلى كل معتبر، والمفارقة أن تجد أفعال من يدعو إلى الخير والصلاح ويقول ما يتفق مع البر والإحسان عكس أقواله؛ لهذا فإن القياس يكون بالأقوال التي تطابق الأفعال، ولا ننخدع بالأقوال التي تعاكس الأفعال والحقائق.

وقال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ ﴿٧٩﴾﴾. المفارقة هنا خارجية تقع على الذين يتداولون كتابًا يظنونهم من عند الله وهو كتب من قبل أدعياء ادعوا أنه من عند الله.

وقال تعالى: ﴿وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سُلَيْمَنَ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَنُ وَلَكِنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَرُوا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ وَمَا أُنْزِلَ عَلَى الْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هُزُوتَ وَمُرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرُّوا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾﴾.

تتكشف المفارقة في الآية بشكل أوضح من خلال آية أخرى من سورة طه: ﴿وَلَا يَفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى﴾ (٩٩) والمفارقة أن تفعل ما تحسب أنه ينفعك في حين أنه يضرّك.

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتَ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ (١٥٤). خبرة الإنسان محكومة بحدود كما سبقت الإشارة في أكثر من سياق، فإن الله يعلمنا أن نحسب حساب ما هو خارج خبراتنا وعلمنا ومقاييسنا الحواسية؛ الشعور هو إحساس بوجود الآخر والأشياء؛ حينما يُقتل أحد في سبيل الله وتجري مراسيم دفنه يعد بمقاييسنا ومقاييس حواسنا ميتاً، وهو كذلك لو لم يكن في سبيل الله، والله هنا يبين لنا أن من يُقتل في سبيل الله ليس بميت ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾ ولكن لا نستطيع الشعور بذلك نتيجة الحدود التي تقيد حواسنا وإدراكاتنا.

من هنا كانت المفارقة قبل أن يكشفها الله وينبهه من الوقوع فيها بعد نزول القول الفصل. وتأكيداً لانسجام واتساق القرآن نجد في سورة آل عمران ما يوضح هذه المفارقة: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمُوتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (١٣٩).

وقال تعالى: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ (١٧١) وقال: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢١٦). وفي سورة النساء: ﴿فَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَيَجْعَلَ اللَّهُ فِيهِ خَيْرًا كَثِيرًا﴾ (١٩). في الآيات السابقة واضح التحذير من تزكية الذات وتزكية العقل بالاستطاعة في الإدراك، فأنت قد تفضل ما يضرّك نتيجة لعلمك المحدود ﴿وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة البقرة).

سورة آل عمران:

سبقت الإشارة في مدخل المفارقة في سورة الكهف إلى أن في القرآن دلالات قد تكون مرتبطة بعلم أو زمن قد لا يدركه الأقدمون، مثل قوله تعالى في سورة القيامة: ﴿بَلَى قَدَرِينَ عَلَى أَنْ سُوءَ بَأْنِهِ﴾ (٤) وفي سورة الحجر: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنْ

السَّمَاءَ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ ﴿١﴾ وفي الآية السابعة من سورة آل عمران: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢﴾ فالذين في قلوبهم زيف يتبعون ما تشابه منه. والمفارقة في التشابه بين دلالة مرتبطة بفهم متلقين في قلوبهم زيف، ودلالات يعلمها الله وقد تصبح معروفة للناس في زمن مستقبلي، وقد تبقى إلى يوم الدين.

ولن أتناول المتشابه بالنسبة للذين في قلوبهم زيف فأولئك قد كشف الله حقيقتهم، لكن ما أشرت إليه هو ما أدرك بعضه التفسير الحديث لبعض الآيات التي كشف العلم الحديث خصوصيات بعض تفصيلاتها، مثل تسوية البنان، ومثل قوله تعالى: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ﴾.

وفي بداية سورة هود قال تعالى: ﴿الرَّكَتَبُ أَحْكَمْتُ ءَايَتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنِّ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾﴾. القرآن كتاب محكم، ولكن بالنسبة لعلم الإنسان المحدود الذي يقع في المفارقة نتيجة لذلك يكون بالنسبة له في بعض الآيات تشابه، وبعض ما فيه التشابه هو ما يرتبط بعلوم لها زمانها كما سبقت الإشارة إلى بعضها في أكثر من سياق، وتشكل معرفة إضافية تفصيلية لآيات الله. فإن آيات الله التي هي أم الكتاب، هي «الواضحات الدلالة» في بيان ما للإنسان وما عليه؛ لكي يتجنب شقاء الدنيا والآخرة. وآيات القرآن ميسرة للذكر، قال تعالى في سورة القمر: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُّذَكِّرٍ ﴿١٧﴾﴾ سورة: القمر (17).

وقال تعالى في سورة آل عمران: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بِطَانَةَ مِّنْ دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الْآيَاتِ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١١٨﴾﴾ هَاتَمْتُ أَوْلَاءَ مُجِبُونَهُمْ وَلَا يُجِيبُونَكُمْ وَتُؤْمِنُونَ بِالْكِتَابِ كُلِّهِ وَإِذَا الْقُومُ قَالَُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَصَوْا عَنْكُمْ إِلَّا نَامَلُ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مُؤْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١١٩﴾﴾ إِن تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ سَوَّاهُمْ

وَإِنْ تُصِيبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصِيرُوا تَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٣٠﴾

في الآيات السابقة تنكشف المفارقة جزئياً في (البغضاء التي بدت) لكن المفارقة فيما تخفي صدورهم وهو أكبر. والله هنا يحذر عباده من الوقوع في مثل هذا اللبس. كم من الناس يتخذ صاحباً بحسن نية ومحبة، ولا يعرف أن هذا صاحب يكن له البغضاء والغل والمكر السيئ؛ يستاء إذا مسته حسنة، ويفرح إذا مسته سيئة. وإذا كان للآيات السابقة سياقها وأسباب نزولها، فالعبرة منها مستمرة إلى يوم الدين. وكما أشرت في أكثر من سياق، فإن الغل والكراهية بين الناس من خطوات الشيطان وفتنه، ومحاربتة تكون باتباع ما أمر الله به، ومن ذلك محبة الخير للناس، وإشاعة الألفة وترك السوء.

قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَدَدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نَاعَسًا يَغْشَى طَآئِفَةً مِنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنْ الْأَمْرُ كُلُّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾﴾

في هذه الآية مفارقة سوء الظن بالله: ﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ﴾. ومفارقة أخرى تتعلق بالأجل الأمر الذي لا يعلمه إلا الله: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ فَلَا يَسْتَعْجِلُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ ﴿٤٩﴾﴾ (سورة يونس).

وقال تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَا أَتَوْا وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا فَلَا تَحْسَبَنَّهُمْ بِمَفَازَةٍ مِنَ الْعَذَابِ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٨٨﴾﴾ (سورة آل عمران). المفارقة في الآية واضحة: الذين يحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا، يغيب عنهم أن هذا الحمد الذي يخالف الحقائق يستحق العذاب الأليم.

خلاصة: ثمة علاقةٌ بين (الذين في قلوبهم زيغ) والذين (بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر) وبين (الذين يظنون بالله غير الحق) و(الذين يحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا)؛ فاتباع المتشابه هو اتباعٌ لغير الحق. وقد بدت البغضاء من أفواههم بسبب الحق الذي تخفيه صدورهم. والذين يظنون بالله غير الحق يحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا بغير الحق وبما يخالف الحق.

الحق أن المخلوق محدود العلم ومحدود الاستطاعة. فإذا أدرك هذا وقدره كان كآدم الذي أدرك ضعفه وحدود علمه واستطاعته، وأحسن الفهم وأدرك الحق وأحسن الظن بالله، فرحمه الله وغفر له، وجعل له مكفرات ورحمات تنجيه من شقاء الدنيا وعذاب الآخرة، فيكون ممن يفهمون الحق ويحسنون الظن ويفعلون الخير ويحبون الحق.

وإذا كان مثل إبليس الذي غره كبره، وأساء الفهم (أنا خير منه) وأساء الظن بالله حينما ظن أن الله هو الذي أغواه فزعم لنفسه الخيرية والقدرة بغير الحق، وفعل غير الحق بالتضليل والإفساد (لأغوينهم أجمعين) - كان ممن يفهمون غير الحق (الذين في قلوبهم زيغ)، ويفعلون غير الحق (الذين يخفون البغضاء)، ويظنون غير الحق (الذين يظنون بالله غير الحق) ويحبون أن يسمعوا غير الحق (الذين يحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا)، إذا إحسان الفهم يتبعه إحسان الظن والقول والعمل، ويكشف حقيقة النفس، وإساءة الفهم يتبعها إساءة الظن والقول والعمل، وتكشف حقيقة النفس. وشرّ الدواب عند الله الذين لا يعقلون. (انظر ملحق 2).

سورة المائدة:

قال تعالى في سورة المائدة: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوءًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ٥٨﴾. قبل الإشارة إلى المفارقة في الآية أجد ضرورة لبعض التفصيل من خلال آيات أخرى؛ ففي الآية 16 من سورة المائدة قال تعالى: ﴿يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ١٦﴾ تذكرني ﴿سُبُلَ السَّلَامِ﴾ بالآية 53 من سورة الإسراء: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلْإِنسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ٥٣﴾.

من خطوات الشيطان الفحشاء والمنكر والتضليل والخصام والنزاع والغل وهدم علاقات الوئام والتعاون والتكامل بين الناس، وكل ذلك يكون على نقيض سبل السلام. وأجد في الآيتين الآيتين من سورة المائدة تحذيراً من الانحراف عن سبل السلام: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحَرْمُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقَعَ بَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْحَرْمِ وَالْمَيْسِرِ وَيُضِدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنْتُمْ مُنْهَوْنَ ﴿١١﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَدْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٨﴾﴾ (سورة البقرة). الشيطان لا يريد السلم، ولا يريد السلام، ولهذا على من يعبد الله أن يتخذ الشيطان عدواً ويجعل هدفه السلم لا الفرقة والشقاق والغل والصراع. مع العلم أن هناك من فسر السلم بمعنى الإسلام، وهناك من اعتبر المقصود بالسلم الطاعة والمصالحة.

ولا أجد تعارضاً بين الإسلام والسلم؛ الإسلام هو تسليم الأمر لله وهو السلام والسلامة من شر الدنيا والآخرة. والأمر بالسلم تبعه النهي عن خطوات الشيطان التي منها النزغ والعداوة والبغضاء بين الناس وذلك عكس السلم والسلام والسلامة.

وفي إيقاد نيران الحروب والسعي بالفساد في الأرض يقول تعالى في سورة المائدة: ﴿... كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٦٤﴾﴾. مفارقة ظن السوء، وسوء الطبيعة في من يمثلون خطيئة إبليس ﴿أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ﴾ من خلال ما زين لهم الشيطان أنهم شعب الله المختار، أو أبناء الله وأحبائه؛ فادعاء الخيرية من خطيئة إبليس كما كررت، وإيقاد نيران الحروب والفتن والتباغض والغل والخصام والتكبر من خطوات الشيطان.

مع ملاحظة أن إيقاد نيران الحروب والسعي بالفساد في الأرض قد قرنه الله ببني إسرائيل، كما هو واضح في الآية (64) من سورة المائدة. هناك طبيعتان وطريقان ونهايتان؛ طبيعة آدم: إدراك الحق والاعتراف بالخطأ والاستغفار والتوبة.

وطبيعة إبليس: المكابرة والتضليل والإفساد والإصرار على كل ذلك. ونهاية طريق الخير الجنة. ونهاية طريق الشر النار.

قال تعالى في سورة المائدة: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ ءَامَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصْرِيكَ ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قَسِيصِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾. الاستكبار من طبيعة إبليس، ومن يتبعه يهديه إلى عذاب السعير. وقال تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبُّوهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِر لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴿١٨﴾﴾ (سورة المائدة).

وفي مفارقة فهم التفصيل بمعنى الخيرية، قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿وَجَوْرَنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْبَحْرَ فَاتَوَا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَمُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾﴾. إِنَّ هَؤُلَاءِ مَتَّبِعُوا مَا هُمْ فِيهِ وَيَطِلُّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾. الفضل في اللغة هو الزيادة، وفضلنا أي زدنا. فقد زادهم الله بكثرة الأنبياء والأموال والملك.

وقد أشار موسى إلى أن الله زاد بني إسرائيل بكثرة الأنبياء والأموال: ﴿قَالَ أَغَيَّرَ اللَّهُ أَبْغِيَكُمْ إِلَهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾، والآية أشارت إلى تفاصيل التفصيل إشارة إجمالية ولا تفصيل، لكن في آيات أخرى نجد كثيراً من التفاصيل لما فضل فيه الله بني إسرائيل من كثرة الأنبياء والرسل والأموال، قال تعالى في سورة المائدة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَلْقَوْنِي أَذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنْبِيَاءَ وَجَعَلَكُمْ مُلُوكًا وَءَاتَاكُمْ مَّا لَمْ يُوْتِ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾.

وقال تعالى في سورة القصص: ﴿إِنَّ قُرُونًا كَانَتْ مِن قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَءَاتَيْنَاهُ مِنَ الْكُوزِ مَاءً إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ

إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾. المفارقة أن يكون فهم التفضيل بمعنى الخيرية، أي أنهم خير عند الله من بقية الخلق، فوقعوا في خطيئة إبليس، وهي خطيئة ادعاء الخيرية تكبراً وغروراً، وهذا ما لا يتفق مع سنة الله في خلقه، كما هو واضح في كثير من الآيات التي تكشف غضب الله عليهم، فسنة الله أن من أحسن فلنفسه ومن أساء فعليها، قال تعالى في سورة الإسراء: ﴿ثُمَّ رَدَدْنَا لَكُمُ الْكُرَّةَ عَلَيْهِمْ وَأَمْدَدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا ﴿٦﴾ إِنَّ أَحْسَنَكُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ الْآخِرَةِ لِيَسْتَوْفُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبَرَّأُوا مَا عَلُوا تَبَرُّاً ﴿٧﴾ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُمْ عُدتُمْ وَلِيُتَبَرَّأُوا مَا عَلُوا تَبَرُّاً ﴿٨﴾﴾. وإن عدتم عدنا، أي إذا عدتم للفساد فسيعود العقاب، وجهنم للكافرين حصير.

وعودة إلى قوله تعالى في سورة المائدة: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٥٨﴾﴾. الصلاة دعاء واستغفار، والاستغفار اعتراف بضعف الإنسان. خطيئتان أساسيتان في بداية الخلق؛ خطيئة إبليس وخطيئة آدم. خطيئة إبليس بدأت بالفسوق عن أمر الله، فهو حينما أخطأ لم يتراجع عن خطيئته، ولم يعترف بها، بل كابر وأصر على أن يستمر في إغواء خلق الله من بني آدم، لم يقل أنا مخلوق ضعيف وقد أخطأت فاغفر لي، وإنما ﴿قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾﴾ (سورة الحجر).

في علم النفس، من الحيل المرضية عدم الاعتراف بالخطأ، والإنكار والتبرير والإسقاط....، وكل ذلك من خطوات الشيطان، فهو قد أنكر ولم يعترف بطبيعته وإنما كابر وأصر على التزيين والإغواء لخلق الله. أما آدم فقد اعترف بضعفه وبخطيئته: ﴿فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ (سورة البقرة). الصلاة من مكفريات خطايا الإنسان. إذا المفارقة أن يسخر الذين لا يعقلون مما ينقذهم من النار ويزحزحهم إلى الجنة! قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾.

إن الاستهزاء بالنداء إلى الصلاة مرتبط بمفارقة الوعي بأهميتها، إضافة إلى كون الاستهزاء بما يقوم به الآخر من سلوك مرتبط بقناعته وإيمانه ورؤيته، فيه تكبر على الآخر، فهو يكشف النفوس المريضة التي ترى في نفسها الخيرية، وترى في غيرها النقصان، وذلك من خطوات الشيطان ومن خطيئة إبليس كما كررت.

لنتأمل هذه المفارقة: هل من الممكن أن يكون المسلم الذي يشهد أن لا إله إلا الله ويصلي ويصوم ويزكي، قد حصّن نفسه من عبادة الشيطان، أو من اتباعه؟ فعبادة الشيطان قد تكون مباشرة، وقد تكون غير مباشرة، وهذه خطرهما على المؤمنين غير مأمون؛ حينما يسمع الآيات التي تحذر من عبادة الشيطان أو من خطواته يعتقد أنها لا تخصه. ومن يقع مثلاً في الكذب أو التضليل أو التكبر أو في العداوة والبغضاء أو في القول على الله بغير علم، عليه أن يراجع الآيات التي تكشف السيئات التي هي من طبائع الشيطان ومن خطواته؛ والقول في الله بغير علم هو أعلى مراتب القول بغير علم، يدخل تحته القول بغير علم والجدال بغير علم في أي شيء.

ليس من السهل أن نزكي إيماننا دون أن نرجع إلى كتاب الله الذي فيه من كل شيء مثل، ونقيس مدى التزامنا لأوامر الله واجتنابنا لخطوات الشيطان وما يأمر به. فإن الله وحده يعلم من هم أولى بالنار صلياً. أما أن للناس أن يتوقفوا عن اتباع الشيطان وأن يتبعوا الله وحده، مثلاً لو توقف الناس عن التضليل والكذب وعن الغل والنزغ والفرقة فيما بينهم أليس هذا مما يميز بين من يتبع الله ومن يتبع الشيطان، وأن التبريرات مهما كانت ليست إلا من تزيين الشيطان. ومن تزيينه (الغاية تبرر الوسيلة).

فلنتأمل إحدى الحكم من الوقوف في صفوف الصلاة؛ حينما يقف الفرد في الصف، عليه أن ينظر إلى موضع استقامة الصف كاملاً، ولا يقف حسب ما يقف هو أو الذي بجانبه لأن الذي بجانبه أو الذي يليه قد لا يكون في مستوى استقامة الصف كاملاً؛ فإن من يقف في الصف دون أن يحرص على استقامة الصف بالكامل، يحدث اختلالاً في تمام نظام الاستقامة التي لا تتم إلا حينما يكون كل فرد قد حرص على تجاوز ذاته وموقفه إلى موقف الجماعة.

هذه الفكرة لها علاقة بفكرة التقدير لما يقع خارج الذات؛ أي التقدير لله، وللحقيقة، ولتمام النظام والاستقامة. فإذا كان علينا أن نقرأ سورة الكهف في كل جمعة لحكم كثيرة منها فكرة التحرر من الذاتية والفردية إلى التزام الحق والعدل والاستقامة التي لا تتم إلا بتقدير الله: التقدير لأمر الله؛ فإذا كانت هذه إحدى فوائد صلاة الجماعة، فماذا عن فوائدها الأخرى وماذا عما لا ندركه ويعلمه الله، والله بكل شيء عليم، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (سورة البقرة).

وحيثما يعلمنا الله أن نستعين بالصبر والصلاة، فلأننا في كل صلاة نكرر سورة الفاتحة وفيها ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ وفيها تذكير بضعف الإنسان لئلا يقع في مفارقة الغرور، وتذكير بحاجته لمغفرة الرحمان الغفار، وحاجته للاستعانة بمن هو على كل شيء مقتدر، الذي يدرك حدوده وأن ما يملكه من استطاعة محدودة هو محل اختبار، فلن يظلم بها أحداً ما دام يذكر الله الحسيب الرقيب الذي أحاط بكل شيء علماً، وستنهائ صلاته عن الفحشاء والمنكر الذي هو من خطوات الشيطان.

سورة التوبة:

قال تعالى في سورة التوبة: ﴿إِلَّا نَضُرُّوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. ﴿يَجُنُودٌ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ هنا المفارقة؛ الله قد أيد نبيه بجنود، ولكن المفارقة أن الناس لم يروها؛ لم يروها لأنهم لا يعرفون طبيعتها لكن الله يوضح وظيفتها بالقول: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾. المفارقة في الآية مفارقة خارجية تقع على الناس الذين لم يروا الجنود التي أيد الله بها رسوله. من مخلوقات الله مخلوقات يعجز البصر البشري عن رؤيتها، قال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (سورة النحل).

سورة النحل:

قال تعالى في سورة النحل: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ﴾ (٤). تتكشف هنا مفارقة عجز الإنسان المخلوق من نطفة، كيف يكون هذا العاجز خصيماً مبيناً للذي يمكنه أن يزيله من الوجود. والمفارقة هنا تشبه مفارقة غرور إبليس بنفسه وركونه إلى استطاعته المحدودة وعلمه المحدود، فعصى أمر خالقه واختار الباطل والشر، ولم يتبع الحق.

وقال تعالى في السورة نفسها: ﴿وَالْخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٨) وَعَلَى اللَّهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهْدَكُمْ أَجْمَعِينَ (٩). يذكر الله تعالى في الآية بعض ما خلق، وتبقى مفارقة أخرى بمخلوقات لا نعلمها، ومنها جائرٌ ولو شاء الله لهدى الناس أجمعين. إذن، هناك سنة أخرى للاختبار، فمن الدواب ما هو جائرٌ ومن الناس من هو خصيم مبين. كل ما على الكون مسخرٌ بأمر الله، فيكون التعقل والحكمة أن يشكر الإنسان كل هذه النعم، لكن المفارقة تحدث حينما يكون خصيماً مبيناً وظالماً كفاراً.

ونتيجة جهل الإنسان وإصراره على ذلك، قال تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَا يَبْعَثُ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ بَلَى وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٨) (سورة النحل). المفارقة واضحة هنا.

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (٤٩) فقد جاء في تفسير وبيان كلمات القرآن للشيخ حسين محمد مخلوف أن معنى «سُجِدَ لِلَّهِ: منقاداً لحكمه وتسخيره»، وجاء معنى «يسجدان: ينقادان لله فيما خلقا له» ص 321 (19).

سورة الحج:

قال تعالى في سورة الحج: ﴿يَتَأْتِيهَا النَّاسُ أَتَقُوهُ رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَرَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَرَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ

اللَّهُ شَدِيدُ ٢٠ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَبَتَّعَ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ٢١ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ، وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ٢٢.

المفارقة تحدث حينما تغيب المعرفة الدقيقة بالحقائق. في الآيتين الأولى والثانية من سورة الحج كشف حقيقة مستقبلية، هذا الكشف فيه رحمة للعباد الذين لا يدركون هولها، فيكون عليهم الاستقامة فسنة الله قائمة. والرحمة أن يكشف منها ما يكون للناس عاصمًا من التهاون في أداء ما عليهم من أمانة، وتكون دافعًا للالتزام بالحق. ومن ذلك القول بعلم يقين لا الجدل في الله بغير الحق، فذلك من اتباع الشيطان؛ القول بغير علم من خطواته، وهو يهدي إلى عذاب السعير.

ومن خطوات الشيطان السوء والفحشاء وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ كُلُّوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ١٦٨ إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ١٦٩﴾. القول بغير علم أي بغير معرفة الحقيقة. وفي سورة الحج قال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَبَتَّعَ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ٢٠ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ، وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ٢١﴾. وفي سورة الشعراء جاء أن الشياطين تنزل على كل أفك أثيم، أي من يقول الكذب الذي يخالف الحقائق، ويضل الآخرين: ﴿هَلْ أُنَبِّئُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ ٢٣١ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ٢٣٢ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَذِبُونَ ٢٣٣﴾؛ الكذب والمغالطة والتضليل من طبائع الشيطان وفتنه، ولا يكون المؤمن كذابًا ﴿... وَكَفَىٰ بِهِ إِثْمًا مُّبِينًا ٥٠﴾ (سورة النساء).

وقال تعالى في سورة الحج: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ ٢٦ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ٢٧ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَةٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُمْ

مِنْ بِهِيمَةٍ الْأَنْعَمَ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطِيعُوا أَلْبَاسَ الْفَقِيرِ ﴿٢٨﴾ ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلِيُوفُوا نَذْرَهُمْ وَلِيَطُوفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿٢٩﴾ ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ حُرْمَتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ، عِنْدَ رَبِّهِ، وَأُحِلَّتْ لَكُمْ الْأَنْعَمُ إِلَّا مَا يُنْتَلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ ﴿٣٠﴾

الدلالة التي قد تشكل مفارقة فهم الحج والطواف حول الكعبة دلالة تحتاج إلى تأمل دقيق؛ فلنتأمل علاقتها بالأمانة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾ ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾ إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾

ما أشار إليه المفسرون هو أنّ الأمانة كلّ ما أمر به الإنسان من عبادات وكل ما عليه اتّباعه وعمله أو اجتنابه... لكن سنحاول توضيحاً تفصيلياً؛ الجبال مثلاً تتكون من ذرات، والذرة تتكون من نواة (مركز) تدور حولها إلكترونات، وعدد الإلكترونات يحدد نوع المادة بالتوازن الذي يتم بين مركز الذرة ومدارها وبوجود الطاقة بالطبع، هذه الطاقة والحركة تتم تلقائياً. والإنسان بالمقابل مكون من ذكر وأنثى، وله حاجات أساسية للحفاظ على الحياة، مثل التنفس والشراب والطعام، يترتب عنها طاقات وحاجات مركبة من حاجات وطاقات للحفاظ على النوع. كلّ هذه العمليات تحتاج إلى توازن بحيث لا تتعارض مع حقوق الآخرين وقيمهم ولا يترتب عنها إضرار وهدم، بل انسجام وتوازن وإعمار وحياة خير وسلام.

هذا التوازن في السماوات والأرض والجبال يتم تلقائياً بأمر الله. أما عند الإنسان فإن الله خلق الإنسان بطبيعة فيها استطاعة محدودة، وأمره أن يصرفها بما يقيم الميزان (وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان) ولعلها الأمانة في بعض دالاتها، لهذا جاءت الشرائع الدينية التنظيمية... المعروف أنّ الكعبة تقع في مركز اليابسة والطواف حولها يوازي دوران الكواكب حول الشمس، ويوازي أيضاً دوران الإلكترونات حول مركز النواة. إذاً، لا شك أنّ في هذه العبادة سرّاً له علاقة بإقامة توازن الأمانة التي حملها في حياته.

وفي الآية (18) من سورة الحج قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَنْ يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ۝١٨﴾ فلنتأمل العلاقة بين الأمانة التي أبت السموات والأرض والجبال أن يحملنها، وحملها الإنسان؛ التي تجعل الطاقة التي تقيم التوازن وتحفظ النوع في المادة لها علاقة بالتوازن الذي على الإنسان أن يقيمه، وهي عبادات الإنسان لربه، ولها مظاهر متعددة، ومن ذلك السجود لله والشكر ليس بالكلام بل بالأعمال الصالحة: ﴿اعْمَلُوا أَلْ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّاكِرِينَ ۝١٣﴾ (سورة سبأ: 13)، والحمد والشكر لله يكون بعمل ما أمر به الله، مثلاً: ألا تنظر للحرام أو تكشف العورات، من الحمد والشكر، فضلاً عن كونه طاعة لإقامة الميزان، ومن أداء الأمانة.

وقال تعالى في سورة الحج: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ۝٤٦﴾. المفارقة هنا خارجية تقع على من يرى؛ على من له عيان لكنهما لا تبصران. العمى الحقيقي عمى البصيرة لا البصر. إن التوازن في الطاقة أو الطاقة الناتجة عن حركة التوازن بين مركز الذرة وعدد ما يدور حولها يحدد نوع المادة. والمقارنة بين الإنسان والمادة مقارنة إجمالية، والمقارنة التفصيلية تحتاج إلى كتاب مستقل، لكن حينما يقول الله تعالى: ﴿وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ۝٢٠٥﴾ (سورة البقرة: 205) فإن تغير العدد في تكوين الذرة يغير نوعها، والأسرة في إطار العلاقة الزوجية مجال ومدار يعيش فيه أفرادها بجينات وراثية محددة، فإذا حدث الزنا فإن نوعاً من التغير في الصفات الوراثية يحدث، لاختلاط صفات الزوج الوراثية وجيناته التي يحتفظ بها الرحم طوال فترة العدة بصفات وجينات الزاني فيهلك الحرث والنسل، والله بكل شيء عليم.

سورة النور:

قال تعالى في سورة النور: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (١٢). في هذه الآية مفارقة دقيقة فيها من التركيب المتعاكس ما يتطلب منا كثيرًا من التأمل لفهم بنيتها النفسية؛ المفارقة في هذا السياق هي اتهام بريئة بتهمة باطلة. وقد أشرت في سياقات سابقة إلى أن الإنسان بطبيعته يحكم على الأشياء من خلال خبرته بنفسه وبالأخرين. الآية لمست عمق جوهر المشكلة، فلم تكن الصيغة بمعنى أن يُحسن الظن بالآخرين، لأن الحكم وقع عليهم، ولكن إحسان الظن بالنفس، النفس التي أطلقت الحكم على الآخرين ظلمًا؛ إذا تكاد هذه الآية أن تصنف سبب المفارقات التي يقع فيها الإنسان عادة، وهي أن الإنسان قد لا يدرك أو لا يحاول أن يدرك حقيقة الآخر، فيحصر فهمه وإدراكه على نفسه، ومن هنا يتشكل الخطأ، فلو كانت النفس سوية فسيكون حكمها سويًا، ولو كانت منحرفة فسيكون حكمها منحرفًا.

إن هذه الآية تكشف النفوس المريضة التي تقتصر خبرتها على السوء ولا تعرف الخير، لهذا تكون أحكامها مبنية على الخبرة بالنفس. إن عمق الآية ودقة التحليل النفسي فيها مؤداه: لو حسنَ الظن بالنفس لحسنَ فهمَ وتقييم الآخر. وقد تجلّى في نفس السورة في الآية (50) عن الذين يقولون آمنا وما هم بمؤمنين: ﴿أَفَى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَمْ ارْتَابُوا أَمْ يَخَافُونَ أَنْ يَحِيفَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُ بَلْ أُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

الملاحظ أن السورة في سياقين مختلفين يربطها رابط موضوعي، منه ما يتعلق بكشف نفسية المنافقين الذين أساءوا الظن بالله وخافوا أن يحيف الله عليهم، والذين يحبون أن تشيع الفاحشة في الذين آمنوا ويقولون آمنا وما هم بمؤمنين، ويقسمون كذبًا: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْنَاهُمْ لَنَخْرُجُنَّ قُلْ لَا تُقْسِمُوا طَاعَةٌ مَعْرُوفَةٌ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ (سورة النور: 53). الآيات يجمعها الظاهر والباطن، الظاهر والحقيقة. والظاهر والباطن مشكلة قد لا تمس الكفار والمنافقين فقط، بل أيضًا - بشكل مختلف - قد تمس المؤمنين الذين قد يختانون أنفسهم بالنظر إلى ما حرم الله.

وقد تجلّى في هذه السورة تشريعٌ للسلوك اليومي داخل الأسرة الواحدة، قال تعالى في سورة النور: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لِيَسْتَعِذَّوْا بِالَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ وَالَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا الْحُلُمَ مِنْكُمْ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ مِنْ قَبْلِ صَلَاةِ الْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُمْ مِنَ الظَّهِيرَةِ وَمِنْ بَعْدِ صَلَاةِ الْعِشَاءِ ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ لَكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌ بَعْدَھُنَّ طَوُفُوتٌ عَلَيْكُمْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ الْأَطْفَالُ مِنْكُمُ الْحُلُمَ فَلْيَسْتَعِذُّوْا كَمَا اسْتَعِذَّ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾.

الملاحظ أولاً أَنَّ الله عز وجل قال ﴿ثَلَاثَ مَرَّاتٍ﴾، ثم قال جل شأنه ﴿ثَلَاثُ عَوْرَاتٍ﴾ ومن المهم معرفة الفرق بين اللفظين: يبدو لي أن الأولَ للآوقات التي قد تظهر فيها العورات، ثم يأتي التوضيح والتأكيد على الهدف وهو إخفاء العورات، وفي أي وقت وفي أي مكان يمكن أن تظهر فيه العورات يجب الاحتياط. وفي هذا التشريع حصنٌ للمؤمنين من خائنة الأعين ومن الباطن ومما تخفي الصدور.

وفي سورة الأعراف تحذيرٌ من الوقوع في فتنة الشيطان لبني آدم: ﴿يَبْنَىٰ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَا ۚ إِنَّهُ يُرِيدُكُمُ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنۢ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ ۚ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾. إذن، التعري وكشف العورات من الفتن الشيطانية: التعري من صفات الذين لا يؤمنون بالله، لأن الشياطين أولياؤهم، وهو من مداخله لفتنة الإنسان.

وفي آية أخرى من سورة النور: ﴿إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُمْ مَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُ هَيِّنًا وَهُوَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ مفارقة مركبة من مستويين: الأول هو القول بغير علم؛ أي بغير معرفة الحقيقة، قولٌ معاكس للحق. والثاني أن تحسبوه هيناً وهو عند الله عظيم.

وفي آية أخرى من نفس السورة: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَلُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِنْدَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ ۚ

وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٣٩﴾ مفارقةٌ ندرك بعضها وهو واضح في الآية، ولكن تبقى تفاصيل يعلمها الله، وربما يُعلم من عباده من يستطيع أن يفصل تلك الأعمال، وكيف يجيئونها الكفار طلباً لحاجة في نفوسهم ولكن لا يجدون نتيجة أعمالهم، التي تستحق العقاب فيكون الله هناك ليوفيهم حسابهم والله سريع الحساب.

سورة الشعراء:

في سورة الشعراء كثيرٌ من المفارقات التي حدثت مع بعض من أنذروا ولم يستجيبوا للحق والرشاد فكان عقابهم في الدنيا الهلاك، والآخرة أشدَّ عذاباً. ومنها ما يتعلق ببعض ما وقع لموسى عليه السلام وقومه مع فرعون ومن تبعه: ﴿فَلَمَّا جَاءَ السَّحَرَةُ قَالُوا لِفِرْعَوْنَ أَإِنَّا لَنَّا لِأَجْرٍ إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ﴾ ﴿٤١﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ إِذَا لَمِنَ الْمَقْرَبِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ لَهُمْ مُوسَى أَلْقُوا مَا أَنْتُمْ مُلْقُونَ ﴿٤٣﴾ فَأَلْقَوْا حِبَالَهُمْ وَعِصِيَهُمْ وَقَالُوا بِعِزَّتِ فرعون إِنَّا لَنَحْنُ الْغَالِبُونَ ﴿٤٤﴾ فَأَلْقَى مُوسَى عَصَاهُ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ ﴿٤٥﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سِهْنَهُمْ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ نَعْمُونَ لَأَقْطِعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَأَصْلَبَنَكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾

المفارقة في ثقة فرعون العمياء بالسحرة، وثقة السحرة بسحرمهم، في حدود ما يعلمون، لكن المفاجأة أن موسى لم يستخدم سحراً، ولكنها قدرة الذي يقول للشيء كن فيكون؛ فلما تبين للسحرة أن هناك قدرة فوق سحرمهم، وتبين لهم جلال أمر الله، حدث ما لم يحسب حساب به فرعون، وما لم يكن في حسابهم، فقد كان في حسابهم من أجر الدنيا الزائل ما طمعوا فيه، لكن حينما تبين لهم الحق لم تعد الدنيا تهمهم ومهما فعل بهم بغي البغاة.

في كثير من الآيات إشارات إلى أن الكفر من الجهل ومن غياب التعقل، ومن أمراض القلوب والنفوس. قال تعالى في سورة الأنفال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ

لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾. وفي سورة يونس: ﴿وَمَا كَانَتْ لِنَفْسٍ أَنْ تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَجْعَلُ الرَّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾ ﴿١٠٠﴾. الذين أدركوا جلال وعظمة أمر الله، على سحرهم، لم يكن أمام إدراكهم إلا الإيمان بالله. لكن شر الدواب الذين يحصرون القول والفعل على أنفسهم وعلى رغباتهم وعلى جهلهم فازدادوا كفرًا وبغيًا وطغيانًا: ﴿قَالَ آمَنْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَسَوْفَ نَعْتَمُونَ لَا فَطْنَنَ أَيْدِيكُمْ وَأَرْجُلُكُمْ مِنْ خَلْفٍ وَلَا صَلْبَتُكُمْ أَجْمَعِينَ﴾ ﴿٤٩﴾.

ثم تحدث مفارقة مركبة من مستويين: مستوى خاص بالمؤمنين، وهم أصحاب موسى حينما تراءى الجمعان؛ حيث ظنوا أنهم وقعوا في قبضة فرعون: ﴿فَلَمَّا تَرَاءَا الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا لَمُدْرِكُونَ﴾ (سورة الشعراء: 61) البحر من أمامهم وفرعون من خلفهم. لكن رسوخ الإيمان بالآقوى والأقدر، وبمن يقول للشيء كن فيكون، عند من اختاره الله وقال له: ﴿فَأَضْرِبْ لَهُمُ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَفُ دَرَكًا وَلَا تُخْشَى﴾ (سورة طه: 77).

وقال تعالى في سورة الشعراء على لسان موسى: ﴿قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ ﴿٦٢﴾ فأوحينا إلى موسى أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَرْزَقْنَاهُمْ نَمَ الْآخِرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾. المستوى الثاني من المفارقة ما يتعلق بثقة فرعون بقدرته وحشده، على من اعتبرهم (شردمة قليلون). وحينما رأى معجزة البحر لم يتراجع ولم يعقل بل أصر واستكبر وظن أنه سيلحق بموسى ومن معه، ولم يدرك أنه لن يلحق إلا بأجله وقدره المحتوم: ﴿ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخِرِينَ﴾ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾.

إن الإفك والكذب وزرع الفتن والضغائن والغل بين الناس من طبائع الشيطان ومن سار مساره: ﴿هَلْ أَتَيْتُكُمْ عَلَىٰ مَنْ تَنَزَّلُ الشَّيَاطِينُ﴾ ﴿٣١﴾ تَنَزَّلُ عَلَىٰ كُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ ﴿٣٢﴾ يُلْقُونَ السَّمْعَ وَأَكْثُرُهُمْ كَذِبُونَ ﴿٣٣﴾ (سورة الشعراء). إن بغي الإنسان وظلمه وفساده مرتبط بخطوات الشيطان وبخطيئته في ادعاء الخيرية، وفي التسلط على غيره وانتهاك حقوقهم وحرياتهم، وإحداث الضغائن والفتن والصراعات وفي

المغالطة والتضليل، ومنهم من يقولون ما لا يفعلون أو يدعون الإصلاح والرشاد وهم يفعلون البغي والغي والفساد، ومنهم فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ (سورة غافر) رغم أنه هو الفساد بذاته، كما سيتأكد في سياق سورة غافر.

وفي سورة الشعراء قال تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ﴾ (٢٢٤) ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون ﴿٢٢٥﴾ وأنهم يقولون ما لا يفعلون ﴿٢٢٦﴾. وهناك علاقة بين التضليل ومن يقول ما لا يفعل؛ وكل ذلك من خطوات الشيطان، والشيطان عدو يهدي إلى عذاب السعير.

سورة النمل:

في قصة ملكة سبأ والنبى سليمان عليه السلام - كما وردت في سورة النمل - عدة مفارقات، منها: ﴿قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا قَالَتْ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (سورة النمل). المفارقة التي وقعت فيها الملكة أنها لم تكن تعرف أن الصرح من الزجاج، لهذا حسبتة لجة وكشفت عن ساقها لئلا يصيب الماء ثيابها؛ والمفارقة هنا تكشف الفارق العلمي والصناعي بين مملكة خصها الله برحمته وبركاته، ومملكة كانت بعيدة عن الله.

وفي السورة مفارقات أخرى منها: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَضَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾ (سورة النمل). كشفت هذه الآية مفارقة لم تكن حينها مستوعبة لدى الناس، ولكن العلم الحديث قد كشف أكثر من مستوى لهذه المفارقة: أولاً أن الجبال وكل المواد مكونة من ذرات وهي في حركة دائمة؛ الذرة مكونة من مركز تدور حوله إلكترونات. والمستوى الثاني لحركة الجبال يأتي من خلال حركة الأرض حول الشمس ولهذا فهي في حركة دائمة.

وقال تعالى في سورة الإسراء: ﴿تَسِيحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ وَإِنْ مِنْ

شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا نَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا ﴿٤٤﴾. المفارقة (لا تفقهون تسبيحهم)، الذرات في حالة حركة وتوازن للحفاظ على النوع، وهي من دلالات التسبيح.

سورة القصص:

قال تعالى في سورة القصص: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَأْتِيَهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطْلُعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾﴾. من الواضح أنَّ الرؤية الذاتية المفرطة والثقة العمياء بالعقل وخبرته المعرفية على ما يقيدها من حدود، واتباع العامة لفرعون - قد أوقعته في المفارقة السابقة، من خلال قوله المتهم المنكر للحق الذي غاب عن إدراكه. إنَّ البغي والفساد مرتبطان بقدرة الإنسان المحدودة في التسلط على غيره، إنَّ بسلطة الحاكم أم المال أم الذات على نفسها أو غيرها في أسرتها أو عملها، وهذه القدرة ما هي إلا اختبار للمخلوق.

وقال تعالى في سورة القصص: ﴿إِنَّ قُلُوبَنَا كَآتٍ مِّن قَوْمٍ مُّوسَىٰ فَبَعَثْنَا عَلَيْهِمُ وَعَآيِنَهُ مِّنَ الْكُوفِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَابْتَغَ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنَ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِّنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْئَلُ عَنْ دُؤْبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قُلُوبُنَا إِنَّهُ لَدُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَيْكُم ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِّمَن ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِن دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾

وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيَكَابُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلَا أَن مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيَكَانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْفِقِينَ ﴿٨٣﴾

في هذه الآيات تصويرٌ لقصة قارون وهي تجسيد لبغي وفساد أهل المال وغرورهم وتكبرهم؛ المفارقة في هذه الآيات تقع على قارون من ناحية، ومن ناحية أخرى على الذين طمعوا أن يكون لهم مثل ما له من مال ونفوذ. الملاحظ في الآية (83) مفارقة دقيقة تقع على كثير من أهل المال والسلطان ممن يريدون علوًا في الأرض ويتوسلون الوسائل التي تُصَرِّفُ الحقوق والامتيازات لفئة من الناس دون أخرى، ويمنعون الحقوق عن آخرين، ويتوهمون أن ذلك يضمن لهم الاستمرار في علوهم، وغفلوا عن هذه الآية.

المفارقة أن بعض من يقرأون القرآن يَمرون على هذه الآية وكأنها لا تعنيهم، في الوقت الذي قد يمارسون فيه انتقائية في توزيع الحقوق والامتيازات لفئة دون أخرى، ولا يدركون أنهم يقعون في خطيئة إبليس التي استحق عليها وعلى من تبعه فيها عذاب السعير؛ حينما يعطون الخيرية لمن يختارون دون مراعاة للحقوق الخاصة والعامة، ودون عدل وأمانة، وبهذا يخونون ما استأمنهم الله من استطاعة مقيدة بزمان ومكان محدد، ويصرفونها بغير ما أمر الله به.

سورة غافر:

قال تعالى في سورة غافر: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَى وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ ﴿٨٦﴾

من المفارقات التي تحدث في حياة الناس اليومية - عند من يتبعون خطوات الشيطان - التظاهر بالأقوال على عكس الأفعال والممارسات العملية، وقد كشف الله في القرآن الحكيم تفصيلاً دقيقاً لمفارقة قد تحدث بين الناس في سورة البقرة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُعْجِبُكَ قَوْلُهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيُشْهَدُ اللَّهُ عَلَى مَا فِي قَلْبِهِ - وَهُوَ

أَلَدُّ الْخِصَامِ ﴿٢٠٤﴾ وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ
وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ ﴿٢٠٥﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ
وَلَيْئَسَ الْمِهَادُ ﴿٢٠٦﴾.

حكمُ الله هنا واضح (فَحَسْبُهُ جَهَنَّمُ وَلَيْئَسَ الْمِهَادُ) ففرعون الذي طغى وبغى
واستحلَّ نساء قوم موسى يقول إنَّه يخشى أن يُظهر موسى الفساد! في حين أنَّه هو
الفساد الذي تجاوز الحدود فحق عليه قول الحق وجعله عبرة لمن يعقل أو يتفكر
ويتدبر؛ المفارقة تقع على من يستمع إلى الأقوال ويبني عليها المواقف في حين أنه
لو عرف الحقائق لتغيرت مواقفه، ومن الفوائد هنا ألا ننخدع بالأقوال والمظاهر
التي تخفي حقائق معاكسة.

وقال تعالى في سورة غافر: ﴿... قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا
أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٢١٩﴾﴾؛ كارثة السلطات الباغية على شعوبها أن تحصر
العلم والمعرفة والقرار فيما تراه، وحينما يغيب النصيح الأمين تحدث المفارقات؛
السلطات الباغية تعجل زوال كياناتها بالإسراف فيما تراه، وإقصاء وإبادة ما
يخالفه؛ المفارقة الواضحة أن تزعم أنها في سبيل الرشاد، في حين أنها في سبيل
الغي والبغي والفساد. وخرج فرعون من بين جناتٍ ونعيمٍ سعيًا في قهر قوم أرادوا
السلامة لأنفسهم فقط ولم يحملوا سلاحًا ولا أرادوا قتالًا، دفعه الغرور والتكبر إلى
نهايته. ماذا يفعل بنو إسرائيل الآن؟! من يحسب حساب الدنيا ولا يحسب حساب
من خلقها تكون نهايته كنهاية فرعون، والمفارقة أن تفعل ما تظن أنه يؤمن لك
البقاء، في حين أنه يعجل لك الزوال، والشواهد على هذا كثيرة على مر التاريخ؛
وقصة موسى وفرعون لم تتكرر عبثًا.

الإنسان بما يملكه من استطاعة بشرية قد يظلم بها نفسه وغيره، بحاجة إلى
تذكير بحدود هذه الاستطاعة، ومسؤوليته في تصريفها بما لا يتعدى حدود الله،
وهو بحاجة أيضًا إلى تذكُّر قول المولى تبارك وتعالى في سورة القصص: ﴿تِلْكَ
الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْقِذِينَ ﴿٨٣﴾﴾.

سورة فصلت:

قال تعالى في سورة فصلت: ﴿وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَرُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللَّهَ لَا يَعْلَمُ كَثِيرًا مِمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٢﴾﴾. يمكن إدراك معنى المفارقة الإجمالي في الآية، حيث يستتر الذين يعملون أعمالاً يخافون من عملها جهاراً، لكن المفارقة أن تشهد عليهم أعضاؤهم، كيف يظنون أن الله لا يعلم كثيراً مما يعملون، وقد أحاط بكل شيء علماً، ويعلم السر وأخفى، والمفارقة تتكشف أكثر من خلال آية أخرى في سورة الأنفال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الضُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٢٢﴾ وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾ التأكيد على طبيعة يعلمها الله بآيتين في سورتين: في سورة الحشر الآية (12): ﴿وَلَيْنَ فُوتِلُوا لَا يَنْصُرُوهُمْ وَلَيْنَ تَنْصُرُوهُمْ لَيُوَلِّيَنَّ الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يُصْرَفُونَ﴾ وفي الآية (23) من سورة الأنفال: ﴿وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ والأمر لله من قبل ومن بعد، وهو أعلم بالظالمين.

وفي سياق آخر في سورة الأنعام: ﴿وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٧﴾﴾؛ إذا المشكلة في نفوس وقلوب الكافرين، والكفر ضد الإيمان، والكفر في اللغة هو التغطية وإخفاء الحق. وفي علم النفس يلجأ الإنسان إلى الحيل الدفاعية المرضية كالإنكار والتبرير والإصرار على الخطأ باجتراح الأعذار، وهو ما يعكس نفسه المريضة، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾﴾.

سورة الحجرات:

في سورة الحجرات مفارقات عديدة مهمة، ولعل في اسم السورة علاقة موضوعية مع سبب المفارقات؛ الحجرات بينها فواصل قد تجعل فيها ما لا يعرفه أو يدركه من هو خارجها، ومن ذلك آداب النداء، ومنزلة من ينادونه وهو في سياق السورة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولأهمية مفارقات السورة وردت في سياقات سابقة، خاصة مفارقة السخرية من الآخرين: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرَنَّ قَوْمٌ مِّنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّنْ نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (سورة الحجرات: 11). ومفارقة الجهالة: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْحَبُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (سورة الحجرات: 6). وحينما رجعت إلى السورة كاملة لفت انتباهي أن المفارقات أو التحذير من الوقوع فيها تكاد تتضمن كل آياتها.

وبعد الآية التي تشير إلى السخرية، والآية التي تشير إلى التناكب بالألقاب الذي قد يكون فيه نوع من التمايز أو التعالي على الآخرين، نجد مفارقة سوء الظن: ﴿يَتَأَيَّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبَ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾ (١٢) ﴿يَتَأَيَّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتَقَى اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (سورة الحجرات: ١٣).

التحذير من المفارقة في آيات هذه السورة واضحٌ وضوحاً يفهمه أي سامع أو يفهم ما يجب عليه ويحرص على تقوى الله: في الآية (13) من هذه السورة تتويع للنهي عن السخرية والتناكب بالألقاب، واجتناب بعض الظن، بأكثر من دلالة، منها أن الله خلق الناس ليتعارفوا، وأن الأكرم عند الله هو الأكثر تقوى، والتعارف يكون على نقيض التباعد والتناحر والتباعد والعداء الذي هو مما يأمر به الشيطان الذي ينزغ بين الناس ويوقع بينهم العداوة والبغضاء، والخطاب هنا للمؤمنين فوجبت عليهم محبة الآخرين والحرص على التي هي أحسن، والدفع بالتي هي أحسن، والاستعانة بالله، والاستعاذة بالله من الشيطان، كما علمنا الله في أكثر من آية، وقد أشرت إلى بعض الآيات التي فيها التنبيه إلى دور الاستعاذة بالله من نزغ وتضليل الشيطان ودفع فتنه وشروعه.

سبقت الإشارة إلى أنَّ الحجرات لها علاقة بأسباب المفارقات بنحو عامٍّ وبمفارقات السورة بنحو خاصٍّ؛ الحجرات هي أماكن مغلقة ولها أبوابها بالطبع، ولكنَّ من يكون خارجها قد يجهل خصوصيات من بداخلها أو ما بداخلها، ولا ضرورة لتكرار شرح مفارقات السخرية من الآخرين أو الجهالة أو بعض الظن؛ والتصوير البلاغي لموقف من يكون خارج الحجرات وجهله بقدر من بداخلها مثل النداء على الرسول الكريم، ومن يسخر ممن هو خير منه، كمن كان خارج معرفة خيرية من يسخر منه، ومن يصيب بجهالته قومًا أبرياء نتيجة نَبأ كاذب من فاسق، أو من يقع في بعض سوء الظن - كلُّ ذلك يكون لأنَّ من وقع في تلك المفارقات كمن هو خارج معرفة الحقائق التي تشبه الحجرات بسبب جدران حجبَت رؤية الحقائق، والجدران هنا بمعناها المجازي لا الحقيقي أو بعبارة أخرى: بسبب ما تخفيه الحجرات على من هو خارجها وهم من وقعت عليهم المفارقات.

سورة القلم:

قال تعالى في سورة القلم: ﴿إِنَّا بَلَوْنَهُمْ كَمَا بَلَوْنَا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا لَيَصْرُنَّهَا مُصْبِحِينَ ۝١٧ وَلَا يَسْتَنْوُونَ ۝١٨ فَطَافَ عَلَيْهَا طَائِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَائِبُونَ ۝١٩ فَأَصْبَحَتْ كَالصَّرِيمِ ۝٢٠ فَتَنَادَوْا مُصْبِحِينَ ۝٢١ أَنِ اغْدُوا عَلَىٰ حَرْبِكُمْ إِن كُنتُمْ صٰرِمِينَ ۝٢٢ فَانْطَلَقُوا وَهُمْ يَخْفَوْنَ ۝٢٣ أَن لَّا يَدْخُلْنَهَا ۝٢٤ أَلْيَوْمَ عَلَيْكُمْ مَسْكِينٌ ۝٢٥ وَغَدُوا عَلَىٰ حَرٍِّ قَدِيرٍ ۝٢٦ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوا إِنَّا لَضَالُونَ ۝٢٧ قَالُوا سُبْحٰنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظٰلِمِينَ ۝٢٨ قَالُوا سُبْحٰنَ رَبِّنَا إِنَّا كُنَّا ظٰلِمِينَ ۝٢٩ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَوْمُونَ ۝٣٠ قَالُوا يٰوَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظٰلِمِينَ ۝٣١ عَسَىٰ رَبُّنَا أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا رٰغِبُونَ ۝٣٢ كَذٰلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ۝٣٣﴾.

في هذه الآيات تصوير لطمع أصحاب الجنة؛ حيث غاب عن إدراكهم حق الفقراء والمساكين من زكاة جنتهم، وأن الله هو الرزاق ذو القوة المتين؛ وأن ما يملكون من جنة هي نوع من الأمانة التي عليهم أن يحسنوا تصريف استطاعتهم في خيراتها، ويحسنوا أداء حق الفقراء والمساكين فيها.

والمفارقة في هذه الآيات مركبة، فهي مفارقة عدم إدراك أصحاب الجنة لحق الفقراء والمساكين، ومن ناحية أخرى غاب عن إدراكهم ما يمكن أن يترتب عن ذلك من عقاب، حيث تكشف النهاية غير المتوقعة بالنسبة لهم (فأصبحت كالصريم)، ثم يأتي التنبيه الأهم: ﴿كَذَلِكَ الْعَذَابُ وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾. فاعتبروا يا أولي الأبواب.

ليس ما أشرت إليه في بعض سور القرآن من مفارقات كل ما ورد فيه، ففي القرآن دلالات لا تنتهي، وفيه مفارقات لم أشر لبعضها بحكم وضوحها، وبعضها يحتاج إلى جهد آخر يكشف علاقاتها بسياقاتها. وما يهمني في هذا الجهد أن أركز على ما هو أكثر أهمية. إن أهمية دراسة المفارقة في القرآن الكريم ليست رصد صفاتها وأشكالها - على غناها - فقط، بل إدراك دلالة المواقف التي تتجسد خلالها أو بالتحذير منها، وذلك يشكل لنا نوراً نهتدي به في سلوكياتنا اليومية كيلا نضل ولا نشقى.

خلاصة الفصل الثالث:

المبحث الأول في المفارقة في سورة الكهف ذات المفارقات الكثيرة؛ أهمها مفارقة الوعي بحدود علم الذات وخبرتها وما قد يغيب عنها من إدراك للحقائق وفي فهم أرزاق الله في خلقه. الذي خلق موسى ورزقه النبوة وكلمه تكليماً، خلق العبد الصالح وخصه بما لم يخص به غيره، فعلينا أن نحترم أرزاق الله في غيرنا ونعمل حساباً لما يقع خارج علمنا وما لدى الآخرين.

وإنكار أو تغيب ما لدى الآخرين هو تغيب لرزق الله لغيرنا. كيف نقبل رزق الله لنا وننكره على غيرنا؟! الذي خلقنا خلق غيرنا والذي خصنا بأشياء خص غيرنا بأشياء أخرى، فتكون الحياة ألفة وتكاملاً لا خصاماً وتنافراً؛ وطريق الخصام والتنافر من طرق الشيطان، ومن يتبع خطاه يجره إلى الجحيم، كما وقع صاحب الجنتين في إعطاء نفسه الخيرية على غيره، وأنكر ما يمكن أن يخص الله به غيره، فكان حكم الله وعقابه بزوال ما يملك⁽¹⁹⁾.

في المبحث الثاني تم التركيز على المفارقتين الرئيسيتين في سورة يوسف: الأولى مفارقة كيد الإخوة لأخيهم وذلك من نزغ الشيطان، ولكن إحسان يوسف وأبيه كان في اتخاذ الشيطان عدوًا، بقول الأب: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ وقول يوسف: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ أَيُّومَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، وبهذا الإحسان يتحقق ما يأمر به الله من التسامح والتكامل والمحبة بدلاً من الغل والفرقة وما يأمر به الشيطان. والثانية مفارقة كيد امرأة العزيز والنسوة وذلك من النفس الأمارة بالسوء. ومفارقة كيد النسوة الذي وقع على يوسف السجن سنين، ونتيجة انكشاف المفارقة كان التمكين، وشتان بين الظلم والعدل (الإنصاف). وفي كل حال، فإن الرضى بأرزاق الله لنا أو لغيرنا من الإيمان، وعدم الرضى من الكفر ومن خطوات الشيطان الذي لم يرض بما خصَّ الله به آدم وزعم لنفسه الخيرية على غيره.

وفي المبحث الثالث كثير من المفارقات التي يقع فيها الناس؛ مثلاً مفارقة سوء الظن بالذات كما في سورة النور في حديث الإفك، حيث قدم القرآن تحليلًا نفسيًا عميقًا لمشكلة سوء الظن التي هي انعكاس لمعرفة وخبرة الذات بنفسها. فقد تكون الذات ملوثة فيغيب عنها طهر الآخرين، أو لئيمة فيغيب عنها نبل الآخرين، أو بخيلة فيغيب عنها كرم الآخرين: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (١٢).

كما تجلّى أن الآيات التي تتضمن تحذيرًا من خطوات الشيطان ونزغه وأنه هو العدو الحقيقي للإنسان -تكشف عما يغفل عنه البعض من طبائعه التي قد يقعون فيها مثل التكبر والتضليل والكذب ودس العداوة والبغضاء والكراهية بين الناس والسوء والفحشاء وكشف العورات. ولكيلا يقع الإنسان فيما يأمر به الشيطان من سيئات تجره إلى عذاب السعير، عليه ألا يغفل عن الذكر الحكيم الذي فيه حكمة الرحمان لتحصين عبادته من فتن الشيطان، ومن ذلك الاستعاذات بالله من الشيطان، وقول التي هي أحسن، والدفع بالتي هي أحسن، لئلا يشقى في الدنيا والآخرة. وقبل

كل ذلك ألا يغفل المؤمن عن الاستعانة بالله وأن القوة والقدرة لله وحده؛ لئلا يقع في مفارقة الغفلة عما منحه الله من استطاعة محدودة فيظلم بها نفسه وغيره، وقد يغفل عن كون القوة والقدرة لله وحده وأن خطيئة إبليس كانت في التكبر، فيطمع في العلو في الأرض، والله يقول: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْعِقِينَ﴾ (سورة القصص: 83). على الإنسان أن يحذر من خطوات الشيطان وطبائعه وما يأمر به.

وفي السور التي تناولتها كثير من المفارقات، مثلاً في سورة الحجرات مفارقات السخرية ممن قد يكون أخيراً، ومفارقة التناوب بالألقاب، ومفارقة بعض الظن الآثم. ولعل في اسم السورة علاقة موضوعية مع سبب المفارقات؛ الحجرات بينها فواصل قد تجعل فيها ما لا يعرفه أو يدركه من هو خارجها، ومن ذلك آداب النداء، ومنزلة من ينادونه وهو في سياق السورة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وفي هذه السورة إشارة مهمة إلى أن الله خلق الناس من ذكر وأنثى وجعلهم شعوباً وقبائل ليتعارفوا ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاهُ﴾ لا ليتناحروا ويتصارعوا. وفي كثير من السور آيات تنبيه إلى: (إن الشيطان لكم عدو مبين) و(عدو مضل) و(إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً)، ومن أراد اتباع أمر الله فعليه أن يبتعد عن طبائع الشيطان وما يأمر به من إفساد وتضليل وقول بغير علم، وعن كل ما يؤدي إلى الفرقة والشقاق والتباغض والفتن وإيقاد نيران الحروب.

والعودة إلى القرآن تذكر وتحذر الإنسان مما يمكن أن يقع فيه من مفارقات تشقيه، من أعرض عن هذه الرحمة وعن هذا النور إنما يعرض عن الحق والعدل والشفاء والكمال، فيقع في ضعف النقصان في استطاعته المحدودة، ويقع في تلبيسات عدوه الحقيقي وهو الشيطان، فتكون له معيشة ضنكاً. والمفارقة ألا يدرك البعض أهمية الاستعاذة من الشيطان في كل لحظة، كما علمنا الله: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ (١٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَنْ يَحْضُرُونِ (١٨) (سورة المؤمنون). فضلاً عن الاستقامة والتقوى.

أما الإحسان فهو من مراتب مَنْ يصل إلى العفو والصفح عن الناس، وَمَنْ وصل إلى إدراك عدوه الحقيقي؛ فيوسف عليه السلام يقول: ﴿بَعْدَ أَنْ نَزَعَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي﴾، ويقول لإخوته بعد كل ما فعلوه: لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمْ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ﴿٤٠﴾. وقال تبارك وتعالى في سورة الشورى: ﴿وَجَزَّوْا سَيِّئَ سَيِّئَةٍ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ﴾ (٤١) وَلَمَنْ أَنْصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُولَئِكَ مَا عَلَيْهِمْ مِنْ سَبِيلٍ (٤٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٣) وَلَمَنْ صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿٤٤﴾.

أهمية دراسة المفارقة في القرآن الكريم تأتي من كونه يمتلك حكمة الخالق في معرفته بخلقه، وما يمكن أن يقعوا فيه من أخطاء. ومفارقات النصوص الأدبية لم تكن سوى نماذج محدودة لما يمكن أن يقع فيه الإنسان من خلال خبرة مؤلف النص، في حين أن القرآن قد لمس التحليل النفسي الدقيق لأسباب المفارقات واللبس الذي قد يوقع الإنسان في الخطأ أو السوء، وقدم التنبيه الكامل لكل المداخل التي يمكن أن تؤدي إلى ذلك: ﴿وَلَقَدْ يَسْرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (سورة القمر: 17).

الخاتمة

المفارقة من المصطلحات التي لم تحظَ بما تستحقه من العناية العلمية، بحُكم الإشكالات التي علفت بها، ومن خصوصيات هذا الجهد تقديم رؤية واضحة للمصطلح بعيداً عن الازدواجية في تعريفاته، إضافةً إلى إزالة الخلط بين المفارقة والتهكم. وحاولت أن أقدم تصنيفاً واضحاً للمفارقة في النص الأدبي وللمفارقات التي تحدث في الحياة اليومية، وهي من الخصوصيات المهمة التي تجنبنا الحيرة في فهم المصطلح. فضلاً عن الخصوصيات التطبيقية، خاصة في القرآن الكريم؛ في معالجته لمشكلة حدود قدرات الإنسان.

المفارقة بالمعنى الاصطلاحي هي الالتباس في الفهم أو الإدراك، فهذا الالتباس قد يكون من خلال حوار لغوي، بين متكلم يقصد معنى وملتقٍ يفهم معنى آخر غير المقصود، فتحدث مشكلة. وقد تحدث المفارقة بسبب فهم ظاهرة أو سلوك أو معلومة بشكل غير صحيح، وهذا يكون بسبب معرفة ناقصة أو مغلوطة. وقد تحدث المفارقة بسبب عدم القدرة على فهم حقيقة الآخر، نتيجة الذاتية المفرطة، وتغليب ما تراه الذات على حقائق الأشياء والآخرين.

إذاً، نتيجة المفارقة هي كشف مناطق الخطأ التي قد يقع فيها الإنسان فتسبب مشكلة وصراعاً وشقاءً وربما دماراً. بعبارة أخرى: تعلم الإنسان إدراك حدوده وحدود قدراته ومعارفه، أو تقريبه من السلوك الحكيم. والحكمة أن ترى الحق حقاً وتتبعه وترى الباطل باطلاً فتجتنبه، وتبتعد عن الذاتية، فترى الحقائق بغير تشويش أو التباس. وهناك حكمة قديمة تقول: «كُلُّنا جاهلٌ. وَخَيْرُنَا جاهلٌ يَعْلَمُ بِجَهْلِهِ. وَشَرُّنَا جاهلٌ يجهلُ جَهْلَهُ».

في الفصل الأول، تمت الإشارة إلى المفارقة في طبيعة سلوك الإنسان، تجلّت بعض المواقف والأحداث التي قد تأتي على عكس ما حسبناها أو على غير ما فهمناها، وهذا يكشف حدود قدرات العقل المحكوم بخبراتٍ وعلومٍ ومعارفٍ محدودة زمانياً ومكانياً. وفي الإشارة إلى بداية ظهور المصطلح في الحوارات الأفلاطونية، بدلالته البلاغية في العصر اليوناني، وتعريفاته في العصر الروماني -تبين كيف تمّ اجتراح

الدلالة التقليدية واستمرارها مع الدلالة الاصطلاحية، على الرغم من أنَّ الدلالة النقدية والأدبية قد حددت هذا المصطلح النقدي منذ نهاية القرن الثامن عشر؛ حيث ابتدأت صفاته النقدية بالاستخدام، مثل مفارقة الأحداث والمفارقة الدرامية والمفارقة اللفظية، وأنَّ الخلط بين المفارقة والتهكم جاء بسبب استمرار استخدام الدلالة البلاغية للمفارقة في معناها الكلاسيكي في العصر اليوناني والروماني، وانعكاساته في صفاتها، دون فصل بين دلالاته التقليدية ودلالاته الاصطلاحية النقدية. والفرق بين المفارقة والتهكم أو التورية أنَّ المفارقة تحدث بالالتباس في التلقي، في حين أنَّ التهكم يكون بقصد المتكلم، وكذلك التورية. وخلصت إلى تعريف واحد للمفارقة: فهم قول أو فعل أو ظاهرة أو شيء ما...، فهماً بغير حقيقته.

الفصل الثاني، من أسباب تفكيك تعقيد المفارقة توضيح الفرق بين وظيفة المفارقة في النص وحدوثها في الحياة. المفارقة مصطلح له وظيفة أدبية في النص، والمفارقات تحدث في الحياة اليومية باستمرار، فوظيفة المفارقة في النص الأدبي تستخدم على مستويين: الأول أساسي في بُنية الحبكة الدرامية، والثاني مستوى ثانويّ تضمينيّ في السياقات الداخلية للنص. حينما تشكل المفارقة بنية الحبكة، تأتي كتطور لما كان يسمى الخطأ الدرامي *Hamartia* مع فاروق جوهري بين المصطلحين هو أنَّ الخطأ الدرامي فقد صلاحيته منذ زمن بعيد؛ بسبب ارتباطه بفكر لم يعد يناسب تطورات الزمن، أما المفارقة فإنها تمتلك مرونة في تشكيل الحبكة من خلال المفارقة في بداية النص، وانكشافها في نهايته، وهذا المفهوم لا يسمح بأيّ لبس في فهمه ودراسته. تشكل المفارقة، بُنيةً للحبكة، مقياساً دقيقاً لمعرفة الترهلات الزائدة على النص؛ فبداية النص تكون بالمفارقة، أي بالمشكلة التي يترتب عنها الصراع، ونهاية النص تكون بانكشافها والتحول عن الخطأ أو اللبس الناتج عنها أو بإدراكها.

أما المفارقات التي تحدث في الحياة اليومية، فلها خصوصياتها، محكومة بظروفها؛ فقد تكون بسبب فهم خاطئ عن الذات أو عن الآخر، أو بسبب سوء تقدير وفهم للآخر أو للأشياء، أو للظواهر، وهو ما يترتب عنه مشكلة أو صدام مع الآخر أو

فشل في عمل ماء، وهي نتيجة طبيعة حدود علم وخبرة الذات. والمفارقة في النص الأدبي والديني تشكل تحذيراً وتنبيهاً من إشكالاتها في الحياة.

الفصل الثالث (بعض المفارقات في آيات من القرآن الكريم)، إن مفارقات القرآن الحكيم لها خصوصيات تفتح أفاقاً جديدة لفهم آياته. وتجتمع في كثير من الآيات دلالة كشف طبيعة الإنسان، وتفكيك المزالق التي يمكن أن يقع فيها، وتعلمه إدراك حقائق الأشياء وإدراك رحمة الله الذي هو على كل شيء مقتدر. تنبه الإنسان إلى حدود استطاعته ومسؤوليته في تصرفها.

ففي سورة الكهف مثلاً ارتبط اللفظ (تستطع) غير الناقص بالكمال الرباني، وبمن أحاط بكل شيء علماً، وعلم العبد الصالح أسرار المواقف التي واجهها مع موسى، وارتبط اللفظ (تسطع) الناقص بضعف المخلوق الذي لم يستطع أن يصبر على ما لم يحط به خبيراً؛ نتعلم من قصة موسى والعبد الصالح تقدير أرزاق الله لغيرنا، وتقدير ما لدى الآخرين. وفكرة الاستطاعة في السورة تبدأ بالحمد لله الذي يملك كل الاستطاعة وأنزل كتاباً لم يجعل له عوجاً، هذا الكتاب للمخلوق الذي لا يستطيع إلا بما شاء الله هو دليله في تصرف استطاعته المحدودة لكيلا يظلم بها نفسه وغيره، لأنه لا يستطيع إدراك الحق بدون هذا الهدى، وتنتهي بالتنبيه إلى خطورة الاستطاعة المحدودة لدى المخلوق: (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يشرك بعبادة ربه أحداً) وليحسن تصرف ما استأمنه الله من استطاعة.

وفي سورة يوسف عدة مفارقات أهمها مفارقة الكيد؛ كيد الإخوة وهو من نزغ الشيطان، ونتيجتها إقصاءه عن أبيه وأهله، ونتيجة انكشافها تحقق قدر الله وأمر الرؤيا وندم الإخوة، وكان إحسان يوسف وأبيه باتخاذ الشيطان عدواً وذلك بالعفو عمن وقعوا في نزغه، والعبرة لنا ألا نقع في نزغ الشيطان فيما بيننا فنحب الله في رزقه لغيرنا، ولا نكره ما خص الله به كل فرد منا بما قسمه بين خلقه بحكمة لا يعلمها إلا هو، ونمحو نزغ الشيطان بيننا بالعفو والإحسان. ومفارقة كيد النسوة؛ وهي من النفس الأمارة بالسوء، ونتيجتها السجن سنين، ونتيجة انكشافها التمكين. فنتيجة المفارقة الظلم، ونتيجة انكشافها العدل والإنصاف.

والمفارقة بين المحكم والمتشابه تكشف أن القرآن كله محكم، قال تعالى في سورة هود: ﴿الرَّكَنُ أَحْكَمُ عَلَيْهِ، ثُمَّ فَضِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ (١) وفي آل عمران: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَبَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (٧).

إن التشابه يكون في بعض التفصيل، هو متشابه بالنسبة لحدود علم المخلوق، وأشرت إلى ما يمكن أن يتشابه على من يلتبس عليه الفهم، مثل تفسير (البنان) لدى قدماء المفسرين حيث لم يدركوا دلالة الإعجاز في خصوصية البصمات في بنان كل فرد من الناس. ومما يمكن أن يقع فيه التشابه في بعض التفصيل قوله تعالى في سورة الحجر: ﴿وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِّنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرَجُونَ﴾ (١٤) لَقَالُوا إِنَّمَا سُكَّرَتْ أَبْصَرُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ﴾ (١٥).

والدلالة التفصيلية في هذه الآيات لم تدرك بإحكامها قبل اكتشاف ما يحدث خارج مجال الجاذبية الأرضية؛ من لم يدرك هذا العلم قد يقع في التشابه. الإنسان مخلوق ضعيف محدود العلم، وعليه أن يستعين بالله، لأنه لا يستطيع الإحاطة بكل شيء؛ القرآن (هدى للمتقين) كما جاء في سورة البقرة، وهو الذكر الحكيم الذي فيه من كل شيء مثل، وهو كتاب مبين، وفيه شفاء للمؤمنين، وفيه شفاء لما في الصدور، وهو النور الذي يسره الله لنا، فعلينا أن نتخذه نوراً وهدى، ونتبع محكمه، وكله محكم.

أما المتشابه الذي أشرت إليه فهو متشابه بالنسبة لعلم المخلوق الضعيف، وما كشفه العلم منه لم يعد متشابهاً، وما لم يزل في علم الله فهو تفصيل يؤمن به الراسخون في العلم ﴿يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾، ويتشابه على الذين في قلوبهم زيغ. والله بكل شيء عليم. والمحكم في الأمانة التي حملها الإنسان ﴿إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ ما أشار إليه المفسرون، ويشمل كل التكاليف الدينية... أما التفصيل؛ فمما هداني الرحمان إليه هو ما يعادل التوازن في حركة الكواكب حول الشمس، وعلى مستوى أدق: ما يعادل التوازن في تركيب الذرة؛ الإنسان منحه الله

استطاعة محدودة عليه أن يصرفها في إشباع حاجاته وتصريف طاقاته المترتبة عن هذا الإشباع، بحيث لا تضر ولا تتعارض مع حقوقه وحقوق الآخرين ومع سنة الله وأوامره؛ يكون عليه أن يقيم توازنًا يعادل التوازن في مكونات السماوات والأرض والجبال (الذرات)، قال تعالى في سورة الرحمن: ﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۖ﴾ (٧) **أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۚ** (٨) **وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۚ** (٩).

الله رفع السماء ووضع الميزان، وفي الآية التالية الخطاب للناس، ألا تطغوا في الميزان، ثم يؤكد تبارك وتعالى بقوله ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۚ﴾ إذا، كما قامت السماء بميزانٍ وضعه الله تعالى، وبأمره أيضًا، على الناس ألا يطغوا في الميزان، وهذه الآية تتسع لكل ما يقيم الميزان في حياة الناس ومعيشتهم، وأن يقيموا الوزن بالعدل، ولا يخسروا الميزان؛ ولأن الإنسان مخلوق ضعيف ولن يستطيع إحسان هذا الأمر، فإضافة إلى الصلاة والزكاة والصدقات، جعل الله الحجّ - وفيه طواف حول مركز اليابسة من الأرض حيث الكعبة المشرفة - سرًّا يعوض به ما قصر فيه، فيغفر الله له والله غفور رحيم.

ثمّة مفارقة إجمالية تقع على كثيرٍ ممّن يقرأون القرآن ويمرّون على التحذيرات الشديدة من نزغ الشيطان وخطواته وعداوته؛ حينما يغفلون عن ذلك، وكأن هذه الآيات لا تعنيهم، فيقعون في مكائد عدوهم وسيئاته، ومن ذلك التعالي وانتقاص الآخرين والتكبرُ وحبُّ العلوّ في الأرض بغير حقّ ودسّ العداوة والبغضاء بين الخلق والكذب والتضليل والقول والجدال بغير علم وكشف العورات، ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا، ولا يقولون ولا يدفعون بالتّي هي أحسن، ولا يستعينون بالله في كل وقت وحين كما يكررون في سورة الفاتحة في كل صلاة ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ (٥) ولا يستعينون بالله من همزات الشياطين ومن حضورهم كما جاء في الذكر الحكيم الذي من أعرض عنه وغفل عن حاجته لهديه وركن إلى استطاعته المحدودة يقع في مفارقات تشقيه.

القرآن يقدم تحليلًا نفسيًا دقيقًا لأسباب المفارقات، كما في إحسان الظن بالنفس في سورة النور: ﴿لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا هَذَا إِفْكٌ مُّبِينٌ﴾ (١٢). الإنسان عادةً يفهم الأشياء ويحكم عليها من خلال علمه ومعرفته وخبرته بنفسه. ولهذا، قد يغفل عن إدراك أو فهم حقيقة الآخر أو مواقفه؛ فيكون من الحكمة التبیین وإحسان الظن والعمل.

إن دراسة المفارقة في سور القرآن قد أتاحت فهمًا إضافيًا إلى كل ما سبق من دراسات، وأجدها مدخلًا علميًا يجعلنا نتفاعل مع نتائجه في حياتنا اليومية، ويجنبنا كل الإشكالات التي يمكن أن تحدث بسبب المفارقة بين الذات بعلمومها وخبراتها المحدودة وسنة الله وما نزل من الحق من عند الله.

أرجو أن يشكل هذا الجهد حافزًا للمزيد من القراءات التي قد تكشف ما لم أشر إليه، أو ما لم أدركه، أو ما لم أوفق في إيضاحه.

هوامش الفصل الثالث

(1) Griffith, Sidney. (2008). The Quran in its historical Context. Edited: Gabriel Reynolds. Routledge. London & New York. P.127.

(2) وجاء في سورة البقرة عن الرجل الذي مرَّ على قرية: ﴿أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَلْ لَبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانْظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانْظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانْظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾ هَذَا الْقُرْآنُ فِي انسجامه وتوافقه، يؤكد بعضه بعضًا.

(3) فالقرآن نصٌّ له مصادرُ وقد ذكرها بالتفصيل، ومصادره حقائق الماضي والحاضر والمستقبل، من خلال علم العليم والقول الحق والقول الفصل؛ هو الله عز وجل. فإن الله حينما يقص علينا أنباء من قد سبق إنما يقص علينا للعبرة ولدلالات جديدة متجددة مرتبطة بمصالح الناس اليومية وليس للترفيه. فحينما ندرس السياق التاريخي يكون لزامًا علينا مقارنته بالدلالة الجديدة التي جاء بسببها.

(4) الجابري، محمد عابد. (2009). فهم القرآن الحكيم... (ط2). بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ص216.

(5) الجابري، محمد عابد. (2007). مدخل إلى القرآن الكريم - الجزء الأول في التعريف بالقرآن، بيروت - مركز دراسات الوحدة العربية (ط2).

(6) الجابري. المرجع السابق، ص216.

(7) يكشف سياق السورة أنَّ من دلالة التعريف بموسى وإخفاء العبد الصالح، أنَّ نحسب حساب ما قد يكون غير ظاهر من صفاتٍ في غيرنا من خلق الله في تعاملاتنا اليومية؛ فنحن نعرف أنفسنا نسبيًّا وقد لا نعرف غيرنا، أو قد يخفى علينا بعض صفات غيرنا. ومن دلالات هذا التعريف والإخفاء أنَّ الناس يحتاج بعضهم إلى بعض، فلا ينبغي لأحد أن يتكبر أو يفضل نفسه على الآخر، فإذا أكرمهم الله بميزة فليحمد الله عليها، كما أكرم موسى بالنبوة وكلمه تكليمًا، وليعلم مَنْ أكرمهُ بكرامةٍ أو رزقٍ أنه قد يكرم ويرزق آخر بما ليس لديه، كما أكرم العبد الصالح. فالكل مُسَخَّرٌ بعضه لبعض...، وفي هذا كشفٌ لطبيعة الإنسان؛ فمن يملك مميزات معينة قد تغيب عنه أخرى، حتى لو كان نبيًّا، كما هو واضح في هذه القصة.

ومن الدلالات المهمة في إخفاء العبد الصالح، الابتعاد عن خطيئة إبليس: ﴿...أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقَنِي مِنْ نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ (سورة الأعراف: 12). فليس العبد الصالح خيراً من موسى وليس موسى خيراً من العبد الصالح، فهي أرزاق الله قسمها بين خلقه، وزاد البعض من فضله، فلا ينبغي لأحد أن يتكبر على أحد، وعلى الناس احترام أرزاق الله في خلقه، وهو ما تجلّى في سلوك موسى عليه السلام.

وعلى مستوى آخر، فإن للإنسان حسناته وسيئاته، ولكن القياس يكون بغلبة صفات على أخرى، فكلما زادت الصفات الغالبة وضح المقياس، مع الأخذ بعين الاعتبار التواصل بالحق والتواصي بالصبر: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (سورة العصر: 3) والتناهي عن المنكر. لهذا كان خبر لعن من لا يتناهون عن المنكر في سورة المائدة: ﴿لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ بَنِي إِسْرَءِيلَ عَلَى لِسَانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٧٨﴾ كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٧٩﴾﴾. وفي التناهي عن المنكرات والتواصي بالحق والصبر، ما يساعد على زيادة الصفات الحسنة بين الناس وتحقيق الخير.

(8) (8) أما إذا كانت الذات قد خالطها مرض فهذا شأن آخر. فالقرآن يعالج أمراض القلوب وأخطاء الذات في علاقتها بالحقبة وعلاقتها بالآخر في أكثر من سورة، مثلاً قال تعالى في سورة الحجرات: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِنْ نِسَاءٍ عَسَىٰ أَنْ يَكُنَّ خَيْرًا مِنْهُنَّ وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الْأَلْمَمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾. تأملوا ﴿وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾، وما أكثر ما تفشى هذا المرض بين الناس! المفارقة أن تسخر ممن هو خير منك، فقد يسخر أخٌ من أخيه، أو صاحبٌ من صاحبه وهو خير منه. وقد يسخر غنيٌّ من فقير هو خير منه. وقد يسخر مسؤولٌ متسلطٌ من صاحب حاجة أو حق هو خير منه وأحق بمكانه.

وآية السخرية، في سورة الحجرات، كغيرها من الآيات، قد تحمل عدة دلالات منها ما أشار إليه المفسرون... ومنها ما لم يزل في علم الله. ولكن ما يخص سياق هذه الدراسة ما نلمسه من مفارقة الذات في علاقتها بالآخر، وهنا سواء كانت السخرية من الآخر بسبب مرض الكبر والغرور أم كانت بسبب سوء تقدير قيمة الآخر بسبب الجهل أو وسوسة الشيطان ومن يتبع خطاه في زرع الضغائن والأحقاد وإثارة أسباب الفرقة والصراعات داخل الأسرة الواحدة أو الأسر المختلفة أو داخل المجتمع الواحد أو المجتمعات المتعددة. ومحاربته

تكون بالمحبة والتسامح والود وأن تحب للآخر ما تحبه لنفسك، فأنت قد تكون مسلمًا ولكن لا تكون مؤمنًا إلا إذا أحببت لأخيك ما تحبه لنفسك.

(9) لهذا يكون الأهم أن نرد الأمر كله لله ونحتكم للذكر الحكيم الذي من أعرض عنه ﴿فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ والذي قال فيه تعالى في سورة الكهف: ﴿...وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾. ونستعين بالله في كل حال، وعلى كل حال، كما تذكروا سورة الفاتحة في كل صلاة عدة مرات ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ولا نغتر بما منحنا الله من استطاعة محدودة وإرادة محدودة هي محل اختبار، نسأل الله ألا نظلم بها أنفسنا وغيرنا.

(10) ومن دلالات نهاية هذه القصة أن على من يتعلم أن يصبر على قلة علمه. ومن واجب من يُعلم أن يبين أسباب الأمور التي يصبر عليها المتعلم. كما وضع العبد الصالح لموسى أسباب مواقفه التعليمية. ومن دلالات (موسى والعبد الصالح) أن موسى كان عليه أن يسافر لكي يضيف إلى علمه معرفة جديدة؛ هذه المعرفة تركزت في المواقف التي تكشف حدود الاستطاعة عند المخلوق، وأن الله قد يخص غيرنا بما لم يخصنا به، فقد يكون لدى غيرنا من العلم والمعرفة أو الخبرات ما ليس لدينا. فنحن في حياتنا اليومية علينا أن نتحرى ما لدى غيرنا من خبرات ومعارف، وندرّب أنفسنا على محبة غيرنا، على محبة الله في رزقه لغيرنا لكيلا نظلم أنفسنا وغيرنا.

الذاكرة، والتفكير، والخيال من العمليات العقلية، ومن الدلالات المهمة في قصة موسى والعبد الصالح ما يتعلق بترويض العمليات العقلية كلها على التركيز والتفكير، بدلاً من تشغيل الذاكرة وحدها والخبرات السابقة. ولعل كثيراً من المشاكل التي تحدث بين الناس هي بسبب تشغيل الذاكرة والخبرات السابقة بدلاً من التفكير بخصوصية كل موقف، وإدراك حدود الاستطاعة عند المخلوق، وتقدير ما لدى الآخرين من خلق الله، وياحترام أرزاق الله وأقداره بين الناس، كما في هذه القصة. والله يبين خطورة عدم تشغيل العمليات العقلية كلها ومنها التفكير بأكثر من شكل، مثل قوله تعالى في سورة الأنفال: ﴿إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ﴾. كما أن القرآن عموماً قد عالج مشكلة أخرى تتعلق بترويض الذهن على خصوصية الإدراكات السياقية وعلى تشغيل التفكير والخيال مع الذاكرة في موضوع واحد خلاصته الخشوع، ويدرك ذلك بشكل دقيق من يحفظ القرآن، وذلك من خلال التشابهات والمثاني؛ فمثلاً في سورة المزمل: ﴿إِنَّ هَذِهِ نَذِيرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا﴾. ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلَاثِ إِلِيلٍ وَنِصْفَهُ، وَلَئِنَّهُ طَافِقَةٌ

مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يَقْدَرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ عَلِمَ أَنْ لَنْ تُخْصَوْهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ عَلِمَ أَنْ سَيَكُونُ مِنْكُمْ مَرْضَىٰ وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الْأَرْضِ يَلْتَمِعُونَ مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَآخَرُونَ يَقْتُلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَاقرءوا مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاقْرَءُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا نُفِذُوا لَأَنفُسِكُمْ مِن خَيْرٍ نَحْدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ وَأَعْظَمَ أَجْرًا وَاسْتَغْفِرُوا لِلَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٢٠﴾، وفي سورة الإنسان: ﴿إِنَّ هَذِهِ نَذِيرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ سَبِيلًا ﴿٢١﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٢٢﴾﴾، ومثل قوله تعالى ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ في الآية (48) من سورة يونس، والآية (38) من سورة الأنبياء، والآية (71) من سورة النمل، والآية (29) من سورة سبأ، والآية (48) من سورة يس، والآية (25) من سورة الملك.

وقراءة هذه الآية بالآلية الذاكرة وحدها دون تركيز في التفكير أو بانحراف الخيال إلى موضوع مختلف، قد يجعل الذاكرة تردد ما يليها من سورة أخرى، فلا يتحقق الخشوع. وعلى مستوى آخر مثل قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿٦﴾ حَتَّمَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَعَلَىٰ سَمْعِهِمْ وَعَلَىٰ أَبْصَارِهِمْ غِشْوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٧﴾﴾ وقوله في سورة يس: ﴿وَسَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠﴾ إِنَّمَا تُنذِرُ مَنِ اتَّبَعَ الذِّكْرَ وَخَشِيَ الرَّحْمَنَ الْغَيْبِ فَبَشِّرْهُ بِمَغْفِرَةٍ وَأَجْرٍ كَرِيمٍ ﴿١١﴾﴾. فالمثنائي والتشابهات تروض العمليات العقلية على خصوصية الإدراكات السياقية وتشغيل التفكير والخيال بجانب الذاكرة.

(11) فالحياة الدنيا ما هي إلا فترة اختبار: اختبار للأمانة التي حملها الإنسان وتحمل مسؤولية أدائها في تصريف استطاعته المحدودة، على نفسه وعلى غيره، لإقامة ميزان الحياة. ويتضح كشف هذه المفارقة بدقة في قوله تعالى في سورة يونس: ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنزِلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَيَّتْ وَطَرَ أَهْلِهَا أَنَّهُمْ قَدِירוْنَ عَلَيْهَا أَنهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَّمْ تَغْنَبْ بِالْأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿١٤﴾﴾.

(12) ملاحظة: في قوله تعالى في سورة يوسف ﴿قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٩٨﴾﴾ قال بعض المفسرين أنه أجل الاستغفار إلى وقت السحر، ومنهم من قال أنه أجله إلى يوم الجمعة، لكي يتحرى ساعة الاستجابة. والتوقف عند هذه الدلالة فقط يغيب

ما هو أهم وما هو واضح في هذا الموقف أن الأب بعد أن صبر صبراً جميلاً (بلا شكوى) قد صفح صفحاً جميلاً (بلا لوم ولا عتاب) فقال: (سوف أستغفر لكم ربي) لأنه لا يغفر الذنوب إلا الله، وموقف الأب هو من الإحسان الذي يدرك أن نزغ الشيطان هدفه الوقيعة والخصام والعداوة والبغضاء، فكان موقف الأب أن اتخذ الشيطان عدواً، ولم يخاصم ويعاقب أبناءه، لأن ذلك سيزيد أنفسهم بغضاً، وبقوله هذا أرجع الأمر لله الذي له الأمر من قبل ومن بعد، فهو الذي خص يوسف بما خصه، ولم تمنع المكائد أمر الله الذي لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، والله خير الحاكمين. إذا العبرة لنا من هذا الموقف أن تكون أقوالنا وأفعالنا كما أمرنا الرحمان لا كما يأمر الشيطان، وذلك بالتسامح وبما يقيم الألفة والمحبة والتكامل بين الناس، وليس بالثأر والانتقام، مثلما كان موقف يوسف وأبيه.

(13) الصابوني، محمد علي. (1981). صفوة التفاسير، (م2). دار القرآن الكريم. بيروت، ص39.

(14) وردت أقوال كثيرة في تفسير (إن يسرق) ومهما يكن أصلها فهي تكشف نفسية الإخوة وسوء تقديرهم.

(15) مع ملاحظة أن قوله تعالى ﴿وَأَعْلَمُ مِنْ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ له سياقه، والدلالة السياقية في القرآن مهمة جداً، لكن كما هو واضح، فهذا العلم قد تجلّى من خلال تحذير الأب من ذكر أمر الرؤيا، إضافة إلى ما أكدّه قوله ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْراً﴾ فهو علم موصول بأكثر من سياق.

(16) لأن يوسف يدرك أن غل إخوته من نزغ الشيطان، قال تعالى: ﴿... مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي...﴾، لهذا سجد أن يوسف لم يعاتب إخوته حينما كشفت لهم مفارقة العزيز وأن هذا العزيز ما هو إلا يوسف الذي كادوا له كيداً، وإنما قال: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾، وكذلك الأب لم يقتص من أبنائه: ﴿قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ﴾ (٩٧) قَالَ سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّي إِنَّهُ هُوَ الْعَفُورُ الرَّحِيمُ (٩٨) (سورة يوسف).

المحسنون يصلون إلى مراتب الصفح والعفو لكي يغفر الله لهم، ولأن ذلك من عزم الأمور. وفي سورة الحجر يقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ (٨٥) يَوْمَ ﴿يُودُ الْمُجْرِمُ لَوْ يَقْتَدِي مِنْ عَذَابِ يَوْمِئِذٍ بِنَبِيِّهِ﴾ (١١) وَصَحْبِهِ، وَأَخِيهِ (١٢) وَفَصِيلَتِهِ الَّتِي تُتَوَبِعُهُ (١٣) وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ يُنْجِيهِ (١٤)

(سورة المعارج). أليس الصفح عن الناس في الدنيا والتعفف عن حقوقهم والابتعاد عن خطوات الشيطان هو الهدى الذي ينجي من الفزع، يوم الفزع الأكبر، يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

(17) مثلاً ليس من شأن الإنسان أن يعرف كيف استوى الرحمان على العرش، بل أن يعرف ما يضره وما ينفعه في دنياه وآخرته. ويستعين بالله في كل حال وعلى كل حال. الراسخون في العلم يحسنون الظن بالله. والذين في قلوبهم زيغ حسابهم على الله. والحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً. الإنسان مخلوق ضعيف محدود العلم، وعليه أن يستعين بالله؛ لأنه لا يستطيع الإحاطة بكل شيء، لهذا فإن القرآن هو هدى ورحمة، وهو الذكر الحكيم الذي فيه من كل شيء مثل، وهو كتاب مبين، وفيه شفاء للمؤمنين، لما في الصدور، فهو النور الذي يسره الله لنا، فعلينا أن نتخذه نوراً وهدى، ونتبع حكمه، وكله محكم، أما المتشابه فهو متشابه بالنسبة لعلم المخلوق الضعيف، وما كشفه العلم منه لم يعد متشابهاً، وما لم يزل في علم الله فهو في بعض التفصيل يؤمن به الراسخون في العلم، ويتشابه على الذين في قلوبهم زيغ. والله أعلم بالمهتدين. والله أعلم بالظالمين.

(18) مخلوف، حسين محمد. (1997). كلمات القرآن: تفسير وبيان. دار ابن حزم، بيروت، ص 321 وص 150. ومع هذا ليس من السهل تحديد تفصيل صفة السجود هنا، لكن الأمانة التي أبت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها تتجسد في إقامة التوازن في حياة الإنسان، الطاقة لديه تتكون من خلال إشباع حاجات تتولد عنها طاقات، في عملية مركبة متصلة، وهذه العملية يجب أن تتم بحيث لا تتعارض مع سنة الله؛ أن يشبع الإنسان حاجاته بالحلال لا الحرام، وأن يفرغ طاقته بالحلال لا الحرام. بتعبير آخر: أن يشبع حاجاته بما لا يتعارض مع حقوقه وحقوق الآخرين في محيطه، وبما لا يتعارض مع القيم الدينية وهدى الله، وكذلك يكون في تصريف طاقته. قال تعالى في سورة الرحمن: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ ۝٤ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ مَحْسَبَانِ ۝٥ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدَانِ ۝٦ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ ۝٧ أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ ۝٨ وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ ۝٩﴾.

الله رفع السماء ووضع الميزان، وخاطب الناس: ﴿أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ﴾ ثم يؤكد تبارك وتعالى بقوله ﴿وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا الْمِيزَانَ﴾. إذا كما قامت السماء بميزان وضعه الله تعالى وبأمر الله أيضاً، على الناس ألا يطفوا في الميزان، وهذه الآية

تتسع لكل ما يقيم الميزان في حياة الناس ومعيشتهم، وأن يقيموا الوزن بالعدل، ولا يخسروا الميزان.

(19) ومن النتائج المهمة في سورة الكهف الوحدة الموضوعية المحكمة من أول آية إلى آخر آية، وتجلت بأكثر من مستوى: المستوى الأول كان من خلال المفارقة بأشكالها المتعددة، إضافة إلى مستوى آخر من الوحدة الموضوعية من خلال فكرة الاستطاعة؛ حيث تبدأ السورة بالحمد لله الذي أكرم الإنسان الذي لا يستطيع وجعل له الاستعانة به، وباستطاعته الكاملة وبرحمته أنزل كتاباً لم يجعل له عوجاً، قيماً ليكون هدًى ورحمة للمؤمنين.

الاستطاعة في قدرة الله على كل شيء، وأن الله ليس كمثله شيء، ولم يستطع الذين قالوا (اتخذ الله ولداً) إدراك هذا، فقاوسوا على أنفسهم وقالوا هذا القول! كما لم يستطع أصحاب الكهف إدراك فترة لبثهم وقالوا (لبثنا يوماً أو بعض يوم). وفي قصة الرجلين، أحدهما امتلك جنتين وبعض ما يزين الدنيا، ولكنه لم يستطع إدراك ضعفه وحدود قدرته، وكانت استطاعته فيما هو زائل وما أصبح هشيماً تذروه الرياح، والآخر كان لا يملك من زينة الدنيا مثلما يملكه صاحبه، ولكن استطاعته كانت في إيمانه بالله الحكيم العليم الذي يقدر على كل شيء.

وفي قصة موسى والعبد الصالح أجد موسى -على ما خصه الله به من فضل- لم يملك الاستطاعة على ما لم يحط به خبراً...، فإن ما يخص حياتنا اليومية أن نحسب حساب قدرة الله في رزقه لغيرنا من خلقه؛ فكما قدر موسى رزق الله للعبد الصالح، علينا أن نقدر الآخرين ولا نجعل علمنا وخبرتنا هي المقياس الوحيد في سلوكياتنا اليومية. العبد الصالح حينما قال لموسى (سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً) كان اللفظ (تستطع) غير الناقص مرتبطاً بالكمال الرباني، مرتبطاً بالتأويل الذي لم يدركه موسى، مرتبطاً بمن يملك الاستطاعة، وأمر العبد الصالح بأفعال لها خصوصيتها وظروفها التي تحتاج إلى علم العليم.

الملاحظ أنه بعد أن أخبر العبد الصالح موسى بتأويل الأحداث، ختم بتأكيد آخر مع فارق اللفظ (تسطع): ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾، وهذا التأكيد تكمن أهميته في فارق اللفظ (تسطع) الناقص، وهو مرتبط بضعف الإنسان ومحدودية استطاعته في العلم والإدراك، وفي تصريف إرادته المحدودة، كما لم يستطع موسى أن يصبر على ما لم يحط به خبراً. فإذا كان ما وقع فيه موسى هو التساؤل على ما رآه (إمراً) و(نكراً)، فكيف بمن يتهورون ويتخذون المواقف الظالمة على الآخرين دون تساؤل واستيضاح، ودون

تَبَيَّنَ وتَبَصَّرَ نتائجها في سلوكياتهم اليومية وفي قراراتهم التي ترتبط بأرزاق الناس ومصالحهم.

وفي قصة ذي القرنين أجد الاستطاعة فيمن آتاه الله من كل شيء سبباً فأتبع سبباً، لهذا كانت استطاعته على من أساء استخدام استطاعته المحدودة وظلم بها غيره ونفسه عذاباً، وكانت على من أحسن حمل الأمانة وعمل صالحاً الحسنى، والقول يسراً. وبين السدين أجد الذين لا يكادون يفقهون قولاً لم يملكو الاستطاعة في دفع فساد الذين امتلكوها على الفساد، وفوق استطاعتهم كانت استطاعة الله في رزقه لذي القرنين لتكون استطاعته أن يجعل بينهم سداً (فما استطاعوا أن يظهره وما استطاعوا له نقباً) ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وفي كل صلاة نكرر سورة الفاتحة وفيها قول الرحمان: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾. فالله وحده الذي يملك الاستطاعة في كل شيء، والإنسان مخلوق ضعيف يحتاج إلى عون الله في كل حال، وعلى كل حال: ﴿أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾. والحمد لله على رحمته التي وسعت كل شيء. واللفظ (تسطع) خاص بالإنسان العجول الذي لا يملك إلا استطاعة محدودة منحه الله إياها لكي يختبر أمانته في تصريفها، أيشكر أم يبغى ويظلم بها نفسه وغيره ويكفر. مع الأخذ بعين الاعتبار أن الأمانة -إضافةً إلى ما تشمله من التكاليف الدينية- تشمل كل ما يقيم التوازن في إشباع الحاجات وتصريف الطاقات، بما لا يتعارض مع حقوق وواجبات الذات وحقوق الآخرين، وبما لا يتعارض مع سنة الله وتشريعاته. والأمانة توازي التوازن في تكوين الذرات التي تكون السماوات والأرض والجبال.

المراجع

- إبراهيم، نبيلة. (1987). *المفارقة: مجلة فصول*. مجلة الفصول، 7(4،3).
- أرسطو طاليس. (1973). *فن الشعر*. ترجمة: عبد الرحمن بدوي. دار الثقافة.
- الجابري، محمد عابد. (2009). *فهم القرآن الحكيم* ... (ط. 2). مركز دراسات الوحدة العربية.
- الجابري، محمد عابد. (2007). *مدخل إلى القرآن الكريم*، (ج. 1) في التعريف بالقرآن. مركز دراسات الوحدة العربية (ط. 2).
- الصابوني، محمد علي. (1981). *صفوة التفسير*. (م. 2). دار القرآن الكريم.
- العبد، محمد. (2006). *المفارقة القرآنية: دراسة في بنية الدلالة*. (ط. 2). مكتبة الآداب.
- بروكر، بيتر. (1995) *الحداثة وما بعد الحداثة*. ترجمة: د. عبد الوهاب علوب. مراجعة: د. جابر عصفور. المجمع الثقافي.
- تشاندر، دانيال. (2002). *معجم المصطلحات الأساسية في علم العلامات*. ترجمة: د. شاكر عبد الحميد، أكاديمية الفنون.
- مارشال، جي، كوك، وآخرون. (2007). *تقنيات الكتابة في فن القصة والرواية*. (ط. 2). ترجمة: رعد عبد الجليل رعد. دار الحوار.
- مجمع اللغة العربية. (1983). *المعجم الفلسفي*. الهيئة العامة للمطابع الأميرية.
- حبيبي، إميل. (1988). *الوقائع الغربية في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل*. روايات الهلال. دار الهلال.
- رشيد، أمينة. (1993). *المفارقة الروائية والزمن التاريخي*. مجلة فصول. العدد الرابع. الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- صليبي، كمال. (1982). *المعجم الفلسفي*. (ج. 2). دار الكتاب اللبناني.
- كوتزي. (2000). *في انتظار البرابرة*. ترجمة: ابتسام عبد الله. المجلس الأعلى للثقافة.
- كويلو، بولو. (1996). *ساحر الصحراء*. العدد (571). ترجمة: بهاء طاهر. روايات الهلال.
- عبد الجليل، حسن. (2009). *المفارقة في شعر عدي بن زيد: الموقف والأداة*. دار الوفاء.
- الماضي، شكري عزيز. (2008). *أنماط الرواية العربية الجديدة*. عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
- مجمع اللغة العربية بالقاهرة. (1983). *المعجم الفلسفي*، الهيئة العامة للمطابع الأميرية.
- مخلوف، حسين. (1997). *كلمات القرآن: تفسير وبيان*. دار ابن حزم.
- ميويك، د. سي. (1988). *المفارقة وصفاتها*. ترجمة: د. عبد الواحد لؤلؤة. دار المأمون.
- وهبة، مراد. (2007). *المعجم الفلسفي*. دار قباء.

وعزيز، الطاهر. (1990). *المناهج الفلسفية*. المركز الثقافي العربي.

يلنيك، الفريدة. (2005). *عازفة البيانو*. ترجمة: سمير جريس. دار ميريت.

Adams, Henry. (1988). *Democracy, an American Novel*. Henry Holt & Co. Publisher. .

Attardo, S. (2010). *Concise Encyclopedia of philosophy and linguistics*. (Group of Editors). Elsevier.

Abrams, M. H. (2009). *A Glossary, of Literary terms*. (9th Ed.) Michael Rosenberg. Boston.

Baldick, Chris. (2001). *Oxford Concise Dictionary of Literary terms*. (3th. Ed.).

Brown, Keith. (2005). *Encyclopedia of Language and Linguistics*. Elsevier.

Blakemore, Diane. (2002). *Relevance and Linguistic Meaning*. Cambridge University Press.

Boghiana, Ioana. (2010). *the Game of irony in Charles Dickens's novels*. University of Bacău.

Casson, Allan. (2001). *English Literature and Composition*. Wiley Indianapolis composition Services (2nd. Ed.).

Castle, Gregory. (2007). *The Blackwell Guide to Literary theory*. Blackwell Publishing.

Cruse, Alan. (2006). *A Glossary of Semantics and Pragmatics by*. Edinburgh University Press.

Colebrook, Claire. (2003). *Irony*. Routledge. London & New York.

Cuddon, J. A. (19;99). *The Penguin Dictionary of literary terms and literary theory*. (6th Ed.). Penguin. London.

Eagleton, Terry. (2012). *The event of literature*. Yale University Press.

Eco, Umberto. (1988). *Entre Mentira E Ironia*. Lumen.

García, Iván. (2009). *Key Ideas in Linguistics and the Philosophy of Language*. (2nd. Ed.) Edit: Siobhan Chapman & Christopher Routledge. Edinburgh University.

Griffith, Sidney. (2008). *The Quran in its historical Context*. Edited: Gabriel Reynolds. Routledge.

Gauker. Christopher. (2003). *Words without Meaning*. A Bradford Book.

Habib, M. A. R. (2005). *A history of literary criticism*. Blackwell.

Hendrickson, Robert. (2008). *Word and Phrase Origins*. (4th. Ed.) Facts on File.

Hutcheon, Linda. (1994). *Irony's Edge*. Routledge. Routledge. London. 1994.

- Joana, Garmendia. (2018). *Irony - Key Topics in Semantics and Pragmatics*. Cambridge University Press.
- Lawson, Andrew. (2009). *the modern American novel*. Edit: John Matthews. Wiley Blackwell.
- Lodge, David. (1992). *the art of fiction*. Viking Penguin.
- Matsumoto, David. (2009). *the Cambridge Dictionary Psychology*. Cambridge University Press.
- Nelson, Philip. (2010). *Irony's Devices: Modes of Irony from Voltaire to Camus*. The [Unpublished doctoral dissertation] Ohio State University.
- Nunist, Rene. (2009). *the ancient critic at work*. New York. Cambridge University. Cambridge University Press.
- Peter Childs, & Roger Fowler. (2006). *the Routledge Dictionary of Literary Terms*. (3rd. Ed.), Routledge.
- Philipps, Simon. (2005). *Irony in Charles Dickens' Oliver Twist*.
- Rorty, Richard, Contingency. (1995). *Irony. and Solidarity*. Cambridge University Press.
- Kreuz, Roger. (2020). *Irony and Sarcasm*. The MIT Press.
- Steiner, John. (2020). *Illusion, Disillusion, and Irony in Psychoanalysis*. Routledge.
- Sharpe, Robert Boies. (1975). *Irony in the Drama*. Greenwood Press.
- Swearingen, C. Jan. (1991). *Rhetoric and irony*. Oxford University.
- Welsensee, Theresa. (2009). *The Use of Irony in Jane Austen's 'Pride and Prejudice*. Justus-Liebig-University Giessen.

ملحق (1)

الوحدة الموضوعية في سورة الكهف

تمهيد: أولاً من المهم التذكير أن المفارقة مدخل لدراسة السورة يكشف وحدة موضوعية للمفارقة التي يقع فيها الإنسان، بين علمه وخبرته والحقائق والمعارف التي تتجاوز علمه وخبرته. لكن أيضاً هناك مستوى آخر للوحدة الموضوعية في السورة، أكثر دقة وتفصيلاً؛ لقد كان مفتاحاً مهماً يكشف بعض تلك العلاقة؛ في قصة موسى والعبد الصالح وقصة ذي القرنين، هذا المفتاح هو اللفظ اللغوي، تستطع وتستطع؛ فسورة الكهف تكشف حدود استطاعة المخلوق، وعدم استطاعته تجاوز حدوده؛ في قصة أصحاب الكهف، لم يستطيعوا معرفة كم لبثوا لأن لبثهم كان حالة استثنائية بالنسبة لعلمهم وحدود خبرتهم. وفي قصة الرجلين، الاستطاعة مركبة تركيباً دقيقاً؛ الرجلان أحدهما له جنتان، ولكن استطاعته محصورة فيما هو زائل وما يمكن أن يذهب به الله، والآخر لا يملك من زائل الدنيا مثلما يملك صاحبه، ولكن استطاعته هي في طاعته لله الذي له الأمر من قبل ومن بعد، وله كل الاستطاعة.

وفي قصة موسى والعبد الصالح، رغم ما أوتي موسى من نبوة وفضل، لم يملك الاستطاعة على ما لم يحط به خبراً، وكانت الاستطاعة في عبد صالح خصه الله برزق لم يخص به موسى، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ (١٧)، وهذه ترتبط بإشكالات يومية قد نقع فيها ونرتكب أخطاء، بسبب تلك الفجوة. اللفظ (تَسْطِيعُ) ارتبط بالإنسان العجول الذي لا يملك إلا استطاعة محدودة منحه الله إياها لكي يختبر أمانته في تصريفها، أيشكر أم يبغى ويظلم بها نفسه وغيره ويكفر. مع الأخذ بعين الاعتبار أن الأمانة تشمل كل ما يقيم التوازن في إشباع الحاجات وتصريف الطاقات بما لا يتعارض مع حقوق وواجبات الذات وحقوق الآخرين، وبما لا يتعارض مع سنة الله وتشريعاته. والأمانة توازي التوازن في تكوين الذرات التي تكوّن السماوات والأرض والجبال، كما أشارت سورتا النحل والحج.

العبد الصالح قال لموسى (سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً): اللفظ (تَسْطِيعُ) غير الناقص مرتبط بالكمال الرباني وبالتأويل الذي لم يدركه موسى؛

مرتبط بمن يملك الاستطاعة، وأمر العبد الصالح بأفعال لها خصوصيتها وظروفها التي تحتاج إلى علم العليم. وبعد أن أخبر العبد الصالح موسى بتأويل الأحداث، ختم بتأكيد آخر مع فارق اللفظ (تسطع): ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾، وهذا التأكيد تكمن أهميته في فارق اللفظ (تسطع) المرتبط بضعف الإنسان ومحدودية استطاعته في العلم والإدراك، كما لم يستطع موسى أن يصبر على ما لم يحط به خبراً. فإذا كان ما وقع فيه موسى هو التساؤل على ما رآه (إمراً) و(نكراً) فكيف بمن يتهورون ويتخذون المواقف تجاه الآخرين دون تساؤل واستيضاح وتبيين وتبصر لنتائجها في سلوكياتهم اليومية وفي قراراتهم التي ترتبط بأرزاق الناس ومصالحهم؛ وهؤلاء ممن يسيئون تصريف ما استأنمهم الله من استطاعات، والله على كل شيء قدير.

وأما في قصة ذي القرنين فالاستطاعة كانت فيمن رزقه الله إياها وآتاه من كل شيء سبباً فأتبع سبباً، لكن هناك من الخلق من يسخر استطاعته في فعل غير الخير فيقع في المظالم، لهذا كانت استطاعة الله في أن جعل في قوة ذي القرنين عذاباً لهم في الدنيا ثم يردون إلى ربهم فيعذبهم عذاباً نكراً. وقد أحاط الله بما لديه خبراً. وهناك من لم يستطيعوا الدفاع عن أنفسهم من المفسدين في الأرض (يأجوج ومأجوج) الذين ملكوا الاستطاعة في قهر غيرهم، ولكن قدرة الله في رزقه ذا القرنين قد جعلت بينهم سداً، فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً. وقد جاءت (وما استطاعوا) لتكشف أن استطاعة المخلوق مهما بلغت فهي محدودة.

الاستطاعة: الحق أن الاستطاعة لله وحده، وباستطاعته أقام موازين الكون والحياة. وإقامة الميزان هو الخير والسلام والعدل. والمخلوق لا يملك إلا استطاعة محدودة ناقصة كما بينها الله في اللفظ (تسطع) الناقص، وهي محل اختبار له، وقد قدر آدم هذا الحق وفهمه، واختار حمل الأمانة التي بها يتحقق الخير، إنه كان ظلوماً جهولاً، فرحمه الرحمان وأنزل له هدى ونوراً: ﴿قُلْنَا أَهْطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (سورة البقرة: 38). أما إبليس فقد ادعى لنفسه الاستطاعة على الفهم حينما عصى أمر الله ولم يسجد لآدم، ولم يستطع أن يدرك أن الله بكل شيء عليم، وأصر على ذلك، وادعى الاستطاعة على إغواء

بني آدم، وبهذا اختار الشر، فكان هو ومن تبعه من أصحاب النار، قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (٣١). الخير من الله. والشر من المخلوق الذي أساء تسخير استطاعته في الاختيار؛ قال تعالى في سورة الروم: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (٤١) وفي سورة البقرة: ﴿... وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ (٥٥).

فكرة الاستطاعة التي تحكم الوحدة الموضوعية في السورة، تنطبق على آياتها، من أول آية إلى آخر آية. السورة تبدأ بحمد الذي له كل الاستطاعة، وهو الله الذي خلق الإنسان وأكرمه، وأنزل له كتاباً لم يجعل له عوجاً، قيماً؛ هذا الكتاب قال فيه العليم الحكيم: ﴿فِيمَا يَنْذِرُ بَأْسًا شَدِيدًا﴾، ممن يملك الاستطاعة. ﴿وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا﴾ (٢) مَكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا ﴿٣﴾؛ المؤمنون الذين أحسنوا تصريف استطاعتهم فيما رزقهم الله من قدرات. وقال تعالى: ﴿وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا﴾ (٤). ولأن هناك من أنزل الله عليهم رسالات، فحرفوها، ومنهم الذين قالوا اتخذ الله ولداً، وهؤلاء لم يستطيعوا أن يدركوا أن الله ليس كمثل شيء، ففاسوا على أنفسهم، وعلى حدود خبرتهم وعلمهم بأنفسهم؛ لكن غاب عنهم ما يقع خارج ذلك. والسورة يجمعها التأكيد على مشكلة المخلوق الذي يحصر الحقائق على معرفته وعلمه في الوقت الذي يتكشف له باستمرار ضعفه وحدوده كما تكشف لموسى في قصته مع العبد الصالح. والرسول كاد أن يهلك نفسه حزناً عليهم؛ لأنه لم يستطع أن يثنيهم عن كفرهم وضلالهم.

الله جل وعلا يكشف أن كل ما على الأرض سيعير إلى زوال، وأن الجميع في حالة اختبار، من يستطيع ومن يعجز؛ المؤمن الذي يستعين بالله في إحسان تصريف ما استأمنه الله به هو الفائز. والكافر الذي يتمسك بوهم استطاعته وعلمه وزائل الدنيا هو الخاسر. قال تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (٧) إذا، الإنسان بما وصل إليه من علم وامتلاك لبعض ما على الدنيا، لن يستطيع أن يمنع تحولها إلى خراب وإلى ما كشفه الله من نهاية لها، قال تعالى:

﴿وَإِنَّا لَجَاعِلُونَ مَا عَلَيْهَا صَعِيدًا جُرُزًا﴾ (٨)، فهذه الآية تنبه الإنسان من الوقوع في مفارقة فهم، لبقاء ما على الأرض مما وصل إليه من إعمار دون أن يجعلها الله صعيداً جرزاً.

ثم يبدأ التفصيل لحدود علم وخبرة وعقل الإنسان، قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا﴾ (٩). الله يُعَلِّمُ النَّبِيَّ وَالْمُؤْمِنِينَ أَنَّ مِنْ آيَاتِهِ مَا هُوَ أَعْجَبُ مِنْ قِصَّةِ أَصْحَابِ الْكَهْفِ، عَلَى مَا فِيهَا مِنْ عَجَبِ الْإِعْجَازِ وَأَصْحَابِ الْكَهْفِ لَمْ يَسْتَطِيعُوا أَنْ يَعْرِفُوا كَمْ لَبِثُوا، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَدْرِكُوا أَسْرَارَ الْإِعْجَازِ الَّذِي حَفِظَ أَجْسَامَهُمْ مِنَ التَّحْلِيلِ، وَأَسْرَارِ إِعْجَازِ الضَّرْبِ عَلَى آذَانِهِمْ؛ حَتَّى لَا يَسْمَعُوا مَا يَتَسَبَّبُ فِي إِقْبَاطِهِمْ، وَرَبَطَ عَلَى قُلُوبِهِمْ، وَمَا لَمْ نَحِطْ بِهِ عِلْمًا فِي سِرِّ بَقَائِهِمْ. كُلُّ تِلْكَ الْمُدَّةِ دُونَ طَعَامٍ وَشَرَابٍ، وَدُونَ أَنْ تَتَغَيَّرَ أَشْكَالُهُمْ؛ لِهَذَا لَمْ يَعْرِفُوا كَمْ لَبِثُوا. قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا نَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا﴾ (١٢) إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَى أَنْ يَهْدِيَنِي رَّبِّي لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشْدًا﴾ (٢٤). لَكِي يَدْرِكَ الْإِنْسَانُ عَدَمَ اسْتَطَاعَتِهِ التَّحَكُّمَ بِأَقْدَارِ اللَّهِ، وَعَجْزَهُ فِي إِدْرَاكِ الْغَيْبِ، كَانَ عَلَى الْإِنْسَانِ الْمُؤْمِنِ أَنْ يَرْبِطَ كُلَّ قَوْلٍ يَتَعَلَّقُ بِمَا سَيَفْعَلُهُ مُسْتَقْبَلًا بِمَشِيئَةِ اللَّهِ، بِمَشِيئَةٍ مِنْهُ هُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرٌ، وَقَدَّرَ بَيْنَ النَّاسِ أَقْدَارًا لَا يَعْرِفُونَهَا، وَلَا يَعْرِفُونَ مَا سَيَحْدُثُ فِيهَا. وَقَدْ سَبَقَ التَّعَرُّضُ لِهَذِهِ الدَّلَالَةِ.

وبعد ذكر حركة الشمس، يقول تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضِلِّ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ (١٧). الاستطاعة لله وحده، والمهتدي يدرك هذه الحدود، ويستعين بالله. وعدم الاستطاعة للمخلوق الذي إن ضل فلن تجد له ولياً مرشداً. ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾ (١٨) إِذَا عَلَى مَنْ لَا يَمْلِكُ الْاسْتَطَاعَةَ أَنْ يَذْكُرَ وَيَسْتَعِينُ بِمَنْ يَمْلِكُهَا وَهُوَ اللَّهُ وَحْدَهُ ﴿وَلَا تُشْرِكْ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾ (١٩). وقد غفل الناس عن حكمة قصة أصحاب الكهف وأسرارها، وتوقفوا عند سطح لا أهمية له، وهو التساؤل حول عددهم، وحتى هذا لم يستطيعوا معرفته، قال تعالى: ﴿سَيَقُولُونَ ثَلَاثَةٌ رَابِعُهُمْ كَذِبٌ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَذِبٌ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَذِبٌ﴾ (٢٠) وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَذِبٌ رَجْمًا بِالْغَيْبِ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَذِبٌ﴾ (٢١).

كَلِمَةً قُل رَّبِّي أَعْلَمُ بِعَدَّتِهِمْ مَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءَ ظَهْرٍ وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾

وقال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا وَإِنْ يَسْتَغِيثُوا يُغَاثُوا بِمَاءٍ كَالْمُهْلِ يَشْوِي الْوُجُوهَ بِئْسَ الشَّرَابُ وَسَاءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾﴾. الإنسان الذي يتبع خطوات الشيطان في ادعاء القدرة والاستطاعة واتباع الهوى، فليعلم أن نهاية الظالمين نار أحاط بهم سرادقها، فإبليس قد أقسم على أنه قادر على إغواء الناس أجمعين إلا المخلصين. والإغواء يكون بالتضليل. لهذا يقول الله تعالى: ﴿مَا أَشْهَدُكُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا ﴿٥١﴾﴾. في المقابل، فإن الله يبشر المؤمنين الذين أحسنوا بالجنة ونعيمها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ يَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعَمَ الثَّوَابِ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾﴾.

وفي نهاية السورة هناك تفصيل آخر عن الذين آمنوا: ﴿إِنَّ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا ﴿١٠٧﴾ خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا ﴿١٠٨﴾﴾. الفرق الواضح بين الآية رقم (30) والآيتين (107) و(108) في نفس السورة أن الخبر في الآية (30) عن الجنة التي أعدت للذين آمنوا وعملوا الصالحات قد أحسنها الله. وفي الآيتين (107) و(108) يتضح موقفهم من هذا النعيم، وهو أنهم لا يبغيون عنها حولا. المؤمن الذي رضي بما قسمه الله له في حياة الاختبار القصيرة في الدنيا قد أعد الله له نعيماً يرضيه في الآخرة؛ حالة التوافق والاتساق بين العبد وربّه، وهي عكس حالة إبليس الذي لم يرض بما خص الله به آدم، وزعم لنفسه الخيرية، وزعم لنفسه القدرة. وفي موقفه فسوقٌ بدون علم ودون تقدير لحكمة الحكيم. وفي آيات كثيرة نجد القول بغير علم مما يأمر به الشيطان، مثل قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّمَا يَأْمُرُكُمْ بِالسُّوءِ وَالْفَحْشَاءِ وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا نَعْلَمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾.

وفي قصة الرجلين -فضلاً عما ذكرت سلفاً- نجد ما يتعلق بالاستطاعة:

﴿ وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ إِنَّ تَرَنِّ أَنَا أَقَلَّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴾ (٣٩) فَعَسَى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِي خَيْرًا مِّنْ جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ السَّمَاءِ فَنُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَأْوَهَا غُورًا فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ، طَلَبًا ﴿٤١﴾، فلو تذكر هذا الرجل أن القدرة لله، وأنه بما ملك من جنة في دنيا زائلة، ليس بقدرته هو، وإنما من عند مَنْ يستطيع وَمَنْ له الأمر من قبل ومن بعد: ﴿ وَأَحِيطَ بِشَمْرِهِ فَاصْبَحَ يَقْلُبُ كَفَيْهِ عَلَى مَا أَتَقَّ فِيهَا وَهِيَ حَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ بَلِّغْنِي لِمَ أَشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴾ (٤٢) وَلَمْ تَكُنْ لَهُ، فَتَةً يَنْصُرُونَهُ، مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مُنْصِرًا ﴿٤٣﴾. القدرة والاستطاعة والولاية لله وحده: ﴿ هُنَالِكَ الْوَلِيَّةُ لِلَّهِ الْحَقُّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴾ (٤٤)، وقال تعالى:

﴿ وَأَضْرَبَ لَهُمْ مَثَلِ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْنَدَرًا ﴾ (٤٥) فلا نغتر بمال ولا بأولاد من زينة الدنيا، لأنها من الزائل، وإلى زوال: ﴿ الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَوَةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَةُ الصَّالِحَةُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ (٤٦) وقال: ﴿ وَيَوْمَ نُسِرُّ الْجِبَالَ وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا ﴾ (٤٧) وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِدًا ﴿٤٨﴾ وَوَضَعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يُوِيلُنَا مَا لِهَذَا الْكِتَابِ لَا يَغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴿٤٩﴾.

ويوم القيامة يجد الإنسان كتابًا لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها فتتجلى قدرة الله الذي لا يظلم أحدًا، وعدم استطاعة المخلوق، فكيف يتخذ البعض من عدو لهم أولياء والمعنى حاضرٌ هنا وكأنه تسجيل أكمل من الفيديو والسينما. قال تعالى:

﴿ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا ﴾ (٥٠).

يكشف الله طبيعة إبليس، فهو من الجن، لهذا فسق عن أمر ربه. ثم يقول تعالى:

﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُ مُتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصَدًا ٥١﴾ ﴿إِذَا مِنْ طِبَائِعِهِمُ التَّضْلِيلُ.

وقد أشرت في أكثر من سياق لبعض الآيات التي تكشف طبائع الشيطان وتحذر الإنسان من الوقوع في خطواته. والإنسان الذي يمارس الكذب أو التضليل أو المجادلة بغير علم أو الإفساد أو الفحشاء أو إشاعة العداوة والبغضاء بين الناس، إنما يتبع الشيطان ولا يتبع الله. ومن يتبع الشيطان يجره إلى عذاب السعير: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَرِيدٍ ٢﴾ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ٤﴾ (سورة الحج). وقال تعالى: ﴿السَّيِّطُنَ يَعِدْكُمْ الْفَقْرَ وَيَأْمُرْكُمْ بِالْفَحْشَاءِ وَاللَّهُ يَعِدْكُمْ مَغْفِرَةً مِّنْهُ وَفَضْلًا وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ ٣٨﴾ (سورة البقرة). وقال تعالى: ﴿إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا إِنَّمَا يَدْعُوا حِزْبَهُ لِيَكُونُوا مِنْ أَصْحَابِ السَّعِيرِ ٦﴾ (سورة فاطر). ويقول تعالى: ﴿إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ٧٦﴾ (سورة النساء). وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقًا ٥٢﴾ وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفًا ٥٣﴾ (سورة الكهف): ﴿نَادُوا شُرَكَائِيَ﴾ لكن الاستطاعة لله وحده الذي جعل بينهم موبقًا. فكما صرف للناس من كل شيء مثلاً، فيوم القيامة لن يجد المجرمون عن النار مصرفًا. قال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَىٰ وَيَسْتَغْفِرُوا رَبَّهُمْ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا ٥٥﴾ (سورة الكهف).

عدم قدرة الإنسان على إدراك حدوده، وعدم قدرته على إدراك حاجته للاستغفار ﴿إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمْ سُنَّةُ الْأَوَّلِينَ أَوْ يَأْتِيَهُمُ الْعَذَابُ قُبُلًا﴾ سنة الأولين، فضلاً عن عدم القدرة على إدراك الحق واتباعه. وقد صرف الله للناس في القرآن من كل مثل وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً. ففي القرآن كل ما يحتاجه الإنسان في حياته الدنيا وفيه دليله إلى الآخرة: ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا فِي هَذَا الْقُرْآنِ لِلنَّاسِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ وَكَانَ الْإِنْسَانُ

أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا ﴿٥٤﴾ (سورة الكهف). وقال تعالى: ﴿وَمَا تُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَجَدِلَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ وَاتَّخَذُوا عَائِيَّتِي وَمَا أَنْذَرُوا هُزُوعًا﴾ ﴿٥٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا ﴿٥٧﴾

ينسى الإنسان ما اقترفه من آثام، ويقع في خطوات الشيطان فيعرض عن أمر الله، والإنسان من طبيعته كثرة الأخطاء، وهو بحاجة إلى الاستغفار وإلى التمسك بأمر الله. فمن أظلم ممن ذكر بآيات الله فأعرض عنها، ووقع في مفارقة الغفلة عن ذنوبه التي تحتاج إلى رحمة الغفار، ولا حول ولا قوة إلا بالله. قال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤَاخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَلْ لَهُمُ الْعَذَابُ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجِدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْيلًا﴾ ﴿٥٨﴾ وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا ﴿٥٩﴾. يوم الدين في سياق بعض الآيات هو يوم الحساب، لكن هذا لا ينفي دلالة الأشمل، فكل يوم يقع فيه أمر الله هو يوم الدين، وهو ما يتحقق باستمرار، ولا يكون الكون ويستمر إلا بأمر الله. وأما الذين بلغ بغيتهم وفسادهم مبلغًا استحقوا عليه حسابًا معجلًا في الدنيا، إضافة إلى الآخرة، فقد وقع عليهم أمر الله: ﴿وَتِلْكَ الْقُرَى أَهْلَكْنَاهُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَعَلْنَا لِمَهْلِكِهِمْ مَوْعِدًا﴾ ﴿٥٩﴾.

في قصة موسى والعبد الصالح قال تعالى: ﴿...إِنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾ ﴿٦٧﴾. لم يستطع موسى أن يصبر على ما لم يحط به خبرًا، ومواقفه تلك تحمل دلالات مهمة تتعلق بطبيعة الإنسان الذي يحتاج إلى تذكير دائم، نتيجة ضعفه وهيمنة خبرته وعلمه على سلوكه، إضافة إلى أن من يملك مميزات معينة قد تغيب عنه مميزات وصفات أخرى، فتصبح الحياة تكاملاً وتآلفاً وتعاوناً ومحبةً، ويحكم هذه العلاقات الرضى بأرزاق الله في خلقه؛ والابتعاد عن خطوات الشيطان. ومن خطوات الشيطان: الخصام والتسلط والاستعباد والاستغلال والكراهية. مع التأكيد على قوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿وَقُلْ لِعِبَادِي يَقُولُوا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنْزِعُ بَيْنَهُمْ إِنَّ

الشَّيْطَانُ كَانَ لِلْإِنْسَانِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ قولُ التي هي أحسن في القول والعمل؛ بكلمة الود والمحبة لا كلمة الغل والكرامية والحقد والحسد. لهذا علينا أن نستعين بالله في كل وقت: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ نكرها في كل صلاة عدة مرات، وعلينا أن نتأملها بإدراك المعنى، فلا نظلم أحداً من خلق الله.

القوة والقدرة لله وحده الذي خلق كل شيء، وخلق الجنة للمؤمنين والنار للكافرين. قال تعالى: ﴿وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفُرْ...﴾ (سورة الكهف). وفي قصة ذي القرنين الاستطاعة فيمن آتاه الله من كل شيء سبباً، فأتبع سبباً، لهذا كانت استطاعته على من ظلم عذاباً، وكانت على من عمل صالحاً الحسنی، والقول يسراً. وفي العدل استطاعة على إدراك الحق واتباعه. وفي الظلم عجز عن إدراك الحق. وأما الذين لم يجعل الله لهم من دون الشمس سترًا، فلا أستطيع أن أبحث عن فهم ما لم يجعل الله له تفصيلاً.

وبين السدين سجد الذين لا يكادون يفقهون قولاً لم يملكو الاستطاعة في دفع فساد الذين امتلكوها على الظلم، وفوق استطاعتهم كانت استطاعة الله في رزقه لذي القرنين لتكون استطاعته أن يجعل بينهم سداً، فما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً. قال تعالى: ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ ﴿١٨﴾ ﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فُجِعَتْهُمْ جُمَعًا﴾ ﴿١٩﴾ وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضًا ﴿١٠٠﴾ الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا ﴿١٠١﴾؛ لا يستطيعون إدراكاً لما يسمعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله. الذين كانت أعينهم في غطاء عن ذكر الله وذكر قوة الله واستطاعته، مقابل ضعف المخلوق وحدود استطاعته، وحاجته لذكر الله والاستعانة به. قال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ نُنْفِذَ كَلِمَاتِ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ ﴿١٠٩﴾؛ حدود القدرة عند المخلوق. وقدرة الله لا يحدها حد؛ الاستطاعة الكاملة التي لا يستطيع المخلوق أن يدركها، والكلمات عند الله فيها الفعل (كن فيكون). وعلى كل ذلك، فإن كلمات الله التي لا تنفذ تتسع لما لا يمكننا أن ندركه.

وتنتهي السورة بكشف خطورة الاستطاعة المحدودة عند الإنسان: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ وَاحِدٌ ۚ فَنَ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ ۚ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ ۚ أَحَدًا ۝١١٠﴾ الإنسان في حياته الدنيا في اختبارٍ لحدود استطاعته، وهي الأمانة التي حملها، وسأشير للأمانة في سياق سورتي النحل والحج. فإن الاختبار يكون باختيار الطريق الذي يقدر الاستطاعة الحقيقية والكاملة لله، فيعمل عملاً صالحاً ولا يظلم أحداً باستطاعته المحدودة، تلك الاستطاعة المحدودة التي غرَّت إبليس ومن يتبعه، فاختار بها الشرَّ والإخلال بميزان الحياة. والاستطاعة بين الناس مستويات: في محيط الأسرة، وفي مجال العمل، وفي موقع السلطة والقرار. وحتى مع الإنسان ونفسه، في إشباع حاجاته وتصريف طاقاته، وفي تصريف ما لديه من استطاعة محدودة. فلو أدرك الإنسان المؤمن أن قبول الأعمال الصالحات والعبادات يرتبط بحسن الخلق، وهو مما يمكن أن يسرف فيه على نفسه وعلى غيره حينما يقع في سوء الخلق، إضافةً إلى الإسراف فيما يعلم وما لا يعلم -فعليه أن يسارع إلى مغفرة الرحمان الرحيم، ولا يقدم علمه ومعرفته وقدرته على من هو على كل شيء مقتدر ومن يقول للشيء كن فيكون ومن وسعت رحمته كل شيء. وذلك بأن يجعل الله وما يرضيه وما شمله الكتاب المبين الذي ﴿وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا﴾ دليلاً لسلوكياته ومواقفه وتصريف قدرته المحدودة.

والحمد لله الذي يغفر الذنوب جميعاً إلا أن يُشرك به: ﴿قُلْ يَاعِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٥٣﴾ (سورة الزمر). الاستطاعة لا تنحصر في ظلم الآخر، فهي تشمل ظلم الإنسان لنفسه، حتى في ظلمه للآخر هو يظلم نفسه، لأنه وحده من سيتحمل الحساب والعقاب على ذنوبه.

ملحق (2)

ملاحظات مهمة في بعض آيات سورة آل عمران:

قال تعالى في سورة آل عمران: ﴿الْم ۝١ اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ۝٢﴾
 نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ ۝٣
 الحق هو الله: ﴿ذَلِكَ يَأْنِ اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّ الْمَوْتِ وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٦﴾
 (سورة الحج)، والحق هو كتاب الله: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ۝٦٠﴾ (سورة
 آل عمران) نزل من عند الله بالحق: ﴿نَزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ۝٣﴾ كما
 نَزَلَ الْكِتَابَ السَّمَاوِيَّ (التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ). وَمَنْ لَا يَتَّبِعِ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ۝٤ لَهُمْ عَذَابٌ
 شَدِيدٌ ۝٥ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انْتِقَامٍ ۝٦﴾. إن الذين يتبعون الحق لا يقعون في التعصب الشيطاني
 (أنا خير منه) في التمسك بوهم (نحن وهم) ونحن لنا الحق وعدنا الحق وليس عند
 غيرنا. الحق هو الله وما نزل من عند الله، ويتبعه الذين يريدون الحق. والذين يريدون غير
 الحق هم الذين يقعون في التعصب للذات أو للمكان أو لرسالة جعل الله لها أمداً محدوداً،
 وجعل لغيرها شمولها والحق في اتباعها، ومن يقعون في هذا التعصب يخالفون ما
 أَرَادَهُ اللَّهُ -والله يريد الخير وإقامة الميزان الذي به تستقيم الحياة- ويقعون في خطيئة
 إبليس الذي خالف أمر الله واختار الشر الذي به يختل الميزان وتفسد الحياة.

وقال تعالى: ﴿وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِنْ تَأْمَنَهُ بِعِنَاطٍ يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ
 إِنْ تَأْمَنَهُ بِدِينَارٍ لَا يُؤَدُّهُ إِلَيْكَ إِلَّا مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لَيْسَ عَلَيْنَا فِي
 الْأُمِّيَّتِ سَبِيلٌ ۚ يَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ۝٧٥﴾: فمنهم من يؤدون
 ما عليهم من حق للآخرين، ومنهم من لا يؤدي إلا (مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَائِمًا وَيَقُولُونَ عَلَى
 اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ) أي يقولون غير الحق. ومما يأمر به الشيطان أن تقولوا على
 الله ما لا تعلمون، والابتعاد عن الحق بالتضليل.

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ
 يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ ۝١٠٠﴾ تحذيراً للمؤمنين من طاعة فريق من الذين أُوتُوا
 الكتاب، لأن ذلك ليس الحق، ويبعدهم عن الحق (يَرُدُّوكُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كُفْرِينَ)

والإيمان هو الحق وطريق الجنة، والكفر هو الباطل وطريق النار. وقال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ ﴿١٥٠﴾﴾. في الآيتين تحذير للمؤمنين من طاعة الذين كفروا لأن ذلك يؤدي إلى الخسران، ببعدهم عن الحق. ويأتي كشف الحق في قوله تعالى: (بَلِ اللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ خَيْرُ النَّاصِرِينَ). ويتأكد كشف الحق الذي قد لا يدركه البعض فيقعون في مفارقة فهم غير الحقيقة، في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقَوْا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٦﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٧﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ دِيَارِهِمْ فَأَتَىٰ خِيَابَ الْمَدِينَةِ فَبَاحِثِينَ فِيهَا النَّاسَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٧٨﴾﴾. إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه. فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين ﴿١٧٩﴾﴾.

وقال تعالى: ﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ ﴿١٨٠﴾﴾. فأيات الله التي تتلى بالحق تنجي العالمين من ظلم أنفسهم وغيرهم. وقال تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَكُمْ هُمْ لِلْكَافِرِينَ يَوْمِئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٧٧﴾﴾. في هذه الآية مفارقة النفاق، حيث يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم، والله أعلم بما يكتُمون؛ أي يقولون غير الحق يخفون حقيقتهم. وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلُّ لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُمِلُّ لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾. واضح التحذير من الوقوع في المفارقة، ويتأكد التحذير بصورة أخرى في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَمَةِ وَاللَّهُ مِيرِثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا نَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾﴾. وقال تعالى: ﴿الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١٦٠﴾﴾. الحق من عند الله، لا يكون محصوراً على نبي أو رسول محدد،

فكما جعل للتوراة والإنجيل حدوداً زمانية ومكانية، جعل للقرآن كملاً وشمولاً لكل الخلق في كل مكان إلى أن تقوم الساعة.

وقال تعالى: ﴿وَدَّتْ طَائِفَةٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يُضِلُّوكُمْ وَمَا يُضِلُّوكُمْ إِلَّا أَنفُسُهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ (٦٩) يَتَّاهِلُ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ شَاهِدُونَ ﴿٧٠﴾ يَتَّاهِلُ الْكِتَابِ لِمَ تَلْسُونَهُ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْفُرُونَ بِالْحَقِّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٧١﴾ واضح المعنى في الآيات: ودت طائفة من أهل الكتاب أن يضلوكم (يبعدونكم عن الحق) (وما يضلون إلا أنفسهم وما يشعرون) حيث يتم إخفاء الحق رغم العلم به. وقال تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (١٨١) يقولون على الله غير الحق ويفهمون عن أنفسهم غير الحق (أنهم هم الأغنياء) ويقتلون الأنبياء بغير حق.

وقال تعالى: ﴿إِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ (١٨٤) كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴿١٨٥﴾ الموت حق، وبه تنتهي الأمانة التي حملها الإنسان في تصريف ما استأمنه الله من استطاعة محدودة ليقوم بها ميزان الخير والسلام في الحياة، ويبدأ الحساب (وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور). وفي الآية 187 يكشف الله أهل الكتاب الذين كتموا الحق وهم يعلمون، ليشتروا به ثمناً قليلاً: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبُخْسَ مَا يَشْتَرُونَ﴾ (١٨٧). وفي الآية 188 الذين يحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا، وبعدها آية بيان حقيقة الملك: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (١٨٩) الملك لله، والله على كل شيء قدير، وهذا هو الحق الذي يغفل عنه الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدا بما لم يفعلوا.

والخلاصة أنَّ الحق هو الإسلام: ﴿ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ
اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴾ (سورة آل عمران: 19). والإسلام أن تسلم الأمر
للَّهِ، وتتبع الحق الذي نزل في القرآن: ﴿ وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ
وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (سورة آل عمران: 85).



Abstract

Irony in the text; This research aims to understand the nature and function of the term irony. They remove its ambiguity and expand its function. This goal is achieved by studying the types of ironies, their definitions, their problems, and their applications through; description and analysis. ...Many problems have accompanied this term since its inception is the First, the problem of confusing irony and sarcasm. ...Second, the problem of multiple types of Irony and their definitions; Such as (verbal irony), (romantic irony), (dramatic irony), (irony of fate) Third, lack of separation between the use of irony in the literary text, and its occurrence in daily life. **That is why the reseacher divided this research into three chapters:** Chapter one It is concerned with the nature of the term irony and its problems. In it the reseacher, came up with one concept and definition of the term; (To understand words, deeds, or something that is understood without its truth, then a problem occurs)). ...Chapter two is about the: The irony function in the literary text. It uses a constructive and aesthetic technique, and it occurs in everyday life. Chapter ... three is about the application of the Irony through verses from the wise Qur'an.

Key words: Irony, Text, Sarcasm, verbal irony, Romantic, Dramatic, Fatalism, Technique.



The Author:

Sabri Al-Haiki.

- He is a painter and critic poet and was born in "Yemen" 1961.
- A specialized researcher in the dramatic criticism and the techniques of playwriting, Academy of Arts, Cairo, 2006.
- Full-time researcher.

Publications:

Studies:

- 1- Irony in the Text, 2021.
- 2- Signifier and Substitution in the Sources of the Text, Sana'a, Abadi Center for Studies and Publication, 2008.
- 3- Irony in the Yemeni Novelist Text, Critics Make a Wave for the Sea, (in conjunction with a group of researchers), Sana'a, Yemeni Literary and Writers Union, 2008.
- 4- Irony In the Art of Caricature, Naji al-Ali, (together with a group of researchers), [Sana'a], Center for Yemeni Studies and Research, 2008.

Texts:

- 1- Zaid Al-Moushaki, «A Historical Story of the Boys», on the Children's Book Series, Ministry of Information and Culture, Sana'a, 1983. Novel.
- 2- Poetry in the Time of Chaos, 1985, Commercial Printing, Kuwait. Poetry.
- 3- Abundance, 1990, the Printing Press of Akrama, Syria. Poetry.
- 4- Fortune-Teller, play 1992.
- 5- L'ivre Caravane, Paris, Sous le patronage de l'Unesco, 1993.
- 6- 2000 AD, anthology poems, in French, with some of the works of the pictorial images «Azabel and Les»: Yemen Peuple des Sables, «Belgium», © LA RENAISSANCE LIVR, 2000.
- 7- Participation in the Dictionary of Poets 1-6 from the pre-Islamic to the year 2000, 2c. Participation in the Dictionary of Writers 1-7 from the pre-Islamic to the year 2000, C 3.
- 8- Participation in «the Dictionray of the Babtain Contemporary Arab .Poets».
- 9- His Poetry were studied in some scientific messages and research· such as ,A Doctorate in Stylistic in Modern Yemeni Poetry Ain Shams University – Cairo, 1995 Dr. Ahmed Kassem Al-Zomor.

Scientific Studies and Research:

- 1- The Problem of Adjustment in the Character of Drama Hero 1985 Kuwait· Higher Institute of Dramatic Arts. (BA from the Department of criticism and literature), published in the Journal Yemen new in March 1998.
- 2- Administrative Establishment in Yemen applied to the General Organization of Theater and Cinema 1995 National Institute of Administrative Sciences Sana'a.
- 3- The Technique Features of Playwriting in Yemen· Academy of Arts Cairo 2006.

Researches of refereed such as:

- 1- The Philosophy of Substitution in the Holy Qur'an and In the Theory of Text Sources.

Doi 10.34120/0757-044-636-001

Monograph (636)

Irony in the Text

Sabri Al-Haiki

Researcher

Yemen

ANNALS OF THE ARTS AND SOCIAL SCIENCES - KUWAIT UNIVERSITY

Editorial Board

- **Prof. Taghreed Alqudsi**
Editor - in - Chief
Department of Information Studies
Kuwait University
- **Prof. Baqer Salman Alnajjar**
Bahrain University - Bahrain
Visiting Prof. Sociology and Social
Service Department - Kuwait University
- **Prof. Numan M. Jubran**
Irbid University - Jordan
Visiting Prof. History Department -
Kuwait University
- **Prof. Adnan Y. Alotoum**
Psychology Department - Yarmouk
University - Jordan
- **Prof. Mashael Al-Hamly**
English Department and Literature
Kuwait University
- **Dr. Abdullah Mohamed Aljasmy**
Philosophy Department
Kuwait University
- **Dr. Ibraheem Nagy Al-Hadban**
Department of Political Science
Kuwait University
- **Dr. Ahmed Mubarak AlHasem**
Geography Department
Kuwait University
- **Dr. Asad H. AL-Saleh**
Arabic Department
Indiana University - USA
- **Maha Ibrahim Al-Msad**
Editorial Manager

Advisory Board

- **Prof. Basil Hatim**
American University
Sharjah - United Arab Emirates
- **Prof. Ibrahim Al-Sa'afin**
Department of Arabic Language
and Literature - Jordan University
- **Prof. Hamdi Hasan Abul Enein**
Faculty of Mass Communication
Misr International University
- **Prof. Sari Hanafi**
President of the International Sociological
Association - American University- Beirut
- **Prof. Mona Baker**
Manchester University
United Kingdom
- **Prof. Abdul Qader Al-Fasi Al Fehri**
Department of Arabic Language and
Literature -Mohammed V University
- **Prof. Abdullah Al-Walee'i**
Geography Department
King Saud University
- **Prof. Ma'moun Fandi**
Director of London Institute of
Strategic Studies - United Kingdom

ANNALS OF THE ARTS AND SOCIAL SCIENCES

Academic Publication Council - Kuwait University

**REFEREED SCIENTIFIC QUARTERLY IN THE HUMANITIES,
SOCIAL SCIENCES & LITERATURE**

Volume 44, 2023

Rates:

Kuwait: K.D. 0.500, Bahrain: BD 1, Qatar: RQ 10, Emirates: DH 10,
Saudi Arabia: RS 10.

Cost per issue in Arab Countries: Equivalent to one US dollar

Cost per issue in other Countries: Equivalent to three US dollar

● Annual Subscription (individuals):

1 Year: Kuwait: 4 K.D., Arab Countries: 6 K.D., Foreign Countries 22 dollars.
2 Year: Kuwait: 7 K.D., Arab Countries: 10 K.D., Foreign Countries 37 dollars.
3 Year: Kuwait: 10 K.D., Arab Countries: 14 K.D., Foreign Countries 52 dollars.
4 Year: Kuwait: 13 K.D., Arab Countries: 18 K.D., Foreign Countries 67 dollars.

● Annual Subscription (institutions):

1 Year: Kuwait: 22 K.D., Arab Countries: 22 K.D., Foreign Countries 90 dollars.
2 Year: Kuwait: 37 K.D., Arab Countries: 37 K.D., Foreign Countries 150 dollars.
3 Year: Kuwait: 53 K.D., Arab Countries: 53 K.D., Foreign Countries 210 dollars.
4 Year: Kuwait: 67 K.D., Arab Countries: 67 K.D., Foreign Countries 270 dollars.
All correspondence and enquiries must be addressed to:

Editor

ANNALS OF THE ARTS AND SOCIAL SCIENCES

P.O.BOX 17370 EL-KHALDIAH - KUWAIT 72454

Tel: 24830256 - Fax: 24830256

ISSN 1560-5248 Key title: Hawliyyat Kulliyyat al-Adab

E-mail: aass@Ku.edu.Kw

[http:// apc. kuniv.edu.kw/AASS/](http://apc.kuniv.edu.kw/AASS/)

تتوفر نصوص البحوث كاملة لدى:

EBSCO Publishing Products

www.mandumah.com : دار المنظومة

Ulrich's Periodicals Directory 263117

The Publications of The Academic publication Council

journal of the Social Sciences 1973, Kuwait Journal of Science and Engineering 1974, journal of the Gulf and Arabian Peninsula Studies 1975, Authorship Translation and Publication Committee 1976, Journal of law 1977, Annals of the Arts and Social Sciences 1980, Arab Journal for the Humanities 1981, The Sducational Journal 1983, Journal of Sharia and Islamic Studies 1983, Arab Journal of Administrative Sciences 1991.

ANNALS OF THE ARTS AND SOCIAL SCIENCES

A Refereed Academic Quarterly, Academic Publication Council - University of Kuwait

المفارقة في النص Irony in the Text

Sabri Al-Haiki

Researcher
Yemen



جامعة الكويت
KUWAIT UNIVERSITY

Academic
Publication Council

ISSN: 1560 - 5248

Monograph 636 - Volume 44

1445 A.H / December 2023